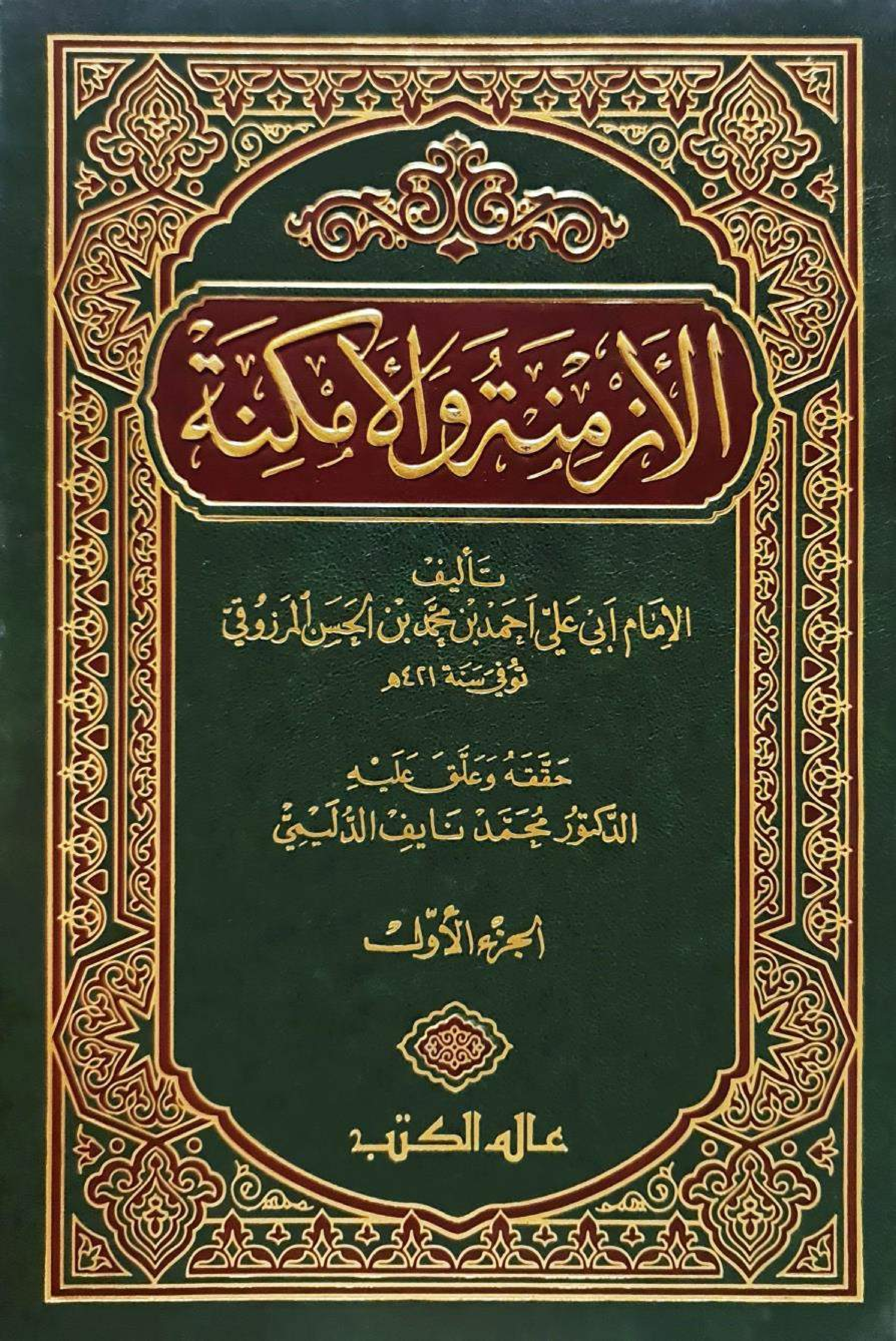
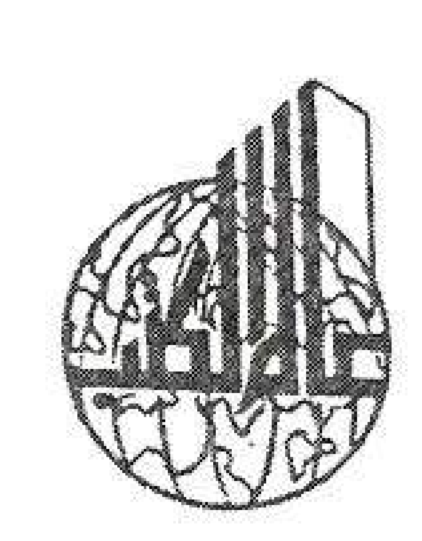

الأزمنة والأمكنة
تأليف
الإمام أبي علي أحمد بن محمد بن الحسن المرزوقي
توفي سنة ٤٢١هـ
حققه وعلق عليه
الدكتور محمد نايف الدليمي
الجزء الأول
عالم الكتب



عالم الكتب
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت ـ لبنان

ص.ب: ٨٧٢٣ ـ ١١، برقياً: نابعلبكي
تلفون: ٣١٥١٤٢ ـ ٨١٩٦٨٤ (٠١)
خليوي: ٠٣/٣٨١٨٣١
فاكس ٣١٥١٤٢ (٩٦١١)

WORLD OF BOOKS
FOR PRINTING, PUBLISHING & DISTRIBUTION
BEIRUT - LEBANON
P.O.BOX: 11-8723, CABLE: NABAALBAKI
TEL.: 01-819684 / 315142
CELL. 03-381831, FAX: (9611) 315142
E. mail: alamko @ dm.net.lb

الطبعة الأولى
١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م

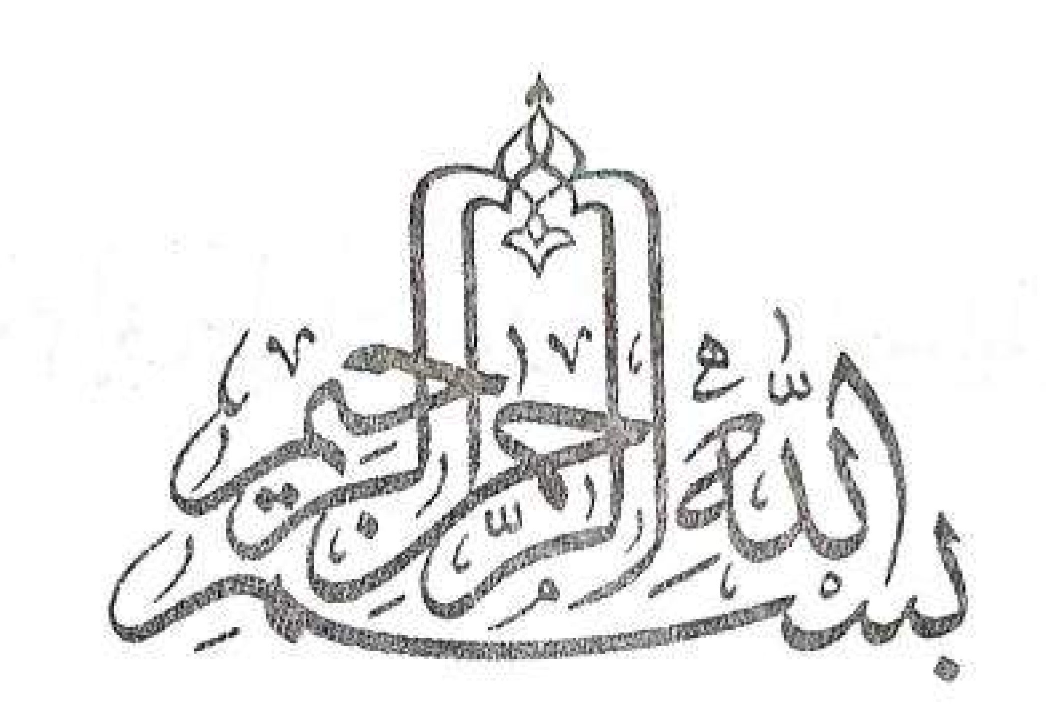
الأزمنة والأمكنة

تأليف
الإمام أبي عليّ أحمد بن محمّد بن الحسن المرزوقيّ
توفي سنة ٤٢١هـ

حقّقه وعلّق عليه
الدّكتور محمّد نايف الدّليميّ

الجزء الأوّل

عالم الكتب



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد للّهِ الذي هدانا لهذا، وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والصلاة والسلام على المبعوث بالحق محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإنّه لمّا يسَّرَ الله سبحانه وتعالى لي أن أعمل مع أستاذي الجليل المرحوم الدكتور نوري حمودي القيسي على تحقيق كتاب الأنواء والأزمنة ومعرفة أعيان الكواكب في النجوم لعبد الله بن عاصم الثقفي المتوفىٰ سنة ٤٠٣ هـ، كان من بين المصادر التي رجعنا إليها للتوثيق كتاب الأزمنة والأمكنة للمرزوقي، وكانت مراجعتنا له في أول الأمر مجرد إحالة على الكتاب لتعزيز خبر أو توثيقه، فلم ندرسه ولم نتقصَّ ما فيه.

ومن ثمّ هيّأ الله سبحانه وتعالى لي أن أسجّل رسالة ماجستير تحت عنوان «ألفاظ النوء في اللغة والقرآن الكريم»، فكان أحد مصادري المهمة هذا الكتاب، فعدت إليه، إلاّ أن العودة هذه المرّة اختلفت عن سابقتها، فرحت أقلِّب الكُتاب صفحاته، وأتحرّىٰ ما فيه من معلومات، فوجدتها ذات قيمة علمية كبيرة، وأنّ صفحاته تحتوي على أخبار وأشعار كثيرة جدّاً، قد يفيد منها المفسِّر والنحوي واللغوي والأنوائي، فضلاً عن أصحاب الكلام والمنطق، وأنّ صاحبه قد بذل فيه جهداً كبيراً، وأنّه قد نخل فيه عصارة ما يمتلك من قدرة علمية ومعرفية، إذ قال في المقدّمة:

وهذا الكتاب منّي ببال، أتصفح ورقه بأيدي فكري، وأتصور مضمونه في مطارح فهمي، فينيلني إذا صادفته جموحاً، ويوليني إذا صافحته ازوراراً وشسوعاً، وكان يطلب لنفسه حظّاً زائداً على ما أوتيته، وسهماً عالياً لما أجيله فأعطيه، إلى أن تبوّأ من علوِّ الوكد والاهتمام في أعلى الرُّبَىٰ، ومن مرتقىٰ التوفّر في الاعتناء في أسنىٰ الذرىٰ.

وكانت لي رجعة ثالثة إليه حين سجلت رسالة الدكتوراه في كلية الآداب بجامعة

الموصل ووسمتها بميسم ألفاظ الرياح والسحاب والمطر دراسة دلالية، فعدت إلى الكتاب عودة غير العودتين الأوليين، لأنّ ما في هذه الرسالة يتعلق بكثير من المعلومات التي وردت فيه.

حينئذاك أشّرت على الكتاب ما وقع فيه من التصحيف والتحريف والخلط والإرباك فكان كمًّا كبيراً قدّرت معه أنّ هذا الكتاب لا ينبغي أن يكون مرجعاً للدارسين ما لم تصحَّح المعلومات المشوّهة التي وردت فيه، لأنّ العبث الذي وجدته فيه من جهل الناسخ وسهو الطباع، وقلة دراية المشرف على الطبع فيه شجعني على أن أعيد نشره محققاً تحقيقاً علمياً، لأنّ المزيّة التي في هذا الكتاب لا ينبغي أن تتجاوز وتهمل، فهو يحمل كمّاً هائلاً من المعلومات النوئية المتعلقة بالفلك وتغيرات الفصول، وما يتعلق بالزمان والمكان، ممّا ينبغي لمن يقدم على تحقيق مثل هذا الكتاب أن يكون على دراية بها، أو على الأقل يحمل من المعلومات عن علم الفلك عند العرب (علم الهيئة) شيئاً ولو يسيراً كي لا يقع فيما وقع فيه الذين قاموا بتحقيق بعض كتب الأنواء، كالأنواء في مواسم العرب لابن قتيبة الدينوري، والأزمنة وتلبية الجاهلية لقطرب، وغيرها.

وكتاب «الأزمنة والأمكنة» طبع في الهند عام ١٩٣٢م بلا تحقيق، إلاّ بعض التعليقات التي وضعها المشرف على الطبع، والتي لا تقدم شيئاً للمخطوط، والكتاب يخلو من مقدمة ناشر، ولا يحكي عن المخطوطة شيئاً، ولا يذكرها، أو أين مكانها، ممّا اضطرني أن أراسل بعض الجهات التي قدّرت أنّ لديها معلومات عن هذه المخطوطة المهمة جدّاً في حياتنا المعاصرة، والمكتبة العربية تفتقر افتقاراً شديداً إلى ما يتعلق بعلم الفلك عند العرب.

فاستعنتُ بالله تعالى، وسألته أن يلهمني الصبر والدراية والمعرفة، ويعينني على إخراج هذا الكتاب بالصورة التي يرضاها هو أوّلاً، وصاحبها ثانياً، لأنّ كتابه هذا الذي بذل فيه هذا الجهد الكبير قد تشوّه كما تشوّه غيره من الكتب، وعسىٰ أن يرضىٰ عنه القارىء الكريم. ويعذرني عن الهفوة والزلّة التي قد تقع في الكتاب.

لقد اعتمدتُ في تحقيق هذا الكتاب على المطبوع بعد أن يئست من العثور على النسخة الخطية، وأخذته بالأناة والتؤدة، عارضاً إيّاه على كتب الأنواء والأزمنة والمعجمات والتفاسير وكتب المعاني والغريب ودواوين الشعراء وما يتعلق بالكتاب من المظانّ الأخرىٰ التي وجدت فيها معلومة تفيد هذا الكتاب من قريب أو بعيد، كي يقف القارىء المتخصص بله الاعتيادي على الجهد المضني المبذول الذي بذلته في إخراج هذا الكتاب بهذه الصورة، ولو تيسرت لي المخطوطة لكان الجهد المبذول أقلّ من ذلك بكثير.

وليس ذلك مِنَّة أمنُّها على صاحب الكتاب، ولا على القارىء الكريم، وإنما هو واجب ولزام عليّ وعلىٰ كلّ من يعمل في هذا الميدان من العرب، لأنّ هذا من مقوّمات كيانهم ومن دعامات وجودهم، وركائز حياتهم، فإنّ على أمة العرب الآن واجباً ينبغي عليهم أن يؤدوه، وأن ينهضوا به نهوضاً علمياً جادّاً، وأمّة الغرب تتسابق في ميدان البحث والتقصّي، وقد وصلت إلى ما وصلت إليه من معرفة، وكان واحداً من أسباب نهوضها هذا الكم الكبير من المخطوطات العربية العلمية والإنسانية التي نشرها المستشرقون ووظّفوا ما فيها توظيفاً علمياً جادّاً، وما يزالون عليها عاكفين، يقف على رأس كلّ هذا كتاب الله المجيد، الذي فتح آفاق العلم والبحث والتقصي، وأنار السبل أمام السائرين في طريق التقدّم ونشدان المعرفة.

وما أحرانا ـ نحن العرب ـ أن نستخرج هذا الكنز المدفون، وهذا العلم الثر الذي ينضمّ عليه خمسة ملايين مخطوط أو يزيد، تنتشر في أرجاء العالم، تنتظر من العرب أن يخرجوها إلى النور، ويزيلوا عنها غبار السنين، وأن يوظّفوا المعلومات التي فيها توظيفاً علمياً معاصراً، من غير أن نستسلم للغرب وما ينظّره لنا من أمورنا، وهي مسألة أضعها بين يدي المسؤولين والقائمين على هذه المسألة، لعلي أجد سامعاً ذا غيرة يعين على انتشال هذا الكم الهائل من هذا القبو المظلم، أو يشجع على نشره، فيكون بذلك قد وفّىٰ ذمّة، واستجاب لنداء مُخْلِص. حيث ما كان في أرجاء معمورة أمة العرب.

ولتعزيز ما ذهبت إليه فقد قمت مع أخي الفاضل الدكتور محمد باسل الطائي أستاذ الفيزياء بكلية العلوم بجامعة الموصل، والأخت الفاضلة ندىٰ نايف نجم السنجري بتحقيق كتاب التفهيم لأوائل صناعة التنجيم لأبي الريحان البيروني الذي نشره المستشرق رمزي رايت، وبعد الاطلاع على المخطوط قدّرنا أنّ هذا المستشرق كأنه أراد أن يحفز الإنسان العربي كما فعل غيره من المستشرقين على أن العرب هم أولى بنشر تراثهم منهم، فقد وضع هذا المستشرق الترجمة الانكليزية قبالة الصفحة العربية، وبعد مقابلة الكلام الانكليزي بالكلام العربي تبيّن لنا أنّ هذه الترجمة ليست للنسخة العربية من المخطوط، وإنما هي للنسخة الفارسية، لأنّ الكلام يختلف كثيراً بين الكلام العربي والترجمة، رغم ما بذله المستشرق فيه من جهد حين اطّلع على المخطوطات العربية للكتاب ووصفها بالمقدمة التي قدّم بها للكتاب، واستخلص منها نسخة اعتبرها النسخة الأصل، كما وصف النسخ المكتوبة بالفارسية، وقد نبّهنا إلى ذلك في المقدمة التي وضعناها للكتاب، بعد أن قمنا بتحقيق الكتاب على وفق ما يقتضيه التحقيق المعاصر، القائم على المقارنة العلمية مع المستجدات

المعاصرة في مجال هذا النوع من التآليف، إذ قد وجدنا فيه من الحقائق العلمية التي تتطابق مع العلمية المعاصرة في هذا الميدان، لننظر كم هو حجم المخطوطات التي نُشرت في الغرب وأفادوا منها إفادة تامة وأعادوها إلينا بعد أن استفرغوا ما فيها لُقَطاً يفرح بها بعضنا لأن المستشرقين قد قاموا بتحقيقها ونشرها، والأجدر أن نقوم نحن العرب بتحقيقها ونشرها، لأننا ندرك من اللغة ما لا يدركون، ونعرف من أسرارها ما لا يعرفون، وحسبنا الله.

وكتاب «الأزمنة والأمكنة» يقع في ثلاثة وستين باباً، توزَّعت على أكثر من تسعين فصلاً، قسم الناشر هذه الأبواب قسمين، فجعل عشرين باباً في الجزء الأول من الكتاب، وجعل المتبقي في الجزء الثاني منه، ولم يقدّم له بمقدمة، ولم يلمح أية إلماحة إلى شيء يتعلق بالمخطوط، أو مكانه، أو أية مكتبة تنضمّ عليه، وإنما بدأ بمقدمة المؤلف، وختمه بتقريض لمجهول قال عنه: إنه وجده في نهاية المخطوط.

جاء في نهاية الجزء الثاني من المخطوط كلام نُسِبَ إلى المؤلف إذ قال: فَرَغتُ منه ضحوة يوم الخميس ثالث عشر جمادىٰ الأخرىٰ سنة ثلاث وخمسين وأربعمئة، حامداً الله تعالى على نعمه وأياديه الظاهرة والباطنة.

والذي يبدو أنّ هذا التاريخ الذي وقع فيه الفراغ من تأليف الكتاب وَهْم، لأنَّ وفاة الإمام المرزوقي كما ذكرتْها كتب التراجم كانت سنة ٤٢١ هـ، على ما سنذكره في ترجمته، وقد يكون هذا التاريخ هو تاريخ الفراغ من نسخها من قبل ناسخ، وليس من التأليف.

لقد قَسَّمَ المرزوقي كتابه هذا إلى أقسام ثلاثة ذكرها في خاتمة الجزء الثاني، وأنّ هذه الأقسام تناولت جماهير أبوابه وفصوله، ولا يختص به بعض دون بعض.

الأول: التنبيه على نعم الله جلّ جلاله فيما نصب للمكلفين في آناء الليل والنهار؛ من الأدلة الواضحة والحِكَم البالغة، وأفادهم فيما سخّره لهم وأعانهم به في جوانب البر والبحر من النعم الظاهرة والباطنة قولاً وفعلاً وجملاً وتفصيلاً في بداهة العقل وعلى ألسنة الرسل. . .

والثاني: التذكير بحكم العرب في لغاتهم وآدابهم وعاداتهم ومآدبهم، مع تلاحق أقطارهم وتضايق أوطانهم، ورضاهم بالعفو من مقاماتهم ومآبهم على اختلاف أسبابهم وطرقهم. . .

والثالث يحوي لمعاً من الأشعار، وغرراً من النوادر والآثار، اقتضىٰ ذكرها مناسبتها

للأزمان التي هي من همّنا، وفرضنا على أنفسنا الوقوف تحت ظلّها، ولو تقصّينا أبوابها لفني العمر وبقي منه الكثير، فتطرّفنا منها ما تطرّفنا إيذاناً بأنّ الغفلة لم تحل دونها، ولئلا تخلو تضاعيف الأبواب من بعضها. . .

إنّ الكتاب بطبعته التي طبع عليها قد تشوهت بعض معالمه جراء التصحيف والتحريف والخلط الذي طال حتىٰ الأشعار التي ورد الكثير منها منثوراً على ما أشرت إليه مهمشاً، فضلاً عن الكم الكبير من الأخطاء التي لو أشرت إليها كلها في الحواشي لكبر حجم الكتاب، فتركتُ الكثير منها بعد تصحيحها، ولم أُشر إليها لأنها لا تشكل شيئاً في التغيير الدلالي، واكتفيتُ بذكر ما يغير معنى أو يربك فهماً، إلى جانب تصحيح الأشعار وإحالتها إلى قائليها حيثما وجدتُ إلى ذلك سبيلاً، ومن ثم تخريجها على ديوان الشاعر أو على غيره من الكتب، وما لم أجده فقد تركته غفلاً حين يئست من العثور على قائله، كما قمت بمعارضة ما ورد من التنزيل العزيز على كتاب الله محيلاً إلى آياته وسوره، والذي لم يسلم هو الآخر أحياناً من الخلط والتصحيف في المطبوع، وكذلك فعلتُ في الحديث النبوي الشريف.

ولا أكتم أنه استغلق عليَّ فهم بعض المفردات والتراكيب التي وردت في المطبوع، وحين يئستُ من العثور عليها في المراجع التي استشرتها تركتها كما هي، وأشرت إلى ذلك مهمشاً.

وقد عشت مع هذا الكتاب فترة من الزمن ليست بالقصيرة، أتسَقَّط هذا المعنىٰ، وأتصيَّد هذا اللفظ من هذا الكتاب أو ذاك، وأقوّم كل منآدٍ أغفله المطبوع، أو سها عنه، أو حرَّفه؛ أو صحَّفه، أو رسم حرفه بصورة مغايرة للمألوف، حتى حصلت عندي القناعة الكافية بأنّ الكتاب قد وصل إلى ما أطمح إليه وأرتضيه له من الدقة العلمية، والأمانة التي عليها واجب إخراج النص بصورته المرادة له، فلم أتزيّد على النص إلاّ كلمات اقتضاها السياق على ما ذكرته في منهج التحقيق، ولم أنقص منه شيئاً بحجة عدم معرفة قراءته، متداركاً في الحواشي ما وقع من خلاف بين المطبوع وبين المظان التي استشرتها له، توثيقاً أو تقويماً، أو تثبيتاً للرواية، أو تعديلاً عليها، وعلى وفق المنهج الآتي:

١ ـ حصرت بين هذين القوسين ﴿ ﴾ ما ورد من نصوص قرآنية جليلة.

٢ ـ حصرت بين هذين القوسين الصغيرين « » ما ورد من حديث نبوي شريف.

٣ ـ حصرت بين هذين المعقوفين [ ] كلّ ما زدته على النص سواء كان من مصادر التحقيق، أو لما اقتضاه السياق.

٤ ـ قمتُ بتخريج الأقوال والأشعار والأسجاع النوئية، وأحلتها إلى المظان التي وردت فيها قدر ما أسعفتني المراجع في ذلك.

واللَّهَ أسأل أن أكون قد وفقت في تقديم عمل يزيد من إيمان المؤمن، ويقوّم من غفلة الغافل فيرجع عن غفلته. والله حسبي، عليه توكلت وإليه أنبت وإليه المصير.

وبعد أيضاً: فالمرزوقي هو أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن، من أهل أصبهان، لم يذكر أحد من مترجميه سنة ولادته، إلاّ أنهم أجمعوا على أنّ وفاته كانت سنة ٤٢١ هـ. كما أنّ مصادره لم تذكر شيئاً عن حياته إلاّ قولهم: إنه كان معلّماً لأولاد بني بويه بأصبهان[١].

تتلمذ أبو علي المرزوقي على أبي علي الفارسي المتوفى سنة ٣٧٧ هـ، وكثيراً ما ذكره في كتبه بقوله: قال شيخنا. وذكر له ياقوت تلميذاً واحداً سمّاه سعيداً، وقد ترك لنا المرزوقي عدّة مؤلفات منها:

١ ـ شرح ديوان الحماسة المنسوب لأبي تمام، أطراه العلماء كثيراً، فقال ياقوت: أجاد فيه جدّاً، وقال القفطي: هو الغاية في بابه، وقال ابن شاكر الكتبي: هو أحسن شروحها، طبع هذا الكتاب بتحقيق عبد السلام هارون في أربعة مجلدات.

٢ ـ شرح المفضليات، لا يزال مخطوطاً، منه نسخة في مكتبة برلين تحت الرقم ٧٤٤٦.

٣ ـ شرح الفصيح، ذكره القفطي وقال: جميل في نوعه.

٤ ـ شرح أشعار هذيل.

٥ ـ الأمالي، منه قطعة في دار الكتب المصرية برقم ٣٣٠٠ أدب، شرح فيه شيئاً من الآي المجيد، والحديث النبوي الشريف والأمثال والحكم. وهذا الكتاب يشجعني على أن أقول إنه كان له تلاميذ يدرسون عليه، وأملى هذا الكتاب علبهم.

٦ ـ ألفاظ العموم والشمول، منه قطعة بدار الكتب المصرية برقم ٤١٤٠ أدب.

٧ ـ شرح الموجز في النحو، ذكره ابن شاكر الكتبي.

٨ ـ شرح النحو، ذكره ياقوت. وأظنه الكتاب الذي قبله.

٩ ـ الأزمنة والأمكنة، وهو هذا الكتاب، وقد ذكر في نهاية الجزء الثاني منه أنه فرغ من تأليفه في سنة ٤٥٣ هـ، وهو لا شك وهم، على ما ذكرناه قبل في المقدمة، والذي يبدو

---

(١) يُنظر في ترجمته: معجم الأدباء ٥/ ٣٤، وإنباه الرواة ١/ ١٠٦، وبغية الوعاة ١٥٩، ومقدمة شرح ديوان الحماسة، الجزء الأول، بتحقيق عبد السلام هارون.

أن المرزوقي ألّف هذا الكتاب قبل شرح ديوان الحماسة، أي قبل سنة ٤١٧ هـ، وذلك أنّ ياقوت الحموي ذكر أنه وجد خطه على كتاب شرح الحماسة من تصنيفه، وقد قُرِئ عليه في شعبان سنة ٤١٧ هـ.[١].

هذا ما أردت أن أضعه بين يدي هذا الكتاب، وأسأل الله تعالى أن يتقبّله مني خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفعني به، كما أسأله تعالىٰ أن يوفِّق العاملين على خدمة هذه الأمة العريقة الأصيلة وتراثها الخالد، إنه سميع مجيب الدعاء.

الدكتور محمد نايف الدليمي

الموصـــل

---

(١) معجم الأدباء ٥/ ٣٥.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الذي لا تحصىٰ آلاؤه بتحديد، ولا تُعَدُّ نعماؤُهُ بتعديد، خالقِ الظُّلَم والأنوار بعجائب صنعته، ومالك المدد والأقدار بغرائب حكمته، فله في كلّ ما أنشأ وأبتدع، وفي جميع ما أوجب واخترع، عند تناسخ الأزمنة في أهاليها، وتعاقب الملل والدول بين مترفيها، آماد ورُتَب، وآيات وعِبَر، لا يجمع جملها إلاّ إدراكه وعلمه، ولا يُنَوِّع تفاصيلها إلاّ إحصاؤهُ وحفظُه، وإن كان كثير منها يحصِّلُه العيان؛ وتصوره الأذهان، من الأفلاك وبروجها؛ ومنازل النَيِّرَينِ فيها، واستمرار مسيرها في حَدَّي الاستقامة والرَّجْعَة؛ والبُطءِ والسُّرعةِ، وتكوير الليل على النهار، وتكوير النهار على الليل، وتَبَدُّل رطوبتها وبَردها وحرّها، ويَبَسِها ولينها، وتغيُّر أدوار النجوم في طلوعها وأفولها، قال الله تعالىٰ: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ ﴾[1]، وفي الاختفاء عن بعض الأمصار وظهورها، وتَساوي الجميع في الدلالة على حِكَم الآثار، وله الخَلْقُ والأمرُ، وإليه المرجع والمُسْتَقرُّ، تبارك اللّهُ أحسنُ الخالقينَ، وصلواته على من ٱختاره للنذارة وتبليغ الرسالة فَصَدَعَ بأمرِه، وأدّى حَقَّ نعمته في خلقه محمَّدٍ وآله [و] أصحابه أجمعين. أمّا بعد:

فإنّ الإنسان وإن كان ذا لَدَدٍ وخِصَام وجدال فيما يهوى، وجذاب بتيقن الحوادث بوجه الثبت، يتسبَّب إلى الازدياد بحبّ التوسع؛ فيرى جلائل الأقدار كأنها تُوارِبُهُ أو تلاعبه، ويحسب غوائل الأخطار كأنّها تُسَاوقه أو تُسَابقه، ترشّح بما رشح له عناصره عند الاختبار، وتجليه لما هُيِّىءَ له مكاسره لدى الاعتبار، فهم فيما يتردّدون فيه طلعة خباءة، وعن صفايا غنائمهم غفلة نومه، لا يردّون مستنكراً، ولا يجدون عند الزلّة مستمسكاً، تجدهم على تفاوت[2] من أجسامهم، وأقدارهم، ومناشئهم، ومدارجهم، وأسماحهم، وإيابهم، ومأخذهم في استقراء مآربهم، في أدائهم، ولغاتهم، وصورهم، وهيآتهم، واقتراحاتهم،

---

(١) سورة التكوير، الآيات: ١٥ ـ ١٨.

(٢) في المطبوع: تفاوة.

وشهواتهم، وأقواتهم، ومطاعمهم، وحرفهم، ومكاسبهم، وتباين ألسنتهم، وألوانهم، وعلى تنافس بينهم شديد، وتحاسد في خلال أحوالهم عجيب، وتضاغن يلوح من مستكنّ سرائرهم، وتباغض يبوح به تداني جوارهم، قد جُبلوا على ما إليه سيقوا، وخُلقوا لِما عليه أُديروا، متوافقين في الانجذاب إلى مدىً من حبّ الوطن والسكن، والصبر على مراري الزمن، والاستظهار في تخليد الذكر باتّخاذ المصانع المؤبدة، والمباني المُشَيَّدَة، كالخَوَرنَقِ والحَضَر والأبلق[1] الفرد وغمدان والمُشَقَّر والهرمين ومَنْف وهو مسكن فرعون وتدمر، والشعراء ذكروها، في ذلك قوله[2]:

إشـرَبْ هَنِيئـاً عَلَيْـكَ التّـاجُ مُـرْتَفِعَـاً ... فـي رأسِ غَمْـدانَ داراً مِنْـكَ مِحْـلالا
تِلْـكَ ٱلمَكـارِمُ لا قَعْبَـانِ مِـن لَبَـنٍ ... شِيْبَـا بِمَـاءٍ فَعَـادَا بَعْـدُ أَبْـوَالا

وقول الآخر:[3]

مـاذا أُؤَمِّـلُ بَعْـدَ آلِ مُحَـرِّقٍ ... تَـرَكُـوا مَنَـازِلَهُـمْ وبَعْـدَ إيـادِ
أهـلِ الخَـوَرْنَـقِ والسَّـديـرِ وَبَـارِقٍ ... وَٱلقَصْـرِ ذِي الشُّـرُفـاتِ مِـنْ سِنْـدادِ
أرضٌ تَخَيَّـرَهـا الطَّيِـبُ مَقِيلُهـا ... كَعْـبُ بـنُ مـامَـةَ وٱبـنُ أُمِّ دُوادِ

وقول الآخر:[4]

وأَخُـو ٱلحَضْـرِ إذْ بَنَـاهُ وإذْ دِجْـ ... ـلَـةُ تُجْبَـىٰ إلَيْـهِ وٱلخَـابُـورُ
شَـادَهُ مَـرْمَـراً وخَلَّلَـهُ كِلْـ ... ـسـاً فَلِلطَّيْـرِ فـي ذُراهُ وُكُـورُ

وقول النابغة:[5]

وخَيِّـسِ ٱلجِـنَّ، إنِّـي قَـدْ أَذِنْـتُ لَهُـمْ ... يَبْنُـونَ تَـدْمُـرَ بِـٱلصُّفَّـاحِ وٱلعَمَـدِ[6]

وكإيوان كسرى أنوشروان؛ وهي من الأبنية القديمة، والتهالك في مناصب القرون الخالية، والأرزاء بمناصبهم، وطلب التقدم عليهم فيما حُمِدوا فيه؛ وإن كان كلٌّ منهم يذمّ زمانه ويحمد زمان غيره حتى رُوي قول لبيد:[7]

---

(١) في المطبوع: الأبق، والأبلق الفرد قصر للسموأل بن عادياء اليهودي. لسان العرب/ بلق.
(٢) هو أمية بن أبي الصلت الشاعر الجاهلي المعروف. انظر الأبيات في الحماسة البصرية ١/ ١٧٧.
(٣) الأبيات للأسود بن يعفر كما في ديوانه ص ٢٦.
(٤) البيتان لعدي بن زيد العبادي كما في ديوانه/ ٨٨، ورواية الثاني في المطبوع وجلله، والتصحيح عن الديوان، وانظر حاشيته.
(٥) هو النابغة الذبياني ينظر ديوانه ص ٢١.
(٦) في المطبوع: بالصفائح، تحريف لا يستقيم معه عروض البيت.
(٧) ديوانه ص ٣٤.

ذَهَبَ الّـذِيـنَ يُعَـاشُ فـي أكْنَـافِهِـمْ   وبَقِيـتُ فـي خَلَـفٍ كَجِلْـدِ الأجـربِ

ومن قول عائشة رضي الله عنها فيه ما روي:

وسـار مَتَـى قصـروا عنـه ذَمّـوا   وإنْ مـا هُـمُ آستـأنَسُـوا فيـهِ مَلُّـوا

لا جَرَمَ إنهم ابترموا مما اختبر لهم فجمعوا[1] أيديهم عليه؛ مؤثرين لقبوله؛ ومقتنعين بحصوله؛ من أطّلع على ما أُبدَّ لَهُ في القسم فاغتنمه، وأوذن بما أُعِدَّ لَهُ عند السوم فاختصبه، فترى ذكر الزمان في مكان في جميع ما يندرجون فيه شقيق أرواحهم؛ ومشرع الروح لأفئدتهم، ومستمدّ لَذَّاتهم؛ ومشتكىٰ أحزانهم، به يكشف البلوى، ويستنزل المطر، فليسوا بِشَيء من حظوظهم أقنع منهم باجتماع الوطن والمطر، واستطلاع المستنجد من العين والأثر، لذلك قال شاعرهم:

وكُنْـتُ فيـهِ كَمَمْطُـورٍ بِبَلْـدَتِـهِ   فَسـرَّ أنْ جَمَـعَ الأوطـانَ وٱلمَطَـرا

وقد قيل: ليس الناس بشيء من أقسامهم أقنع منهم بأوطانهم، فلولا ما مَنَّ الله تعالى به على طوائف الأُمم وعصائب الزمر من الألطاف في تحبيب ما حبَّ، وتأنيس مَن أَنِسَ والمنع من الاستيثار والإقتدار، والإجتهاد بنهمة الاقتسار؛ لَمَا رَضيتِ المُهَج الكريمة بمجاورة البلاد والديار، ولا سكنت القلاع، في قلل الجبال والتلاع، ولا عَمَرت المهارى والأرانب في مساكن الأسود والضباع، ولانْبَتَّ حبلُ الإلفة، وانقطع نظام المِلّةِ، فسبحان من جعل الاختلاف سبباً للائتلاف، وبدّل التنافر فصيَّره داعياً إلى التوافق، ولِلّهِ الحمد على ما أمضىٰ وقدّر، ونسأله التوفيق فيما أتى وغبر، وقل عن اشتمام الأبنية الرفعة إلى غاية ما في نفوسهم، بل يدعون منه شيئاً حين يلزمهم اسم التمام والفراغ، ليس للكلام نهاية، ولا لاختلافهم غاية، لأنّ عددهم كثير، والنظر فيهم قديم؛ وطبائعهم مختلفة، وقواهم متفاوتة؛ وألسنتهم مرسلة؛ وخواطرهم مطلقة، ولو كان الفاسد يشعر فساده والمنقوص يجد مَسَّ نقصه لكان الفاسد صالحاً والناقص وافراً.

وروي عن النبي ﷺ: **«مَنْ باعَ داراً أو عَقَاراً فلَم يجعل ثمنها في مثلها كان كَرَمَادٍ أشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ في يَوْمٍ عَاصِفٍ»**.

وذكر أحمد بن أبي طاهر أنه سمع آذرباد الموبذ يقول إنه وَجَد في حِكَمِ الفُرْس: تَرْبِيَةُ[2] الصَّبِيِّ تَغرِسُ في القلب حرمة كما تَغرسُ الولادة في الكبد رقّة. ومِما قيل في الوطن:

(١) في المطبوع: فيجمعوا.
(٢) في المطبوع: تربة.

عَجِبْتُ لِعَطّارٍ أَتَانا يَسُومُنا   بِدَسْكَرَةِ القَيُّوم دُهْنَ البَنَفْسَجِ
فَوَيْحَكَ يا عَطّارُ هَلاَّ أَتَيْتَنَا   بِضِغْثِ جزارٍ أو بِخُوصَةِ عَرْفَجِ

وقالوا: خلق الله آدم من تراب؛ فَهِمَّتُهُ في التراب، وخلق حوّاء من ضلع من أضلاع آدم؛ فَهِمَّتُها في الرجال. وممّا يُعرف به موقع الوطن والزمن من ذوي البصائر السليمة والعقائد الصحيحة قول جرير:[1]

سَقَى اللَّهُ البَشَامَ وكُلَّ أَرْضٍ   مِنَ الغَوْرَيْنِ أَنْبَتَتِ ٱلبَشَامَا
فَيَا نُعْمَى الزَّمانِ بِهِ عَلَيْنَا   وَيَا نُعْمَى المُقَامِ بِهِ المُقَامَا

فجمعهما في قول، وأنشدني أبو أحمد العسكري قال: أَنْشَدَ الصُّوليُّ:

سَقَى اللَّهُ دارَ الغاضِرِيَّةِ مَنْزِلاً   تَرِفُّ عَلَيْهِ الرَّوْضُ خُضْرَ الرَّفَارِفِ
وأَيَامَنا والغَاضِرِيُّونَ حُضَّرٌ   وعَيْشِي بِهِم يَهْتَزُّ لَدْنَ ٱلمَعَاطِفِ[2]

ورأينا الله تعالى قَسَّمَ مصالح خلقه ولذائذهم بين المقام والظعن؛ فجعل أكثر مجاري الأرزاق مع الحركة والاضطراب[3]، واغتنام الأرباب بعد التبدّي[4] في البلاد، لذلك قال الشاعر[5]:

فألقَتْ عَصَاها واستَقَرَّ بِها النَّوى   كَمَا قَرَّ عَيْناً بالإيابِ المسافِرُ

وقال الآخر:

سُرِرْتُ بِجَعْفَرٍ وٱلقُرْبِ مِنْهُ   كَما سُرَّ ٱلمُسَافِرُ بالإِيابِ

وقد شهد أصحاب المعاني لابن الرومي فقالوا: لم يَبِنْ أحد العلة في الحنين إلى الوطن إبانته حين قال:

وحَبَّبَ أوطانَ الرِّجَالِ إِلَيْهِمُ   مَآرِبُ قَضَاها الشَّبابُ هُنالِكَ

---

(١) شرح ديوان جرير ١/ ٢٠٣، وقد روى البيت الأول فقط ضمن قصيدة ليس فيها البيت الثاني.
(٢) في المطبوع: خضر.
(٣) هكذا هو في المطبوع، ولعله الاغتراب.
(٤) في المطبوع: التقادي، والتبدّي نظام معروف عند العرب، يبدأ من منتصف شهرآب وينتهي في منتصف نيسان. ينظر: الأنواء في مواسم العرب ص ١٠٠.
(٥) تدافع هذا البيت معفر بن حمار البارقي، وأنشده له الآمدي مع بيت آخر في المؤتلف والمختلف ص ١٢٨، ونسبه ابن بري لعبد ربّه السلمي، وروي لسليم ابن ثمامة الحنفي ومعه بيت آخر. ينظر لسان العرب/ عصا. ورواية المطبوع: واستقرت.

وقد قال الأسَديّ أيضاً[1]:

أَحَبُّ بلادِ اللَّهِ ما بينَ مَنْعِجٍ إلَيَّ ورَضْوىٰ أنْ تَصوبَ سَحَابُها
بِلادٌ بِها نِيطَتْ عَلَيَّ تَمائِمي وأوّل أَرْضٍ مَسَّ جِلْدي تُرابُها

وأخذه ابن مَيّادة فقال[2]:

بِلَادٌ بِها نِيطتْ عَلَيَّ تَمَائِمي وقُطِّعْنَ عَنِّي حينَ أَدْرَكَني عَقْلي

وقال بعض أصحاب المعاني: العلة التي من أجلها تساوت الطباع المختلفة في الحنين إلى الأُلآف وحبّ ما مضى من الزمان هي أنَّ الذوات فينا ومنّا لمّا كانت لا تحصل إلاّ في مكان وزمان؛ صارت لتضمُّنِها لهما، ولكونهما ناشئة حياتها وفاتحة شبيبتها[3] وطالعة نمائها تشوقهما وتَسْتَنْشِيءُ على البُعد أرواحهما حتى كأنهما منها.

وفَسَّر بعضهم قول ابن الرومي فقال: يريد بالمآرب المقضيَّة للشباب ما أقامه الصِّبا من روادف الهوى وقد ظفر بالمرتاد؛ أو كان على استقبالٍ من العمر، وقوّة من الركن، واستعلامٍ من الأمل واستخبار في الأجل، وتماسك من الجوارح، وتَسَاعُدٍ من الأعضاء الحوامل، ورخاءٍ من البال، وأمْنٍ من عوارض الآفات. والذي شرحه هذا المفسر الزائد فيه على مذهبهم كالواصل إليه لاجتماعهما في غواشي العشق، والصبر تحت بيان الحبّ؛ رجاء الفوز بالمراد، وأظن جميعه في قول امرىء القيس[4]:

وهَلْ يَنْعَمَنْ إلاّ خَلِيٌّ مُخَلَّدٌ قَلِيلُ الهُمُومِ، ما يبيتُ بأوجالِ

وهذا في قضايا الأوقات؛ كما اقتصّ الجاحظ من تعصبه لِمِصْرِهِ فقال: من فضيلة البصرة ما خُصّت به من أرض الصدقة أنّه، لا يسوغ تغييرها، ولا يتهيّأ تبديلها، ومن المَدِّ والجَزْرِ المسخَّر خصوصاً لأهلها، المجعول نوءاً[5] بين قاطنها ومسافرها، ومُصْعِدِها ومنحَدِرها على مقابلاتٍ من الأوقات الساعات، وعلى منازل القمر في زيادة النور وامتلائه، ونقصان ضوئه واستسراره، فلا يُعْرَف مِصْرٌ جاهلي ولا إسلاميّ أفضل من البصرة، ولا أرض جرى عليها الآثار أشرف من أرض الصدقة، ولا شجرة أفضل من النخلة، ولا بلد

(1) هو رقاع بن قيس الأسدي كما في لسان العرب/ تمم، وقد أنشد البيت الثاني من البيتين، وانظر مادة/ نوط أيضاً.
(2) شعر ابن ميادة ص ٨٩.
(3) في المطبوع: شبيهتها.
(4) ديوانه ص ٢٧.
(5) في المطبوع: نوماً.

أقرب بَرّاً من البصرة، فهي واسطة أبحر، وخضراء من بداوة وريعاء من فلاة، وقانص وحش من صائد سمك، وملاحاً من جمال من البصرة، فهي واسطة الأرض، وفرضة البحر، ومضيض الأقطار، وقلب الدنيا، فساحله بعض المتقضّية للغيث وبلاده، بأن قال: الكَرْمةُ أفضل الأشجار، والعنب سيِّد الثمار، ناعمة الورق، كأنها سَرَقَة، ناضرة الخضرة، بديعة الشكل، سَلِسَة الأفنان، رقيقة الجلد عند المذاق، يسرح في البدن نورها، وفي القلب سرورها؛ مع ذكاء العرق وصحة الجوهر، إن عُرِشَت على عَمَد الخشب وطبقات القصب تضاعف غِلتها وتكامل حسنها، ودخلها ورافة جهارتها وأنق ينعها، وإن بُسِطت أغصانها على الدار التي هي فيها أظلَّت، وإن مُدَّت على الجدران وقُيِّدت إلى حدود الجيران سامحت قائدها وقلّ اعتياضها، تغني عن الشارات والفساطيط، وتكف صيهد[1] الحرِّ في حمّارة القيظ، واحتدام الشمس أوانَ الحاجة إلى الرَّوْح، وتردّ عواصف الرياح وقواصفها، بكسافة[2] وَرَقِها وصفاقة ظلّها. في كلام يتّصل بين الفريقين ولا ينقضي.

وليس من همّتي ولا سدمي، إنّما أردتُ التنبيه على أنّ كلّ ذي إرْبٍ همَّته في نظرية بلدته طبعاً لا تكلّفاً، وكلّ ذي سبب نَهْمَتُه في تزكية مسكنه عَمْداً لا سهواً، ثم حسن الشيء وقبحه وفضله ونقصه لما عليه في نفسه لا لِجَوًى راصدٍ؛ أو إلفٍ جاذب، والحديث شجون، والفخر بالشيء فنون، لكنّ الله تعالى لمّا ذكر الديار فخبّر عن موقعها من عباده حتّى سوّى بين قتل أنفسهم والخروج من ديارهم في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ الآية[3]، وفي موضع آخر: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾[4] جعل لهم في الأرض بيتاً نسبه إلى نفسه بإزاء البيت لمعمور لملائكته، وصيَّره حَرَماً وأمْناً ومثابة للناس ومطافاً، يلوذ به الخائف ولو كان من الوحش كما يأوي إليه الهارب من الإنس، عظيماً شأنه، منيعاً جاره، لا يغشى أهله غضاضة الامتهان، ولا سآمة الابتذال، فهم على مرّ الأيام وَكَلَةٌ، وحُمْسٌ في أديانهم متمتعة، وقد كان من الفيل والحبشة ما أُرِّخَ به الزمن، كما أُرِّخت الحوداث والنِّحَلُ، وكما قيِّدت أيّام النبوّات بما يكشفها من أنباء الفترات وأحوال الأنبياء والمعجزات.

وذكر الله تعالى النعمة على قريش فأنبأ عن رحلة الشتاء والصيف بعد أن دعا إبراهيم عليه السلام سكان مكة فقال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾[5]، وقد

---

(١) في المطبوع: صيد.
(٢) بكسافة، هكذا رسمه في المطبوع، ولعله بكثافة.
(٣) سورة النساء، الآية: ٦٦.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٤٦.
(٥) سورة البقرة، الآية: ١٢٦.

كان قال: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ﴾،[١] فاستجاب الله دعوته، فهم يصيفون الطائفَ، ويشتون جدّة، وأنواع الخير منهم بمرصد وفعل مثل ذلك في الزمان، فَعَظَّمَ ليلة القدر وجعلها خيراً من ألف شهر، بما ضمّنها من تنزّل الملائكة بقضاياه إلى رأس الحول، ولأنها ليلة السلامة والأمن من كلّ داء وبلاء إلى مطلع الفجر، فالحمد لله الذي بنوره اهتدينا؛ وبفضله غنينا، حين أدّب الأخلاف بما درج عليه الأسلاف، وقرن العبادة باعتبار ما أمضىٰ عليه القرون الماضية في الدهور الخالية، أنهم وإن مضوا سَلَفاً فُقِدَ السبيل عليهم، والناس بزمانهم أشبه منهم بآبائهم، وقد أكثرت، وظهر الغرض[٢] فيما أبدأتُ وأعَدْتُ، والترفيه عن المطلبة[٣] أعون في إملاء قطع الدوّ وإن[٤] من نكص عن المنهاج. كان في الفجاج، فإنّما هذا الكلام وصلة إلى كتاب في الأزمنة والأمكنة، وما يتعلق بهما من أسماء الليل والنهار، والبوارح والأمطار، والمزالف والمآلف، وما أخذ أخذهما مما تعداده يطول، وينطق به الحدود بعد هذا والفصول، فقد قدمت ذكرها وقد غبرت مدَّة من الزمان.

وهذا الكتاب منّي ببال، أتصفح ورقه بأيدي فكري، وأتصور مضمونه في مطارح فَهمي، فينيلني إذا صادفته جموحاً، ويوليني إذا صافحته ازوراراً وشسوعاً، كأنه يطلب لنفسه حظّاً زائداً على ما أوتيه، وسهماً عالياً لما أجيله فأعطيه، إلى أن تبوّأ من عُلُوّ الوكد والاهتمام في أعلى الرُّبى، ومن مرتقى التوفّر في الاعتناء في أسنى الذرى، فحينئذ اطلع الله على ضميري نور الأستاذ النفيس أبي علي إسماعيل بن أحمد ـ أدام الله رفعته وبرهان سلفه قرناً بعد قرن وكابراً عن كابر ـ من كمال النبل، وجماع الفضل، والجمال الظاهر، والكرم الغامر، والنهوض بأعباء الرئاسة، والاستظهار في أنحاء السياسة، وتدبير المسالك والمهالك؛ والمدائن والممالك، والمَيل إلى ذوي الأخطار؛ وأعلام الآداب، فهم يكرعون من جَدَاهم في أعذب المشارع وأكرم الموارد، هذا إلى ما حباه الله في خاصّ وعام قصده من محبيات القلوب، ومزيات القبول، فإنّ العزيز الشريف والنبت الرفيع إذا أشر بلدونة[٥] المعطف وسهولة الملتقى والمختبر ترجما من الكمال؛ ووفّرا أُبّهة الجلال.

وهذا الثناء منّي ليس على طريقة المادحين فأتجوز، ولا قصدي فيه قصد المجتدين فأتسمّح، بل أملاه طول الصحبة بلسان الخبرة، فعليه فيه حكم الحقّ والمعلوم، مع تواطي

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٣٧.
(٢) الغرض، هكذا هو في المطبوع، ولعله الفرض.
(٣) في المطبوع: المطبّة.
(٤) في المطبوع: الدودان.
(٥) في المطبوع: بالدونة.

الأخبار عنه، وشهادة الآثار له، وتوارد الوسائل، فأقبل بتغاير أبوابه؛ وانثال عليَّ، وتسابَقَ أجزاؤه وفصوله تنساق إليَّ، كأنّه كان من رباط الشدُّ في عقال فأُنشِط، ومن حفاظ المنع في وثاق فأهمل، وبيد الله تعالى أمر تسهيل المراد، وتعجيل الفراغ، بحوله ومَنّه.

واعلم أنّ رؤساء الأمم أربعة بالاتفاق، العرب، وفارس، والهند، والروم، وهم على طبقاتهم في الذكاء والكيس، والدهاء والكيد، والجمال والعناد، وتملك الممالك والبلاد، والسياسة والإيالة، واستنباط العلوم، وأثارة الحكم في جوامع الأمور، معلومٌ شأنهم، معروف أمرهم، على ما في طبقاتهم من الغباوة والفظاظة، وسوء الفهم والدراية والفسولة والفدامة[١]، والنوك والجهالة، مراعون لما رُهنوا به وقُيِّضوا له، وإذا صاروا إلى وجوه المعاش؛ وفنون الممارسات، والإغراب في أسرار الصناعات، والإبداع في أنواع التركيبات، انفتح لهم من أبواب المعرفة؛ وحُسن التوفيق في الإصابة ما لم ينفتح لهم في سواه، وذلك ما لا يدرك غوره من غرائب حكمة الله تعالى فيما دبَّر وأمضىٰ، وإن كان للعرب خاصة طبع عجيب في الأخبار والاستخبار، والمباحثة والاستكشاف، وسرعة إدراك ما يسفر عن الأواخر عند النظر في الأوائل، فحصل لهم بذلك أخلاق عادت مفاخر، وأفعال صارت مناقب، مع ثبات فيما يُعَزّ، وجَلَد وبيان؛ ولدد وافتنان، في الخطب والشعر والرجز، على اختلاف أنواعها، وتصاريف أساليبها، وعلى كثرة الأمثال الحكيمة، وطرائف الآداب الكريمة.

ثمَّ لهم الفراسة الصحيحة، والكهانة العجيبة، وصدق الفال الحسن، والحسّ المصيب، مع العلم بأثر القدم، في الصخر الأَصَمّ والقاع العفراء، وقيافة الأثر مع قيافة البشر ليست لغير العرب، لأنهم يرون المتفاوتين في الطول والقِصَر، والمختلفين في الألوان والنغم، فيعلمون أنّ هذا الأسود ابن هذا الأبيض، وهذا القصير ابن أخي هذا الطويل، مع الرعاية لأنسابهم وأيامهم، ومحاسن أسلافهم، ومساوىء أكفائهم، للتعاير بالقبيح، والتفاخر بالجميل، وليجعلوه مبعثة على اصطناع الخير، ومزجرة عن ادّخار الشرّ[٢].

ولهم تبيُّن أحوال النجوم، سعدها ونَحسها، والأنواء ومقتضياتها، والأمطار ومواقيتها، وبوارح الرياح في إبّانها وحينها، والزجر المغني عن التنجيم، وحُسن الاهتداء

---

(١) في المطبوع: في الفسوة والغذامة.

(٢) بعض هذا الكلام في الأنواء والأزمنة ومعرفة أعيان الكواكب في النجوم ص ٣ لعبد الله بن عاصم الثقفي، المتوفى سنة ٤٠٣ هـ عاصر المرزوقي. لكنه من أهل المغرب، ولا أدري أيهما أخذ الكلام عن الآخر.

في المسالك المهلكة، والمرامي غير المسلوكة، وهم على كلّ حال من عيشهم يخافون مأثور الحديث، ويتجرّعون من غوارب البحار، ويحبون المادحين وتقريظهم، ويؤثرون على أنفسهم الخيل، وعلى عيالهم الضيفان، أصحاب حياء وأنفة، وجود وفروسية، وفخر وهمّة، لا تُطَلّ دماؤهم، ولا يعجز طوائلهم، ولا ينسيهم طول الأيام دفائن أحقادهم، يراعون الذِّمم، ويوفون بالمواثيق، ويوجبون الجوار باعلاق الدلو بالدلو، وشدّ الطُّنُب بالطُّنُب حتى قال زهير[١]:

وَجَـارٍ سَـارَ مُعْتَمِـداً عَلَيْنَـا ... أَجَابَتْـه ٱلمَخَـافَـةُ والـرَّجَـاءُ
فَجَـاورَ مُكْـرَمـاً حتّـى إذا مـا ... دعـاه الصَّيْـفُ وانصَـرَم الشِّتَـاءُ
ضَمَنّـا مـالَـه فغَـدا عَلَيْنَـا ... جَمِيعـاً نَقْصُـهُ ولَـهُ النَّمَـاءُ

ثمَّ لم يرضوا لأنفسهم بالاسم الواحد، والكنية الواحدة، والنعت الشريف، والذكر الرفيع، والمنصب المفخَّم، والفخر المقدّم، حتى تنقّلوا في أسامي وكُنى، كما اكتنىٰ حمزة بن عبد المطّلب بأبي يَعْلَى وأبي عمارة، وعبد العزّىٰ بن عبد المطّلب بأبي لهب وأبي عُتبَة، وصخر بن حرب بأبي سفيان وأبي حنظلة، وحسان بن ثابت بأبي الوليد وأبي الحسام، وعثمان بن عفّان بأبي عبد الله وأبي عمرو وأبي ليلىٰ، وعبد الله بن الزبير بأبي بكر وأبي خُبَيْب وأبي عبد الرحمن، والذين أسماؤهم كُنَىٰ كثير في العرب، يُسَمِّي بعضهم بعضاً بِسِماتٍ تفيد التفخيم والتعظيم لقولهم: ملاعب الأسِنَّة، وسمّ الفرسان، وزيد الخيل، ومحكم الأقران، وأشباه ذلك، فهذه الخصال تختصّ بهم إلى كثير ممّا إن شَغَلنا الكلام به خرجنا عن الغرض المنصوب، ولِلّهِ تعالى في خَلْقه أن يفعل ما شاء، ويصطفي بفضله من شاء، وهو الحكيم العليم.

ولولا اهتزازي لتقديم ما تعتلق به همة برٍّ أشاد النفيس، وسرعة إجابتي إذا أهابَ لما رهبته، وليحصل لي به الفأل الحسن؛ والذكر المؤبد، والإلتذاذ بالدخول في جملة أهل الفضل، والاستنان بسُنَّتِهم، في إذاعة ما تكسيهم الأيّام، ويفيدهم الاجتهاد لبقيت[٢] في حجر الفنّ بما أُورده، لما أرى في أهل الزمان من اطّراح العلم، واحتقار أهل الفضل، ولا أزيد على هذا مخافة الخروج إلى ما يُعَدّ سَرَفاً، بلى أنشد قول الأول:

إذا مَجْلِسُ الأَنْصَـارِ خَـفَّ مـن أَهْلِـهِ ... وحَلَّـت مَغَـانِيـهِ غِفَـارٌ وأَسْلَـمُ
فَمَـا النـاسُ بـالنّـاسِ الـذيـنَ عَهِـدْتُهُـم ... وَلا الـدَّهْـرُ بـالـدَّهْـرِ الـذي كُنْـتُ أَعْلَـمُ

---

(١) ديوانه ص ٧٧، وفيه في الأول: أجاءته بدل أجابته. وفي الثالث: سليماً علينا بدل علينا جميعاً.
(٢) في المطبوع: ليفيت.

واعلم أنّ قرب الشيء في الوهم ليس بموجب حصوله، ولا بُعْدُهُ فيه يقتضي بُطُولَه، وهذا الكتاب ليس اختياري لعلمه لغلبته، ولا اشتغالي به عن شُبْهَةٍ، لكنّي حَصَّنته تحصين الحزم، وصنته صون العِرض المكرَم، فهو مذخورة المتلهف، وعقد المعتال المحتكم، ثمره عند الينع لا يُخلِف، وماؤه على الميح لا يكدر، وقد قيل: لِحَاضِنِكَ عليك حقُّ اللَّبَن، ولتُربَتِك حبُّ الوطن، ولِنَسْلِكَ حرمةُ السكن، ولِطَرَبِكَ خَلْعُ الرَّسَن، كما أنّ لما تخلِّدُ به ذكرك من نثر أو نظم، عليك شرف التحلية، وحسنُ النعت والتسمية، وجمع الفوائد الزكيّة، وهجر الهوى والعصبيّة، وبيَد الله تبليغ المرادِ، وتوطيد المرتاد.

واعلم أنّ مدار الأدب على الطلب، وعمدته البحث، ومصرفه الرغبة والحثّ، وأَزِمَّةُ الجميع بيد القريحة، فإذا سلمت القريحة من عوارض الآفات، وتملّسَت من شوائب الأقذار والعاهات، وترقّت في مدارجها من دلائل الرسوم إلى حقائق الحدود، أقبلت تصنع في نيل المطلوب صنعة من طبَّ لمن حبَّ.

وإني وإن أنشأت هذا الكتاب، فما في نفسي ادّعاء الفضل على الأسلاف، وكيف أستجيز ذلك ومن ذاكرتهم[1] ننفِق، وبِشَهاداتهم نتوثق، وبين المسلّم والمنازِع ما بينهما من برزخ التضادّ، ولكن لمن ضمَّ النشر، وسَوّى في البناء النضد، وتأنَّقَ في الإثارة، ثمّ بلغ وتناهى إلى الغاية، فسدد حقَّه من العمل، نسأل الله حُسن التوفيق فيما نأتي ونذر، وعليه المعوّل في إيزاعِنا شكر نعمته، وأعانتنا على ما تعرب من رحمته، ونِعْمَ المولىٰ ونِعْمَ النصير.

هذا كتاب الأزمنة والأمكنة، وبيان ما يختلف من أحوالها، ويتّفق من أسمائها وصفاتها، وأطرافها وأقطاعها، ومتعلقات الكواكب منها في صعودها وهبوطها، وطلوعها وغروبها، وجميع ما يأخذ أخذها أو يُعَدُّ معها، أو لا ينفكّ في الوقوع والاستمرار منها، أو متسبب بضرب من ضروب التشابه، أو قسم من أقسام التشارك، إلى الدخول في أثنائها، موشحة بما يصححها من أشعارهم، وأمثالهم، وأسجاعهم، ومقامات وقوفهم، ومنافراتهم، جادّين وهازلين، ومن كلام روّادهم وكتّابهم، في ظعنهم وإقامتهم، وتتبعهم مساقط الغيث، وبوارح الريح، وعندما يقيمون من الجدب والخِصب، والسلم والحرب، وقِرى الضيف. في الشتاء والصيف، وأعيادهم وحَجِّهم ونسكهم، ووجوه معايشهم ومكاسبهم وآدابهم.

---

(١) في المطبوع: من ذكرتهم.

وقد صَدَّرْتُهُ بجميع آيٍ من كتاب الله تعالى بعض حقائقه، لتردد المعاني إذا شافهت الالتباس؛ بين الوجوب والجواز والامتناع، فيتّسع أمد القول، وتمتد نفسه بحسب الحاجة، وعلى قدر العناية، ومن أنكر في طلب الحقّ واجباً، أو ردَّ جائزاً، أو جحد ممتنعاً، فقد جانب حسن التوفيق، وعلى الله في الأحوال كلها المعوّل والتكلان.

وبعد الفراغ من ذلك أتبعته بالكلام في حقيقة الزمان والمكان، والردّ على من تكلّم بغير الحق فَهْماً، بعد تتبعٍ لما أصَّلُوه شديد، وبحث عنه بليغ، وردّ للسابق من دعاواهم على اللاحق علىٰ الوارد، إذ كانا عندي كالأصل في إلحاد أكثر الملحدين من الأوائل والمتأخرين، وإذ كنت قد شيَّدت من قبل فصول ما ذكرت، ووصوله بلمع من الكلام في المحكم والمتشابه، والاستدلال بالشاهد على الغائب، وبيان أسماء الله تعالى وصفاته، وما يجوز إطلاقه عليه، أو يمتنع، لأنّ أطراف هذه الأبواب متعلقة بموارد الآي التي تكلّفت الكلام فيها ومصادرها، ومستقية من العيون التي تحوم أطيارها حوله في جوانبها، ولأنّ الاشتغال به هو الغرض المرميّ في تأليف جلّ هذا الكتاب وترتيبه وتنسيقه، هذا إلى غير ذلك مما خلا منه مؤلفات اللغويين والنحويين والباحثين عن طرائق العرب، وما يراعونه من معتقداتهم في الأنواء وغيرها، وإيمان من آمن منهم بالكواكب حتى عبدوها، لما ألفوه من استمرار العادات بهم، واطّرادها على حدٍّ سالمٍ من التبدّل والتحوّل.

ثم شرعتُ في الكتاب وتبويب معاطفه، وتنويع أساليبه ومدارجه، وأستعين الله تعالى على بلوغ ما يزلف عنده، ويستحق به مزيد الإحسان، وإصحاب التوفيق الكامل منه، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

ذكر أبواب الأزمنة والأمكنة وفصولها

هي ثلاثة وستون باباً ونيّف وتسعون فصلاً.

أ - في ذكر الآي المنهية من القرآن على نِعَم الله تعالى على خَلْقه في آناء الليل والنهار، وبيان النَّسِيء، وفي ذكر أخبار مرويّة، وفي ذكر الأنواء، وذكر معتقدات العرب فيها، أو فيا يجري مجراها، وذكر فصل في جواب مسائل للمشهد من الكتاب والسنّة، وفي بيان المحكم والمتشابه وغيرهما، وبيان أسماء الله تعالى وصفاته، وهو يحوي تسعة وعشرين فصلاً.

ب - في ذكر أسماء الزمان والمكان، ومتى تُسمّىٰ ظروفاً، ومعنىٰ قول النحويين: الزمان ظرف الأفعال، والردّ على من قال فيهما بغير الحقّ من الأوائل والأواخر، ويحتوي على فصول أربعة.

ج - هو يشتمل على بيان الليل والنهار، وعلى فصول من الإعراب تتعلق بظروف الأزمنة والأمكنة، وفصوله ثلاثة.

د - ذكر ابتداء الزمان وأقسامه، والتنبيه على مبادىء السنة في جميع المذاهب، وما يشاكل من تقسيمها على البروج.

هـ - في قسمة الأزمنة ودورانها، واختلاف الأمم فيها.

و - في ذكر الأنواء واختلاف العرب فيها، ومنازل القمر، مقسمة الفصول على السنة، وأعداد كواكبها، وتصوير مأخذها ضارة ونافعة، وفصوله أربعة.

ز - في تحديد سِنِيّ العرب والفرس والروم، وأوقات فصول السنة.

ح - في تقدير أوقات التهجد التي ذكرها الله تعالى في كتابه، عن نبيّه والصحابة، وتبيين ما يتصل بها من ذكر حلول الشمس في البروج الإثني عشر.

ط ـ في ذكر البوارح والأمطار، مُقَسَّمة على الفصول والبروج، وفي ذكر المراقبة، وهو فصلان.

ي ـ في ذكر الأعياد والأشهر الحرم، والأيام المعلومات، والأيام المعدودات، والصلاة الوسطىٰ، وهو فصلان.

يا ـ في ذكر سَحَر وغُدوة وبُكرة وما أشبهها، والحِين والقرن والآن وأيان وأوان والحقبة، والكلام في إذ وإذا؛ وهما للزمان، وأبان وأفان، وهو فصلان.

يب ـ في لفظة أمسِ وغَد، والحول والسنة والعام، وما يتلو تلوه، ولفظة حيث وما يتصل به، والغايات، كقبلُ وبَعْدُ، وذكر أول وحينئذ وقَطّ، وإذْ وإذا المكانية، ومنذُ ومُذْ، ومن وعلى، وهو فصلان.

يج ـ فيما جاء مثنى من أسماء الزمان والليل والنهار، ومن أسماء الكواكب، وترتيب الأوقات وتنزيلها، وهو أربعة فصول.

يد ـ في أسماء الأيام على اختلاف اللغات، وقياسات اشتقاقها وتثنيتها وجمعها.

يه ـ في أسماء الشهور على اختلاف اللغات، وذكر اشتقاقاتها، وما يتصل بذلك من تثنيتها وجمعها، وهو فصلان.

يو ـ في أسماء الدهر وأقطاعه، وما يتصل بذلك، وهو فصلان.

يز ـ في أقطاع الدهر، وأطراف الليل والنهار، وطوائفهما، وما يتصل بذلك من ذكر الحوادث فيها، وهو ثلاثة فصول.

يح ـ في اشتقاق أسماء المنازل والبروج وصورها، وما يأخذ مأخذها، وهو فصلان.

يط ـ في أقطاع الليل وطوائفه، وما يتصل بذلك ويجري مجراها.

ك ـ في أقطاع النهار وطوائفه، وما يتصل بذلك ويجري مجراه.

كا ـ في أسماء السماء والكواكب والفلك والبروج، وهو ثلاثة فصول.

كب ـ في برد الأزمنة، ووصف الأيام والليالي به.

كج ـ في حرّ الأزمنة، ووصف الأيام والليالي به.

كد ـ في شدّة الأيام ورخائها وخصبها وجدبها، وما يتصل بذلك.

كه ـ في أسماء الشمس وصفاتها، وما يتعلق بها.

كو ـ في أسماء القمر وصفاته، وما يتّصل بها من أحواله، وهو فصلان.

كز ـ في ذكر أسماء الهلال من أول الشهر إلى آخره، وما ورد عنهم فيها من الأسجاع وغيرها.

كح ـ في أسماء الأوقات والأفعال الواقعة في الليل والنهار، وأسماء الأفعال المختصة بأوقات في الفصول والأزمان.

كط ـ في ذكر الرياح الأربع وتحديد مهابّها، وما عدل عنها، وهو فصلان.

ل ـ في أسماء المطر وصفاته وأجناسه، وهو فصلان.

لا ـ في السحاب وأسمائه وتحليه بالمطر، وهو فصلان.

لب ـ في الرعد والبرق والصواعق، وأسمائها وأحوالها، وهو فصلان.

لج ـ في قوس قزح، وفي الدائرة حول القمر، وفي البرد من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ الآية، وهو ثلاثة فصول.

لد ـ في ذكر المياه والنبات، مما يحسن وقوعه في هذا الباب، وهو ثلاثة فصول.

له ـ في ذكر المراتع المخصبة والمجدبة؛ والمحاضر والمبادي، وهو فصلان.

لو ـ في ذكر أحوال البادين والحاضرين، وبيان تنقّلهم، وتصرف الزمان بهم.

لز ـ في ذكر الرواد وحكاياتهم، وهو فصلان.

لح ـ في ذكر الورّاد، ومن جرى مجراهم من الوفود.

لط ـ في السير والنعاس والمَيْح والاستقاء وورود المياه.

م ـ في ذكر أسواق العرب.

ما ـ في ذكر مواقيت الضراب والنتاج.

مب ـ فيما روي من أسجاع العرب عند تجدد الأنواء والفصول وتفسيرها، وهو فصلان.

مج ـ في ذكر الصيام والقيافة والكهانة، وهو ثلاثة فصول.

مد ـ في ذكر ما لهم من الأوقات، حتى لا يبين للسامع، وما شرح منه.

مه ـ في الاهتداء بالنجوم، وجودة استدلال العرب بها، وإصابتهم في أَمِّهم.

مو ـ في صفة ظلام الليل واستحكامه وامتزاجه.

مز ـ في صفة طول الليل والنهار وقصرهما، وتشبيه النجوم فيهما.

مح ـ في ذكر السراب، ولوامع البروق، ومتخيلات المناظر، ووصف السحاب.

مط ـ في تذكر طيب الزمان، والتلهف عليه، والحنين إلى الألّاف والأوطان.

ن ـ في ذكر أنواع الظلّ، وأسمائه ونعوته.

نا ـ في ذكر التاريخ وابتدائه، والسبب الموجب له، وما كانت العرب عليه لدى الحاجة إليه في ضبط آماد الحوادث والمواليد، وهو فصلان.

نب ـ فيما هو متعالم عند العرب ومن داناهم، وأدركوه بالتفقّد وطول الدربة، ولم يدخل في أسجاعهم.

نج ـ في انقلاب طبائع الأزمنة وثباتها وامتزاجها، والاستكمال والامتحاق، وأزمان مقاطع النجوم في الفلك، ومعرفة ساعات الليل من رؤية الهلال، ومواقيت الزوال، على طريق الاجمال.

ند ـ في اشتداد الزمان بعوارض الجدب وامتداده بلواحق الخصب.

نه ـ ويشتمل من حَدِّها على ذكر ما في إعرابه نظر من حديث الزمان.

نو ـ في ذكر الكواكب اليمانية والشاميّة، وتمييز بعضها عن بعض، وذكر ما يجري مجراها من تفسير الألقاب.

نز ـ في ذكر الفجر والشفق والزوال، ومعرفة الاستدلال بالكواكب، وتبيين القبلة.

نح ـ في معرفة أيام العرب في الجاهلية، وما كانوا يحرّفونه ويتعايشون منه، وذكر ما انتقلوا إليه في الإسلام على اختلاف طبقاتهم.

نط ـ في ذكر أفعال الرياح، لواقحها وحوائلها، وما جاء من خواصّها في هبوبها وصنوفها.

س ـ في ذكر الأيام المحمودة للنوء والمطر وسائر الأفعال، وذكر ما يتطيّر منه ويستدفع الشرُّ به.

سا ـ في ذكر الاستدلال بالبرق والحمرة في الأفق وغيرهما على الغيث.

سب ـ في الكواكب الخُنَّس، وفي هلال شهر رمضان.

سج ـ في ذكر مشاهير الكواكب التي تسمّىٰ الثابتة، وهذه التسمية على الأغلب من أمرها إذا كانت حركة مسيرها خافية غير محسوسة.

الباب الأول

إعلم أنّ الله تعالى عظَّم شأن القرآن، وفصّل بيانه بالنظم العجيب؛ والتأليف الرصيف على سائر الكلام، وإن وافقه في مبانيه ومعانيه، ثم أودعه من صنوف الحكم، وفنون الآداب والنذر، وجوامع الأحكام والسِّيَر، وطرائف الأمثال والعِبَر، ما لا يقف على كنهه ذوو القرائح الصافية، ولا في بُعد فوائده أولو المعارف الوافية، وإن تلاحقت آلاتهم، وتوافقت أسباب التفهّم والأفهام فيهم، فترى المشتغل به المتأمل له؛ وقد صرف فكره إليه، وقَصَر ذكره عليه؛ قد يجد نفسه أحياناً فيه بصورة مَن لم يكن سَمِعَه، أو كان بعد السماع نسيه، استغراباً لمراسمه، واستجلاءً لمعالمه، وذلك أنّه تعالى لمّا أنزله ليفتتح بتنزيله التحدّي به إلى الأبد، ويختتم بترتيله وآدابه النذارة إلى انقضاء السند، على ألسن الرسل جعله من التنبيهات الجليّة والخفيّة، والدلالات الظاهرة والباطنة، ما قد استوى في إدراك الكثير منها العالم المقلّد والمتدبّر والمهمل، وإن كان في أثنائه أغلاق لا تنفتح إلاّ شيئاً بعد شيء، بأفهام ثاقبة، وفي أزمان متباينة، ليتّصل أمد الإعجاز به إلى الأجل المضروب لسقوط التكليف، ولتجدد في كل أوان بعوائده وفوائده؛ ما يهيج له بواعث الأفكار؛ ونتائج الاعتبار، فيتبيّن سناؤه الراسخ المتثبت، والناظر المتدبر؛ عن قصور الزائغ المتطرف، وتقصير الملول الطرف، ولذلك اختلفت الفرق، واستُحدثت المذاهب والطرق، فكلٌّ يطلب برهانه على صحة ما يراه منه؛ وإن ضلّ عن سواء السبيل مَن ضلّ، لسوء نظره، وفساد تأنّيه، وعدوله عن منهاج الصحابة والتابعين، وصالحي الأسلاف.

فلمّا كان القرآن الحكيم على ما وصفت، وكان الله تعالى فيما شرَّع من دينه، وحدّ عليه من عبادته، ودعا إليه مَن تبيَّنَ صنعه، وتنبَّه لما أقامه من أدلته، قال: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾﴾[1]، مُبيِّنا أنه اخترعها بما يشتمل عليه حقّاً لا باطلاً، وحتماً لا عَبثاً، فتوفر على طوائف خلقه منافعها، ومثبتها من يصدّق

---

(١) سورة العنكبوت الآية: ٤٤.

بالرسل، ويميز جوامع الكلم، على بُعْدِ غورها في قضايا التحصيل، وتراجع الافهام والأوهام من تقصّي مآخذها بأوائل التكليف.

ثمّ كرر ذكرها في مواضع كثيرة، في جملتها ما يقتضي الكشف نظومها وتصاريفها لما يكتنفها[1] من الغموض، وكان مبنى التأليف الذي هو مبنيّ على كتب لا يتمّ من دون الكلام عليها بترتيبه، بأن جعلتها مقدمة، ثم تجاوزت إلى ما سواها، والله المعين على تسهيل المراد منه بِمَنِّهِ.

فمن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ﴾ الآية[2]، وَصَفَ الله تعالى نفسه فيما بسط من كلامه هنا بفصول أربعة، كلّ فصل منها عند التأمل جملة مكتفية بنفسها عن غيرها، ودالة على كثير من صفاته التي أستبدّ بها.

فالفصل الأول قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾، والمعنى في قوله: بالحقّ أنّ الحكمة البالغة أوجبت ذلك، ففطرها ليدلّ على نفسه بها، ويظهر من آثاره العجيبة فيها ما تحقق إلاهيّته وتثبت قِدَمَهُ وربوبيّته، ويُظهِرُ أنّ ما سواه مدبَّر مخلوق، ومُسَخَّر مقهور، وأنه لحقّ تمّ له ما أحدثه وأنشأه، لا الباطل، ووجبت له العبادة من خليقته بقول فصل لا بهزل، فحجّته بيّنة، وآياته محكمة، لا تخفىٰ على الناظر، ولا تلتبس على المتأمِّل المباحث، إذ كانت الأبصار لا تدركه، والحواس لا تلحقه، فَعَرَّف عبادَه قدرته، وألزمهم بما غمرهم من منافعه ونِعَمه عبادته، فلا مانع لما منح، ولا واهب لما ارتجع أو حُرِم، تسليماً لأمره، ورضىً بحكمه.

والفصل الثاني قوله: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾[3]، قوله: ويوم نُصِبَ على الظرف، والعامل فيه ما يدل عليه قوله الحقّ، ولا يجوز أن يكون العامل قوله: يقول، لأنه قد أضيف اليوم إليه، والمضاف إليه لا يعمل في المضاف، وقوله: فيكون؛ معطوف على يقول، وما بعد القول وهو جملة يكون؛ حكاية في كلامهم، وكن في موضع المفعول ليقول، وقد أبان الله هذا المعنى في قوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾﴾[4]، لأنّ معنى الحكاية ظاهر فيه ومفهوم منه، وإذا كان الأمر على هذه فقوله: كُنْ حكاية، والمعنى فيه إيجاب خروج الشيء المراد من العدم إلى الوجود، وقوله: فيكون بيان حُسْن المطاوعة من المراد وتكُّونه، وليس ذلك على أنه مخاطبة المعدوم، ولكن الله تعالى أراد أن يبيّن على عادة الآمرين إذا أمروا كيف يقرب مراده إذا أراد أمراً، فأخرج اللفظ

(1) في المطبوع: يكشفها.
(2) سورة الأنعام، الآية: ٧٣.
(3) سورة الأنعام، الآية: ٧٣ .
(4) سورة النحل، الآية: ٤٠.

على وجه يفهم منه ذلك، إذ كان لا لفظ في تصوير الاستعجال وتقريب المراد أحضر من لفظة كُن فاعلمه.

وتلخيص الآية: وإذا كان يوم البعث والنشر والسَّوق إلى الحشر يوجب وقوع المكون بقولنا: كُن، فيقع بحسب الإرادة؛ لا تأخير فيه ولا تدافع، لأنّ حكمنا فيه المحقوق الذي لا يبدّل، ولأنّ المُلْكَ فيه للمَلِك الذي لا يُغَالَب ولا يُمَانَع، فقوله في الفصل الأول: بالحقّ، أي بما وجب في الحكمة وحَسُن فيها، وقوله في الفصل الثاني: قَوْلُهُ الحقُّ، في المحقوق الذي لا يُحَوَّلُ ولا يُغيَّر، إذا كان البدء لا يجوز عليه، وأوائل الأمور في علمه كأواخرها.

والفصل الثالث قوله: ﴿وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾[(1)]، يريد به أنه في ذلك الوقت متفرِّد بتدبير الفرق والأمم، وتنزيلهم منازلهم من الطاعة والمعصية؛ كما أبدأهم، فكما كان تعالى الأول لِقِدَمِه، ، يكون الآخِر لبقائه، لا مشارك له ولا مؤازر، وأبين منه قوله في موضع آخر: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾﴾[(2)]، وهذا حال المعاد، والمعنى، إذا أردنا سوقهم بعد الإماتة للنشر، لم يخفَ علينا شيء من أحوالهم، لأنّا نملكهم، فأمرنا حَتْم لا تخيير، وفورٌ لا تأخير، والإحصاء يجمعهم، والإدراك يعمّهم.

وقوله: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾[(3)]، لم يُشِر به إلى وقت محدود الطرفين، ولكن على عادة العرب في ذكر الزمان الممتد الطويل باليوم، فهو كما يقال: فعل كذا في يوم فلانٍ، وعلى عهد فلانٍ.

والفصل الرابع قوله: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾[(4)]، يريد أنه لا يخفىٰ عليه ما فيه لأنه العالم لنفسه، فلا يعزب عنه أمر، والغائب عنده كالحاضر، والبعيد كالقريب، وهو حكيم فيما يمضيه، عليم فيما يقضيه، لا يذهب عليه شيء من أحوال عباده، ومن مواعيده، فيحشرهم جميعاً، ويوفِّيهم مُسْتَحقَّهُم موفوراً.

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾، إلى ﴿يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾[(5)]، قوله: ﴿نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ أي نخرجه منه إخراجاً لا يبقىٰ معه شيء من ضوء النهار، ألا ترى قوله في موضع آخر: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾[(6)]، وفي هذا دلالة بيّنة على ما تذهب إليه العرب من أنّ الليل قبل النهار، لأنّ السّلخ والكشف بمعنى واحد، يبيّن ذلك أنه يقال: كَشَطْتُ الإهاب والجلد عن الشيء وسَلَخْتُه أي كشفته، والسلاخ: الإهابُ نفسه، وسَلَخت

---

(1) سورة الأنعام، الآية: ٧٣.
(2) سورة غافر، الآية: ١٦.
(3) سورة الأنعام، الآية: ٧٣. وسورة النمل، الآية: ٨٧.
(4) سورة الأنعام، الآية: ٧٣.
(5) سورة ياسين، الآيات: ٣٧ ـ ٤٠.
(6) سورة الأعراف، الآية: ١٧٥.

المرأة درعها، نَزَعَتْه، وسَلَخْتُ الشهر، صِرْتُ في آخر يوم منه، وسلاخ الحيّة، جلدها، وإذا كان ذلك؛ وكان الله تعالى قال: ﴿ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾، والمسلوخ منه يكون قبل المسلوخ، فيجب أن يكون الليل قبل النهار، كما أنّ المغطّىٰ قبل الغطاء.

قوله: ﴿فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ٣٧﴾، أي داخلون في الظلام، يقال: أظلم الليل إذا تغطّى بسواده، وأظلمنا، دخلنا في ظُلُمات، وهذا كما يقال: أجنبنا وأشملنا، أي دخلنا في الجنوب والشمال، وأنجدْنا وأتهَمْنا، أي أتيناهما، ثمّ قال: ﴿وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾، وهذا يحتمل وجوهاً من التأويل:

أن يكون المراد جريُها لاستقرار يحصل له إذا أراد الله وقوفها للأَجَل المضروب، لانقضاء وقت عادتها في الطلوع والأفول.

أن يكون المراد بالمستقَرّ، وقوفها عنده تعالى يوم القيامة، والشاهد لهذا قوله في آية أخرى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوۡمَئِذٍ ٱلۡمُسۡتَقَرُّ ١٢﴾[1]، فهو كقوله في غير موضع: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ﴾[2]، و ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٤﴾[3]، و ﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٨﴾[4].

أن يكون المعنى أنها لا تزال جارية أبداً ما دامت الدنيا، تظهر وتغيب بحساب مقدّر، كأنّها تطلب المستقر لذي علّمها صانعها، فلا قرار لها، ويشهد لهذا الوجه قراءة مَن قرأ: (وَالشَّمسُ تَجرِي لا مُسْتَقَرَّ لَهَا)[5]، وذلك ظاهر بيّنٌ، يوضحه قوله تعالى بعقبه: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ٣٨﴾، أي تقدير من لا يُغالَب في سلطانه، ولا يُجاذَبُ على حكمته.

قوله: ﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ﴾، الآية، برفع القمر على ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ﴾، وإن شئت على الابتداء، وينصب على وقدّرناه، والعُرْجُون، عود العِذْق الذي تسمّى الكباسة، تركبه الشماريخ، مثله الأثكول والعُثكولُ من العذق، فإذا جفّ وقَدُمَ دَقّ وصَغُر، وحينئذٍ يشبه الهلال في أول الشهر وآخره.

وقال أبو إسحاق الزجّاج: وزنه فُعْلون؛ لأنه من الانعراج، وقال غيره: هو فُعْلُول، لأنه كالفثلول، معنى الآية: وقدّرنا القمر في منازله الثمانية والعشرين؛ وفي مأخذه من ضوء الشمس، فكان في أول مطلعه دقيقاً ضئيلاً، فلا يزال نوره يزيد حتى تكامل عند انتصاف

---

(١) سورة القيامة، الآية: ١١.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٦٠.
(٣) سورة فاطر، الآية: ٤ وسورة الحديد، الآية: ٥.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٨.
(٥) قرأ بها النبي ﷺ، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. ينظر: مختصر شواذ القرآن ص ١٢٦.

الشهر بدراً، وامتلائه من المقابلة نوراً، ثم أخذ في النقصان بمخالفته المحاذاة؛ وتجاوزه لها، حتى عاد إلى مثل حاله الأولى من الدقّة والضؤولة، وذلك كلّه في منازله الثمانية والعشرين، لأنه ربّما استتر ليلة، وربما استتر ليلتين، فمشابهة الهلال للعرجون في المستهَلّ والمنسلخ صحيحة، فأمّا قوله: حتّى عادَ، فكأنه جعل تصوّره في الآخر بصورته الأولى في الدقّة مراجعة ومعاودة، والقديم يرادُ به المتقادم، كما قال في قصة يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّكَ لَفِى ضَلَٰلِكَ ٱلْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾﴾[١]، وقال الفرّاء: القديم يقال لما أتى عليه حول[٢]، وقيل أيضاً: معنى عاد، صار، ويشهد لذلك قول الشاعر[٣]:

أَطَعْتَ العِرْسَ فِي الشَّهَواتِ حَتَّى ... تَعُودَ لَهَا عَسِيفاً عَبْدَ عَبْدِ

ولم يكن عسيفاً قط، وقال امرؤ القيس[٤]:

وَمَاءٍ كَلَونِ ٱلبَوْلِ قَد عَادَ آجِناً ... قليلٍ به الأقواتُ ذي كَلأٍ مَحْلِ

أي صار، وقال الغنوي[٥]:

فَإِنْ تَكُنِ الأيّامُ أَحْسَنَّ مَرَّةً ... إِلَيَّ فَقَدْ عَادَتْ لَهُنَّ ذُنُوبُ

قوله: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾، يعني ينبغي لها، أي لو كانت تطلب إدراك القمر لما حصلت لها بغيتها، ولا ساعدتها طلبتها، يقال: بغيتُ الشيءَ فأنبغى لي، أي طلبته فأطلبني، وإذا لم ينبغِ لها لو طلبت، فيجب أن لا يحصل الفعل منها البتّة، لأن الإدراك معناه اللحوق، وسببه الذي هو البَغَاء ممنوع منه، فكيف يحصل المسبب؟.

وأيضاً فإنّ سرعة سير القمر وزيادته على سير الشمس ظاهر، فهو أبداً سابق لها بسرعته، وتلك متأخرة لبطئها، وقوله: ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ محمول على وجهين:

الأول: أن يكون المعنيّ بالسَبق أول إقباله؛ وآخر إدبار النهار.

الثاني: أن يكون المعنيّ آخر إدبار النهار؛ وأول إقبال الصبح، وسبق الليل النهار بإقباله، أن يُقبِلَ أولُ الليل قبل آخر إدبار النهار، وهذا ما لا يكون، وأمّا سبقه إيّاه بإدباره، فإنّ سبق آخر إدبار الليل أولَ إقبال الصبح؛ قبل كونه، وهذا أيضاً لا يكون، ولا يجوز كونه لأنهما ضدّان يتنافيان ويتعاقبان، فلذلك لم يجز سبق الليل النهار في شيء من أحواله.

وقيل: معنى لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ، أي ليس لها أن تطلع ليلاً، ولا

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٩٥.
(٢) ليس في معاني القرآن في تفسير سورة يوسف.
(٣) البيت لنبيه بن الحجاج كما في لسان العرب/ عسف.
(٤) ديوانه ص ٣٦٣.
(٥) أخلّ به ديوان طفيل الغنوي.

القمر له أن يطلع نهاراً، لأنّ لكلٍّ منهما شأناً قُدِّر له، ووقتاً أُفرد به، فلا يقع بينهما زاجر فيدخل أحدهما في حدّ الآخر.

قوله: ﴿ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾، أي كلّ واحد منهما له فَلَك يدور فيه، فلا يملك انصرافاً عنه، ولا تأخراً إلى غيره، ولفظ الفلك يقتضي الاستدارة، أي وكلّ له مكان من مسبحه مستدير يسبح فيه، أي يسير بانبساط، ومنه السباحة، وقال تعالى لنبيّه: ﴿ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ ﴾[1]، ولا يمنع أن يكون يشير بقوله: فَلَك، إلى الذي هو فلك الأفلاك، وإذا جعل على هذا فهو أبهر في الآيات، وأدلّ على اقتدار صانعه، وإنما قال يسبحون، لأنه لما نسب إليها على المجاز والسَّعة أفعال العقلاء المميزين، جعل الإخبار عنها على ذلك الحدّ، ومثله: ﴿ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ ﴾[2]، وهذا كثير.

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ﴾[3] الآية، نبَّهَ بهذه الآية بقوله: ﴿ إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ ﴾[4] الآية، على نِعَمِه على خلقه فيما أنشأه حالاً بعد حال لهم وابتدعه، وما عرف مصالحه وقتاً بعد وقت، فيما قدر لهم فكر وذكر، ونَصَبَ للحاضرة والبادية من الأعلام والأدلّة، بالمنازل والأهلّة، ومطالع النجوم السيّارة وغير السيّارة، حتى جُعِلت مواقِيتَ وآجالاً، ومواعيدَ وآماداً، فعرفوا حلالها وحرامها، ومُسالمها ومُعَاديها، وذا العاهة منها ممّا لا عاهة معها، وتبيّنوا بطول التجارب أضرها أنواءً، وأَعوَدَها أمطاراً، وأعزّها فقداناً، وأهونها إخلافاً، فأخذوا لكلّ أمرٍ أهبته، ولكلّ وقت عُدَّتَه، إلى كثير من المنافع والمضارّ التي تتعلق باختلاف الأهواء، وتفاوت الفصول والأوقات.

ومَن تدبّر قوله: ﴿ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ﴾، ثمّ فكّر في تميّز أحدهما عن الآخر باختلاف حالهما في النور والظّلمة، والظهور والغيبة، ولماذا صارا يتناوبان في أخذ كلّ واحد منهما من صاحبه، ويتعاقبان في إصلاح ما به مصالح عباده وبلاده، وكيف يكون نموّ القمر من استهلاله إلى استكماله ونقصه، وأنمحاقه من ليالي شهره وأيامه، وأنّى يكون اجتماع الشمس والقمر وأفتراقهما، وتساويهما وتباينهما، ظهر من حكمة الله تعالى له، إذا تدبّره، وردّ آخره على أوله، وولى[5] كلّ فصل منه ما هو أولى به، ثمّ سلك مدارجها، وتتبّع بالنظر معالمها ومناهجها، أدّاه الحال إلى أن يصير من الراسخين في العلم به تعالى، وبمواقع نِعَمه وآثار ربوبيته، ألا تَرى أنّه لو جعل الليل سرمداً، أو جعل النهار أبداً لانقطع

---

(١) سورة المزمل، الآية: ٧.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٤.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ١٢.
(٤) سورة التوبة، الآية: ٣٦.
(٥) وولى: هكذا في المطبوع، وأحسبه وأولىٰ.

نظام التعايش، وانسَدَّ [ت] أبواب النموّ والتزايد، وتأدّىٰ انقلاب التدبّر إلى ما شرحه يتعذّر، فسبحانه من حكيم، رؤوف بعباده رحيم.

وقد سُئِل النبي ﷺ عن نقصان القمر وزيادته، فأنزل الله تعالىٰ: أنّ ذلك لمواقيت حَجِّكم وعمرتكم؛ وحِل ديونكم، وانقضاء عدّة نسائكم، وقوله تعالىٰ: آية الليل وآية النهار، إضافتهما على وجه التبيين، والشيء قد يضاف إلى الشيء لأدنىٰ علاقة بينهما، قال تعالىٰ: ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَآتٍ﴾[1]، لما كان هو المؤجِّل، وقال في موضع آخر: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾[2]، لما كان الأَجَلُ لهم، فكذلك قوله: آيةُ اللَّيلِ وآيةُ النَّهارِ، يعني الآية التي يختص بهما، هذا في إضافة الغير إلى الغير، فأمّا إضافة البعض إلى الكلّ فقولك: خاتَمُ حَديدٍ، وثَوبُ خزٍّ، فلا يمنع دخوله فيما نحن فيه، ويكون المعنى، أنّ الآية لَمَمْحُوَّة؛ كانت بعض الليل، كما أنّ الخاتم يكون بعض الحديد، كان الليل ازداد بالمحو آيتها سواداً، ويقال: دِمْنَة مَمْحُوَّة إذا درسـ [ت] آثارها وآياتها، ويقال: مَحَوْتُ الشيءَ أَمحوهُ وأَمْحَاهُ، وفي لغة طيء، مَحَيْتُه[3].

وحكى بعضهم: مَحَا الشيءَ، ومحاهُ غيره، وكتاب ماح وممحو، ومَحْوَةُ اسم لريح الشَّمال، لأنها تمحو السحاب، والْمَحْوَةُ، المطرة التي تمحو الجدب، ومن كلامهم: تركت الأرض مَحْوَةً؛ إذا جيدت كلّها، وقال بعضهم: يجوز أن يكون عنىٰ بآية النهار، الشمس، وبآية الليل، القمر، وعنىٰ بالمحو ما في ضوء القمر من النقصان.

وحُكي عن السلف: أنّ المراد بالمحو، الطخاء الذي في القمر، قوله: ﴿وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾[4]، هو على طريق النسبة، أي ذات إبصار، وفي موضع آخر: ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾[5]، أي مُضيئاً، وكما يقال: هو ناصِبٌ، أي ذو نَصَب، ويجوز أن يكون لما كان الإبصار فيها، جعله لها، كما يقال: رَجُلٌ مُخْبِتٌ، إذا صار أصحابُه خبثاء، ونَهارُه صائِمٌ، وليله قائمٌ.

وقال أبو عبيد: يريد، قد أضاء للناس أبصارهم، ويجوز أن يكون كقولهم: أَصْرِمَ النَّخْلُ، أي أذِنَ بالصرام، وأَحْمَقَ الرَّجُلُ، إذا أتىٰ بأولادٍ حمق.

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٥.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٣٤.
(٣) تنظر مادة/ محا في الصحاح، ولسان العرب، وتاج العروس.
(٤) سورة الإسراء، الآية: ١٢.
(٥) سورة يونس، الآية: ٦٧. سورة النمل، الآية: ٨٦. سورة غافر، الآية: ٦١.

وقوله: ﴿لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾[1]، مثل قوله في موضع آخر: ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾[2]، ومثل قوله ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾﴾[3]، وفي آخر: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾[4]، ومثل قوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ﴾[5]، وهذه الآي وإن تشابهت في معانيها، فقد اختلفت تفاصيل نظومها، فقوله: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾﴾ أي يغشى كلّ شيء من الحيوان وغيره، فيصير ذا دَعَةٍ وسكون، وانقطاع عمّا يعالجه في النهار لابتغاء الفضل فيه: ﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾، أي وقت معاش، والمعاش والمعيش ما أعان على الحياة به ممّا الحياة به، وليس الحياة، قال أُميّة[6]:

مَا أَرَىٰ مِن مَعِيشَتِي فِي حياتي غَيْرَ نَفْسِي[إلاّ بني أسرالِ]

وقد قال أبو العباس محمد بن يزيد:[7] ثمّ يرى تفسيرهما جملة، ثقة بأنّ السامع يردُّ كلاًّ إلى مآله، يريد مثل قوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾، ثم قال: ﴿لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا﴾، والسكون في الليل؛ والابتغاء في النهار، ومثله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾[8]، وإنّما هو من أحدهما.

فإن قال قائل: ما تصنع على هذا بقول سيبويه: لا يقول: لقيتُه في شهري ربيع إذا كان اللقاء في آخره؟، قال: وكذلك لا يجوز أن يقول: لقيتُه في يومين، واللقاء في أحدهما، قلت: هذا الذي قال صحيح، لأنّ ذِكْرَكَ الشهر الذي لم يكن فيه اللقاء فصل، ولكن لو وصفت الشهرين بما يكون في واحد منهما فجمعت الصفة فيهما كان جيّداً، وذلك قولك: في الشتاء يكون المطر ويُقعَدُ في الشمس، أي هذا وهذا، وكذلك في شهري ربيع نأكل الرُّطَبَ والتّمر، أي هذا في أحدهما وهذا في أحدهما، كما يقول: لو لقيت زيداً وعَمْراً لوجدت عندهما نَحْواً وخَطّاً، إن كان النحو عند أحدهما والخطّ عند الآخر، فليس هذا بمنزلة الأول، لأنّ اللقاء في أحد الشهرين؛ والآخر لا معنى لذكره البتّة.

قال أبو العباس: ومن ذلك قوله تعالىٰ: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾﴾[9] ثمّ خبّر بفضائلهما فقال: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾، وإنما خرج من

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٢.
(٢) سورة يونس، الآية: ٦٧.
(٣) سورة الفرقان، الآية: ٤٧.
(٤) سورة النبأ، الآية: ١١.
(٥) سورة القصص، الآية: ٧٣.
(٦) أخلّ بالبيت ديوان أُمية بن أبي الصلت.
(٧) هو المبرّد.
(٨) سورة الرحمن، الآية: ٢٢.
(٩) سورة الرحمن، الآية: ٢٠.

الملح لا من العذب، ولكنه ذكرهما ذِكراً واحداً فَخَبَّرَ بما يتضمّنانه، وكذلك قوله: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ ﴾[1]، فالسكون في الليل، والاكتساب في النهار، ولكن كما جمعهما في الذكر ابتداءً، جمعهما في الخبر انتهاءً، افتناناً في النظم وتبحّراً في السبك، وثقة بأنّ اللبس عنه بعيد كيف رُتّب.

وفي قوله تعالى: ﴿ وَلِتَعْلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ﴾، إشارة إلى التواريخ، وضبط مبالغ الديون والمعاملات وآمادها ومواقيتها، وما فيه معاشهم ورياشهم، وعليه تبتنىٰ منافعهم ومصالحهم، وقد دخل تحت ما ذكرنا ما أشار تعالى إليه بقوله: ﴿ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا ﴿١٢﴾ ﴾[2]، وإن كانت هدايته أبلغ، ومجامع بيانه من اللّبس أبعد، فأمّا قوله تعالىٰ من الآية الأخرى التي أوردتها مستشهداً بها ﴿ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴾، أي للتودع والسكون، يقال: في فلان ملبس، أي مستمتع، قال أمرؤ القيس[3]:

ألاَ إنَّ بَعْـدَ ٱلعُـدْمِ لِلْمَـرْءِ قِنْيَـةٌ ... وبَعْدَ المَشِيْبِ طولُ عُمْرٍ ومَلْبَسَا

وقال ابن أحمر[4]:

لَبِسْـتُ أَبِـي حَتَّـىٰ تملَّيْـتُ عُمْـرَهُ ... وملَّيْـتُ أَعْمَـامِـي ومَلَّيْـتُ خَـالِـيَا

ويجوز أن يريد باللباس السّتر، لأنّ الليل غطاء كلّ شيء وستره كما قدّمنا، والأحسن الأول، يدلّ على ذلك قوله تعالى: ﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾[5]، جعل العلة فيما أُحلّ منهن لهم من الرفث إليهن كون الجميع لباساً، أي مستمتعاً، وقوله: ﴿ وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا ﴾، أي راحة وأمناً، يقال: رجل مسبوت، إذا استرخى ونام، وسَبَتَ فلان العمل، بالفتح، إذا ترك العمل واستراح، وانسَبَتَت البُسْرَةُ إذا لانت، وقوله: ﴿ وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ ﴾، مثل قوله: ﴿ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ ﴾[6]، أي ذهاباً وتصرفاً في طلب الرزق، ولما كان النشور في النهار، جعله على المجاز بنفسه كقولك: فلان أَكَلَ وشَرِبَ، على تقدير: هو ذو أكل، فحذف في المضاف، أو لغلبة الفعل عليه جعله كأنّه الفعل، على هذين الوجهين يحمل قوله[7]:

تَـرْتَـعُ مَـا غَفَلَـتْ حتّى إذا ٱدَّكَـرَتْ ... فَـإنَّمَـا هِـيَ إقْبَـالٌ وإدْبَـارُ

---

(١) سورة القصص، الآية: ٧٣.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٢.
(٣) ديوانه ص ١٠٨.
(٤) شعر ابن أحمر ص ١٦٨.
(٥) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.
(٦) سورة المزمل، الآية: ٧.
(٧) البيت للخنساء. ينظر ديوانها ص ٥٠، وفيه ما رتعت بدل ما غفلت.

وهو يصف وحشية. قال بعض أصحاب المعاني: النشور في الحقيقة، الحياة بعد الموت، بدلالة قوله[1]:

حتَّـــىٰ يَقُـــولَ النَّـــاسُ مِمَّـــا رَأَوْا   يـــا عَجَبـــاً لِلْمَيِّـــتِ النَّـــاشـــرِ

وهو في هذا الموضع الانتباه من النوم والاضطراب من الدَّعَة، وكما سمّى الله تعالى نوم الإنسان وفاة بقوله تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾[2]، كذلك وَفّق بين إبقاءٍ من الموت في التسمية بالنشور.

ومنه قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ﴾[3] الآية، قوله: ألم تر، لفظ استفهام، وحقيقة البعث على النظر، والمعنى، أنظرُ حتى تتعجب إلى ما مدّه الله من الظلّ، وإنما قلنا هذا لأنّ المدَّ مُدْرَك مُتبيَّن، وَتَبَيّن كيفيته يبعد في الوهم، فكيف في الإدراك؟ فلا يعلمه إلا الله، وهذا على عادتهم في التفاهم بينهم، يقولون: أرأيتَ كذا؟ والمراد، أخبرني، وأرأيتَكَ، وألم تَرَ كذا، وهل رأيت كذا، ولم تَرَ لي كذا، وألم تر كيف كذا؟.

والفصل في أكثره أن تعلق[4] المخاطب على ما تعجَّب منه مِن المدعو إليه، وقد استعمل هل رأيت معدولاً به من حيث المعنى على ظاهره أيضاً، وذلك كقول القائل[5]:

حتَّـــىٰ إذا جَـــنَّ الظَّـــلامُ واْخْتَلَـــطْ   جَـاءُوا بِمَـذْقٍ هَـلْ رأيْـتَ الـذِّئبَ قَـطْ

ويسمّى مثل هذا: التصوير، لأنّ المعنى: جاءوا بمذق أَوْرَقٍ، فصوّر الوُرْقَةَ بلون الذئب، فأمّا قوله تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ ﴾[6]، فمعناه، أرأيت كالذي حاجّه، بيَّن ذلك ما عطف عليه من بعد لأنه تعالى قال: ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ ﴾[7]، لأنّ المعنى على ذلك، والكلام جارٍ على التعجب، ولفظة إلى تأتي إذا حملت أرأيتَ على أنظر، فأما قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝ ﴾[8]، فالمعنى، ألم تعلم؟ ولا يحتاج إلىٰ ذكر إلى.

والمُراد بالظلّ عند بعضهم؛ الذي يكون بعد طلوع الفجر في انبساط، وقبل طلوع الشمس وظهورها على الأرض، وقد قال أهل اللغة في الفرق بين الظلّ والفَيء، أنّ الظلّ يكون بالغداة والعشيّ، والفيء لا يكون إلاّ بالعشِيّ، لأنه اسم للذي فاء من جانب

---

(١) البيت للأعشىٰ كما في ديوانه ص ١٤١.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٤٢.
(٣) سورة الفرقان، الآية: ٤٥.
(٤) في المطبوع: تعق.
(٥) مغني اللبيب ١/٢٤٦.
(٦) سورة البقرة، الآية: ٢٥٨.
(٧) سورة البقرة، الآية: ٢٥٩..
(٨) سورة الفيل، الآية: ١.

إلى جانب[1]، ومنه قولهم: فَيءُ المسلمين للغنائم والخراج الراجعة إليهم، وقد جاء ما يفيد فائدته في صفة الظلّ في مواضع منها: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾[2]، ومنها قوله: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠﴾[3]، فجعل ما في الجنّة ظلالاً فيئاً، وكان رؤبة[4] يقول: الظلُّ ما لم ينسخه الشمس وهو أوّل، والفَيء ما نسخته الشمس وهو آخر، وقالوا: الظلُّ بالغَداة والعَشِيّ، وألفَيءُ بالعَشِيّ، وقيل أيضاً: الظّلّ يكون ليلاً ونهاراً، وألفَيءُ لا يكون إلاّ بالنهار، وما نسخته الشمس فَفَيء؛ وكان في أول النهار فلم تنسخه الشمس، وقيل: الظلُّ، الليلُ في كلام العرب، قال:

وَكَمْ هَجَرَتْ وَمَا أَطْلَقَتْ عَنْهَا ... وَكَمْ رَبِحَتْ وَظِلُّ اللَّيْلِ دانِ

فجعل للّيل ظِلاًّ، وقول الآخر: وتَفَيَّئوا الفِردَوسَ ذاتَ الظِّلالِ، اتّساع أيضاً، لأنه جعل للأفياء ظلالاً، فأمّا قوله[5]:

فَلاَ الظِّلّ مِنْ بَرْدِ الضُّحَىٰ نَسْتَطِيعُه ... ولاَ الفَيءُ مِنْ بَرْدِ العَشِيِّ نَذُوقُ

فقد فصل بينهما.

قوله: ﴿وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾[6]، سُئِلَ عنه؛ متى كان متحركاً؟ فقيل: معنى السكون ها هنا الدوام والثبات، ألا ترى أنّك تقول للماء الساكن الواقف: ماءٌ دائِمٌ وراكِدٌ؟ ويمكن أن يقال: إنّ الساكن ها هنا من السكنىٰ لا من السكون، أي لو شاء لجعله ثابتاً لا يزول، كما أنّ سُكنَىٰ الرجل الدار يكون إذا قام وثبت.

قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۝٤٥﴾[7]، يراد به: أنه لولا الشمس لما عُرِفَ الظِلُّ، فالله تعالى يقبضه ويبسطه في الليل والنهار، وعلى هذا يكون الدليل بمعنى الدال.

وقال بعضهم: المعنى، دللنا الشمس على الظلّ حتى ذهبت به ونسخته، أي أتبعناه إياها، قال: ويدلك على ذلك قوله: ﴿ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ۝٤٦﴾[8]، أي شيئاً بعد شيء، فعلى طريقته يكون دليلاً فَعيلاً. في معنى مفعول، لا في معنى الدال، وروي عن الحسن أنه كان يقول: يا ابنَ آدمَ أمّا ظِلُّكَ فسَجَد للهِ، وأمّا أنت فتكفر بالله.

---

(١) لسان العرب/ ظلل.
(٢) سورة الرعد، الآية: ٣٥.
(٣) سورة الواقعة، الآية: ٣٠.
(٤) هو رؤبة بن العجاج، شاعر رجّاز من شعراء العصر الأموي.
(٥) البيت في لسان العرب/ ظلل.
(٦) سورة الفرقان، الآية: ٤٥.
(٧) سورة الفرقان، الآية: ٤٥.
(٨) سورة الفرقان، الآية: ٤٦.

وقال بعضهم وقد أحسن ما قال: الظلّ من آيات الله العظام، الدالة بإلزامه الإنسان منه ما لا يستطيع انفكاكاً عنه، فدل بذلك على لزوم القمر له ولسائر الخلق، قال الله تعالىٰ: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾(١)، فظلال الأشياء تمتدّ عند طلوع الشمس من المشرق طولاً، ثمّ على حسب ارتفاع الشمس في كبد السماء، تقصر حتى ترجع إلى القليل الذي لا تكاد تُحَسّ، وحتى يصير عند انتصاف النهار في بعض الزمان بمنزلة النعل للابسها، ثم يزيد في المغرب شيئاً شيئاً، حتى يطول طولاً مفرطاً قُبيل غروب الشمس وإلى غروبها، ثمّ يدوم الليل كله، ثمّ يعود في النهار إلى حاله الأولى، فالشمس دليل عليه، لولا الشمس ما عرف الظلّ، فالله بقدرته القاهرة يقبضه ويبسطه في الليل والنهار، وإنّما قال: ﴿ قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ ﴾، لأنّ الظلّ بعد غروب الشمس لا يذهب كله دفعة واحدة، ولا يُقبِلُ الظلام كلُّه جملة واحدة، وإنّما يقبض الله تعالى ذلك الظلّ قبضاً خَفِيّاً وشيئاً بعد شيء، ويعقب كلّ جزءٍ منه بقبضه بجزء من سواد الليل، حتى يذهب كله، فدلّ الله على لطفه في معاقبته بين الظلّ والشمس والليل، ومن كلامهم: وردتُهُ والظلُّ عِقالٌ وطباقٌ وحِذاءٌ. وقال(٢):

وتَـواهَقَـتْ أخفَـافُهـا طَبَقَـاً   والظِّـلُّ لَـمْ يَفْضُـل وَلَـمْ يُكْـرِ

أي لم ينقص، ويقولون: لم يزل الظلّ طارداً ومطروداً، ومحولاً، وناسخاً ومنسوخاً، وسارقاً ومسروقاً، وكلّ الذي ذكرت عند التحصيل بيان وتفصيل لما أُجمل فيما قدّمته، وسيجيء من صفات الظلّ وأسمائه في بابه ما تزداد به أنساً بما ذكرناه.

وأمّا قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ الآية، فقوله: مِنْ شيءٍ، مِنْ دخلت للتبيين كدخولها مع المعرفة في قوله: ﴿ فَٱجْتَنِبُوا ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ ﴾(٣)، والمعنى، من شيءٍ له ظلّ، كالشخوص، ومِنْ هذه قد تَجيءُ مع النكرة فتُلزَم ولا تُحذَف، تقول: مَنْ ضَرَبَكَ مِنْ رجل وامرأةٍ فاضربْهُ، هذا في الجزاء كقوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾، وإنّما كرِهُوا حذف مِنْ لأنهم خافوا أن يلتبس الكلام بالحال إذا قلتَ: إلى ما خلق الله شيئاً، ومعنى الحال ها هنا بعيد فألزموه مِنْ ليعلم به أنه تفسير وتبيين لما قد وقع غير مؤقت، يكشف هذا أنك لو قلت: لِلَّهِ دَرُّه مِنْ رجل، جاز أن يقول: لِلَّهِ دَرُّهُ رَجُلاً، ومِنْ رجالٍ، فإنّك قد أمنت الالتباس بالحال إذ لم يكن ذلك موضعه، فأمّا قولك: للهِ دَرُّكَ قائماً،

(١) سورة النحل، الآية: ٤٨.

(٢) البيت لعمرو بن أحمر الباهلي كما في ديوانه ص ١١٣، وقد تحرفت فاتحته في المطبوع إلى لواحقت، وانظر أيضاً: لسان العرب/ طبق. فالبيت منشد هناك.

(٣) سورة الحج، الآية: ٣٠.

فإنّما جاز سقوط مِنْ لأنّ الذي قبله مؤقت، فلم يُبالِ التباسه بالحال.

قوله تعالى: ﴿يَتَفَيَّؤُا۟ ظِلَـٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾، معناه ما قدّمته في بيان قوله تعالى: ﴿كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا﴾، وكَشْفُه أنّ جميع ما خلقه عزّ وجلّ ظِلُّهُ يدورُ معه ويمتدّ، لا ينفك منه حتى لو راح انسلال مَن دونَه لما تدر عليه، يصحبه مقبلاً ومدبراً، وكيف مال، زائداً عليه، وناقصاً منه، ليذكّره عجزه، ويصول له أنه على تصرفه المتين في لزام أضعف قرين، وذلك تَفَيُّؤُهُ، أي ترجعه يَمْنَة ويَسْرَة، ومتنعّلاً من تحت، ومعتلياً من فوق، على حسب اختلاف الأحوال، فيكون للأشخاص فَيءٌ عن اليمين والشمائل، إذا كانت الشمس على يمين الشخص كان ٱلفَيءُ عن شماله، وإذا كانت على شماله كان الفيءُ عن يمينه، وقيل: أول النهار عن يمين القبلة، وفي آخره عن شمال القبلة.

ومعنى قوله: ﴿سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ ﴿٤٨﴾﴾ أنها بآثار الصنعة فيها خاضعة لله تعالىٰ، وذِكْرُ السجودِ قد جاء في هذا المعنى في غير هذا الموضع، قال[1]:

غُلْبٌ سَوَاجِدُ لَمْ يَدْخُلْ بِهَا ٱلحَصَرُ

وقال آخر[2]:

بِجَمْعٍ تَظَلُّ البُلْقُ فِي حُجُرَاتِهِ تَرَىٰ ٱلأَكْمَ فِيهَا سُجَّداً لِلْحَوَافِرِ

والمرادُ: الاستسلام بالتسخير والانقياد.

فأمّا قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾[3]، بعد أن قال: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾﴾، فمعنى ضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ، أي أنمناهم ومنعناهم الإدراك، ويقال في الجارحة إذا أبطلتها: ضربتُ عليها، وفي الممنوع عن التصرّف في شيء، ضربتُ على يده، ومعنى تزاور وتزوَّر[4]، تنحرف عنهم، أي تطلع على كهفهم ذات اليمين ولا تصيبهم، والعرب تقول: قرضته ذات اليمينِ وذات الشمالِ، أي كنت بحِذَائه من كلّ ناحية، وأصل القرض، القطع، أي تبدل عنهم وتتركهم.

وقيل: إنّ باب الكهف كان بإزاء بنات نعش، فلذلك لم تكن الشمس تطلع عليه، وإنما جعل الله تعالى ذلك آية فيهم، وهو أنّ الشمس لا تقربهم في مطلعها؛ ولا

---

(١) عجز بيت للبيد بن ربيعة العامري كما في ديوانه ص ٦٠ وشطره: بين الصَّفا وخليج العين ساكنة.
(٢) روى لسان العرب في مادة/ سجد عجز البيت ولم يعزه.
(٣) سورة الكهف، الآية: ١٧.
(٤) قُرِئَتْ تزاور، وتزوّر، وتزوارّ، وتزّاور. ينظر: السبعة في القراآت ص ٣٨٨.

عند غروبها، وقال الله تعالىٰ: ﴿ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۞ ﴾[1]، وقد بيَّن الله المراد بما ذكرنا في آية أخرى فقال تعالىٰ: ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ۩ ﴾[2]، يريد الانقياد في الطاعة من الملائكة والمؤمنين في السماوات والأرضين، وأنه يستسلم من في الأرض من الكافرين كرهاً وخوفاً من القتل، وظِلاَلُهُمْ بالغُدُوِّ والآصَالِ يؤدي ما أودع من آيات الحكم، وغرائب الأثر، فسبحانه من معبود حقّت له العبادة من كلّ وجه، وعلى كلّ حال، فلا يُتَوَجَّه إلاّ إليه؛ وإن قصد بها غيره، ولا تليق إلاّ به دون مَن سواه، والدَّاخِرُ، الصاغر، ويقال: تفيَّأَتِ الشجرة بظلّها إذا تميَّلَتْ، فأمّا قوله:

تَتَبَّـعَ أَفْيَــاءَ الظِّــلاَلِ عَشِيَّــةً ... عَلَـى طُـرُقٍ كَـأَنَّهُـنَّ سُبُـوبُ

فإنّما أضاف الأفياء إلى الظلال، لأنه ليس كلّ ظلّ فَيْئاً، وكلُّ فَيْءٍ ظلّ، وتحقيق الكلام. تَتَبَّع ما كان فَيْئاً من الظلال، ومثله في الاتساع قول الآخر:

لَمَّــا نَــزَلْنَــا نَصَبْنَــا ظِـلَّ أَخْبِيَــةٍ ... وَفَــازَ بِـاللَّحْـمِ لِلْقَـومِ ٱلْمَـرَاجِيْـلُ

لأنّ المنصوبة هي الأخبية، ويقال: أَظَلَّ القومُ عليهم، أي أوقعوا عليهم ظلالهم، وإنّما قال: وَهُمْ دَاخِرُونَ لأنّ المنسوب إليها من أفعال العقلاء، فأُعِيرت عبارتهم، وقد مضى مثل هذا.

ومنه قوله تعالى: ﴿ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ ﴾[3]، إلى تُظْهِرُونَ، إعلَم أنّ قولك: سُبْحَانَ، مصدر كقولك: كُفْران وغُفْران، إلاّ أنّ فعله لم يستعمل، ولو استُعمل لكان سبح، مثل كَفَرَ وغَفَر، ومعناه، التبعيد من أن يكون له ولد، أو يجوز الكذب عليه، والتنزيه له، والبَرْأةُ من السوء، وكلّ ما يَنفِي عنه، إلاّ أنّه التزم موضعاً، ولم يجر مجرى سائر المصادر في التصرف والاستعمال، وذلك أنه لا يأتي إلاّ منصوباً مضافاً وغير مضاف، لكنه إذا لم يُضَف تُرِك صرفه، فقيل: سبحانَ من زيد. قال الأعشىٰ:

أَقُــولُ لَمَّــا جَــاءَنِــي فَخْــرُهُ ... سُبْحَــانَ مِــنْ عَلْقَمَــةَ ٱلفَــاخِــرِ[4]

فلم يصرفه لأنه معرفة في آخره ألف ونون زائدتان، فهو كعُثمان وسُفيان، كأنه أُجرِي مُجرىٰ الأعلام في هذا، وهم يحملون المعاني على الذوات في تخصيصها بأشياء كالأعلام لها، وعلى ذلك أسماء الأفعال، فأمّا قولهم: سبَّح تَسبيحاً، فهو فعل بُنِيَ على سبحانَ، ومعنى سبَّحَ الله، أي قال: سبحان الله، فهو عروض قولهم: بَسْمَلَ إذا قال: بسم الله، وقد أطلق سبَّح في وجوه سوى هذه:

---

(1) سورة الرحمن، الآية: ٦.
(2) سورة الرعد، الآية: ١٥.
(3) سورة الروم، الآية: ١٧.
(4) ديوانه ص ١٤٣، وفاتحة عجزه في المطبوع. فسبحان.

منها: الصلاة النافلة، يشهد لهذا قوله تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾[1]، أي من المصلّين، وهو مُسْتَفيض أنّ السبحة هي النافلة، وكان ابن عمر يصلي سبحته في موضعه الذي يصلي فيه المكتوبة.

ومنها: الاستثناء، كقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾﴾[2]، أي لولا تستثنون، وقيل: هي لغة لبعض أهل اليمن، وليس للكلام وجه غيره، لأنه تعالى قد قال قبل ذلك: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾[3]، ثمَّ قال: ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾﴾، فأذكرهم تركهم الاستثناء، والمراد من الله تعالى أن يعرِّفنا عبادته، ويعلمنا حمده وما يستحقّ به إذا أقمناه، وكأنّه قال: سَبِّحُوا الله في هذه الأوقات، وَتَذَكَّروا في كلّ طرف منها ما يُجَدِّدُ عندكم من أنعامه، ثمّ قابلوا عليه بمقدار وسعكم من الحمد والتسبيح.

قوله: ﴿حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾﴾، أي إذا أفضيتم إلى الصباح والمساء، وحقّ النظم أن يكون حِينَ تُمسونَ وحِينَ تُصبِحونَ وعَشِيّاً وحِيْنَ تُظهِرُونَ، لكنّه اعترض بقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، ومثل هذا الاعتراض إلاّ أنه بين الفعل والفاعل قوله[4]:

وَقَدْ أَدْرَكَتْني - والحوادِثُ جَمَّةٌ - أَسِنَّـةُ قَـوْمٍ لاَ ضِعَـافٍ وَلاَ نُكُـلِ

وفي القرآن ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾[5]، ففصل بين اليمين وجوابها كما ترى، وحَسُن ذلك لأنّ المعْتَرِضَ يؤكّد المعتَرِض في الأول، والحمد إذا اقترن بالتنزيه والتسبيح صار الأداء أوفر بهما وأبلغ.

والصُّبْحُ والصَّبَاحُ والإِصْبَاحُ كالْمَسِيِّ والمَسَاءِ والإمساءِ، وهذا ممّا حُمل فيه النقيض على النقيض، وعلى هذا، المَصْبَحُ والمَمْسَىٰ، وجاء ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ﴾، ويعني به الصبح، وصَبَحْتُ القومَ، أتيتُهم صَبَاحاً، أو ناولتُهم الصَّبُوح، ويقولون: يا صَبَاحَاهُ إذا استغاثوا، والمِصْبَاحُ، السِّراجُ، واصطبحتُ بالزيتِ، والصَّبَاح، قرط المصباح الذي في القنديل[6].

والعَشِيّ، آخر النهار، فإذا قلتَ: عَشِيَّةً، فهي ليوم واحد، والعشي، السحاب لأنه

---

(١) سورة الصافات، الآية: ١٤٣.
(٢) سورة القلم، الآية: ٢٨.
(٣) سورة القلم، الآيات: ١٧ ـ ١٨.
(٤) بلا عزو في مغني اللبيب ٢/ ٣٨٧، وقافيته فيه عزل.
(٥) سورة الواقعة، الآيات: ٧٥ ـ ٧٦ ـ ٧٧.
(٦) تنظر مادة/ صبح في الصحاح، ولسان العرب.

يُغشي البحر بالظلام[1]، [و] الذي تتلخص به الآية أن يعلم أنّ المساء منه ابتداء الظلمة، كما يكون من الصبح ابتداء النور.

والظَّهِيرَةُ، نصف النهار، وفلان يرد الماء ظاهرة، إذا ورد كل يوم نصف النهار، يقول: فَعَلِمُوا اللَّهَ تعالى بما تدل عليه آياته في الصباح والمساء والغدوّ والرواح، فإنّ في معنى كلّ لمحة من هذه الأوقات بما تحويه من غرائب صنع الله في تبديل الابدال، وتحويل الأحوال، وإيلاج الليل في النهار، والنهار في الليل؛ إيجاب شكره علينا معشرَ عبيده مؤتَنِفٌ، وإلزام حمده ببقاء الزمان متصل.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، يريد به، في أهل السّماوات والأرض، فهو على حذف المضاف، كقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ﴾[2]، والمراد أهلها، والمعنى، أنه محمود في كلّ مكان وبكل لسان.

وذكر بعض المفسرين أنّ قوله: ﴿فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ﴾، الآية، دالّ على أوقات الصلاة، وهذا سائغ، وإن كانت الفوائد فيما ذكرناه أعمّ، وقد قال الله تعالى في موضع آخر: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾[3] الآية، منبهاً على أوقات الصلاة مُجْمِلاً وتاركاً تفصيلها وبيانها للنبيّ ﷺ.

والدُّلوكُ، مختَلَفٌ فيه، فمنهم من يجعله الزوال، ومنهم من يجعله الغروب، وهذا كما اختلفوا في الآية الأخرى وهي: ﴿حَـٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾[4]، فمنهم من قال: أراد بالوسطىٰ العصر، ومنهم من قال: أراد بها الفجر[5]، ويجوز أن يكون المفروض بقوله: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾، أربع صلوات؛ في النهار صلاتان، الظهر والعصر، وفي الليل صلاتان، المغرب والعشاء الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿كَانَ مَشْهُودًا ۝٧٨﴾، أي تشهده الملائكة، ويجوز أن يكون المراد، حقُّه أن يُشْهَد، والْغَسَقُ، الظُّلمة، فأمّا اختصاص السماوات والأرض بالذكر من بين

---

(١) جاء في لسان العرب/ عشىٰ: وقول كثيّر يصف سحاباً:

خفيٌّ تعشّىٰ في البحارِ ودونَه ... من اللجّ خضرٌ مظلماتٌ وسُدَّفُ

إنما أراد أنّ السحاب تعشىٰ من ماء البحر، جعله كالعشاء له.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٨٢.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٧٨.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٣٨.

(٥) من جعل أول اليوم المغرب، فإنّ الفجر هي الوسطىٰ، ومن جعل الفجر أول اليوم، فالعصر هي الوسطىٰ، وهو اختلاف فروع بين الفقهاء.

الأشياء كلها، فلشمولها لكلّ مخلوق، ومثله قوله تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾(١)، والمعنى، وهو الذي تحقّ له العبادة، وإذا كان كذلك فكلّ مذكور معلوم داخل فيهما، ويكون قوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾ خبراً ثانياً، أي هو إلٰه في الأرض، كما هو إلٰه في السماء، لا تخفىٰ عليه خافية.

ويحتمل أن يكون المراد ـ وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ، أي: هو معبود فيها، وقد تمّ الكلام، وقد يكون قوله: وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ، على أنه خبر ثانٍ، والمراد، أنه معبود في جميع ذلك، عالم بالسرّ والجهر، وقيل في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِي ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾(٢) أنّ الخَلْق يولهون إليه، أي يفزعون في الشدائد إليه مستعينين به، وأهل الأرض متساوون في حاجتهم إلى رحمته وجميل تفضله، فأمّا قوله: فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ، فإلٰه مشترك غير مخصوص، وجاز فيه الجمع كما جاء: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾(٣)، وكما قال: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾(٤)، وهو يعمل عمل الفعل، ألا ترى أنّ قوله: وَهُوَ ٱلَّذِي فِي ٱلسَّمَاءِ إِلَٰهٌ، الظرف فيه متعلق بما في الإلٰه من معنى الفعل، وفي تقديره وإعرابه عدّة وجوه، منها: أن يقال: إنّ العائد إلى الذي محذوف، كأنه قال: وهو الذي هو في السماءِ إلٰه وفي الأرض إلٰه، وساغ حذف العائد بطول، وهي قوله: فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الأَرْضِ إِلَٰهٌ، وهذا كما حكي عنهم: ما أنا بالَّذي قائل لك شيئاً، وقد قال الخليل: إني أستحسنه إذا طال الكلام، فهذا وجه، ويجوز أن يقال: إنه مرتفع بالابتداء، وخبره في السَّمَاءِ وفي الأرض، والعائد إلى الذي، هو الذي يعود إلى إلٰه، لأنّ الذي هو في المعنى، والحمل على المعنى مذهب أبي عثمان(٥)، وقال مع ذلك: لولا كثرته لرددته، ومثله قول القائل: أنت الذي فعلت، وقوله(٦):

أَنَا الَّذِي سَمَّتني أُمِّي حَيْدَره

والقياس فعال وسمته، وقوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ﴾، الظرف لا يتعلق بالاسم، أعني لفظة الله على حَدّ ما يتعلق بإلٰه إلاّ على حدّ ما ذكر [ت]ـه لَك، وهو أنّ الاسم لمّا عرف منه معنى التدبير للأشياء وإبقائها بحفظ صورها في نحو:

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٣.
(٢) سورة الزخرف، الآية: ٨٤ .
(٣) سورة ص، الآية: ٥.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٣٨.
(٥) أحسبه المازني، النحوي المعروف.
(٦) شطر من رجز منسوب للإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، كما في لسان العرب/ حدر.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ﴾(١)، ونحو: ﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ﴾(٢)، ونحو: ﴿ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا ﴾(٣)، صار إذا ذُكِر كأنه ذكر المدبر والحافظ، فيجوز أن يتعلق الظرف بهذا الذي هو الاسم العام بعد أن صار مخصوصاً، وفي حكم أسماء الأعلام التي لا معنى فِعْلٍ فيها، فهذا بمعنى الاسم، وما كان يدل عليه من قبل من معنى الفعل، وعلى هذا تقول: هو حاتم جواداً، وهو أبو حنيفة فقيهاً، وهو زهير شاعراً، فتعلق الحال بما دخل في هذه الأسماء من معنى الفعل لاشتهارها بهذه المعاني، ألا ترى أنك لا تقول: هو زيدٌ جواداً؛ ما لم يعرف بذلك، وعلى هذا تقول: هو حاتم كلَّ الجواد، وهو أبو حنيفة كلَّ الفقيه.

ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ﴾(٤) الآية، لمّا كان الله تعالى خالق الأشياء ومبتدعها، ومُدبّر الأفلاك ومُسَخِّرَها، وكانت الأبصار لا تدركه، والأقطار لا تحدّه، وأَراد مع ذلك أن يُعَرِّف نفسه إلى من يتعبّده من خلقه؛ لتسكن نفوسهم إلى مصطنعهم، فيعتصموا به، ويتمسَّكوا بدعائه، أَحَالَهُم على مراده من ذلك بآثاره وآياته، في أرضه وسمائه، إذ كان الطريق إلى معرفة الشيء إمّا أن يكون بما يؤدي إليه رواتب الحسّ، وهي الأجسام والأعراض، أو بما تبرهن عليه دلائل الصنع، وهو ما يُكْشَف عند الاستدلال، فأعلَمَ المشركين فيما أنزله، أنَّ الذي يجب تعظيمه، وتحق ربوبيته هو خالق السماوات والأرض في ستة أيام، فتوصلوا إلى معرفة ما نَصَبَه من أدلته، فسيشهد لكم من جلائل قوّته وعزّته ما يزيد في البيان على ما يصل إليه الواحد منكم بحاسّته، ويصوّر لكم النظر بما مهل في أوائل عقولكم؛ ما يميّز الشك من اليقين لكم، ويخلص الصفو من الكدر في معتقدكم، فالآلةُ تامّة، والعلّة منزاحة، وما كَلَّفَ بما كُلِّفْتُم إلا بحكمة بيّنة، وطريقة في فنون الصواب ثابتة، وإنّما خلقها في ستة أيام ليُعَرِّفَ عبادَه أنّ الرفق في الأمور وترك التعجل هو المرضيّ المختار في التدبير، لأنه تعالى لو شاء أن يخلقهما في أدنى اللمحات وأوحىٰ(٥) الأوقات، لما مسّه فيما يأتيه إعياء ولا لغوب، ولا أعجزه كلال ولا فتور، وإنما أراد أن يحدثه حالاً بعد حال لتدرك ثمرات عِبَرِهم شيئاً بعد شيء، وليتأدّب أولوا البصائر بآياته، وحَمْله قرناً بعد قرن. يبيِّن هذا أنّه تعالى نهىٰ نبيَّه عليه السلام فيما يتلقّاه من وحيه، ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾ ﴾(٦)، وقال أيضاً: ﴿ إِنَّا نَحْنُ

---

(١) سورة فاطر، الآية: ٤١.

(٢) سورة الحج، الآية: ٦٥.

(٣) سورة النمل، الآية: ٦١.

(٤) سورة يونس، الآية: ٣.

(٥) وأوحىٰ: هكذا ورد في المطبوع، ولم أهتد إلى معناه، ولعله: وأوفىٰ.

(٦) سورة طه، الآية: ١١٤.

﴿نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾(١) ثم جعل فيما نزّله مجملاً ومطلقاً، ولو شاء لجعل الكلّ مفسراً، ونعىٰ على الكفار لما قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً﴾(٢)، وقال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾﴾(٣)، وهذا حسن.

وقال بعض مشايخ أهل النظر: لو أراد الله تعالى أن يخلقها ويخلق أضعافاً كثيرةً معها لفعله، وهو عليها قادر، لكنه جعلها في ستة أيام ليعتبر بذلك ملائكته الذين كانوا يشاهدونه، وهو يُحْدِث شيئاً بعد شيء في هذه الأيام الستة عِبْرَة مجدّدة، ويستدل بكلّ ما يُحدِث دلالة مستأنفة، وليكون ذلك زيادة في بصائرهم، والحجة التي يقيمها عليهم، فقيل له في ذلك: إن كان ذلك حكمة، فيجب أن يَطَّرِدَ في جميع ما خلقه، وليس الأمر على هذا، على أنّ ذلك ليس بسائغ، لأن الملائكة لا يستغنون عن مكان يحويهم، وإذا كان لا مكان في العالَم إلاّ السماء والأرض، فليس يعقل كون الملائكة قبل كونهما.

ويمكن أن يقال في هذا ـ والله أعلم ـ أنه تعالى أعلمنا أنه أحدث شيئاً بعد شيءٍ حتى وُجِدَت عن آخرها في ستة أيام، وبَيَّن لنا بذكر الأيام الستة ما أراد أن يعلمنا إياه من الحساب الذي لا سبيل لنا إلى معرفة شيء من أمور الدُّنيا والدين إلاّ به، كما قال: ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ الآية، فأصل جميع الأعداد التامّة ستّة، ومنها يَتَفرَّع سائر الأعداد بالغاً ذلك ما بَلَغَ، إذا كان ما عَداها من الأعداد ناقصاً أو زائداً، ألا ترىٰ أنّ لهذا النصف وهو ثلاثة، والثلث وهو إثنان، والسدس وهو واحد، وإذا حَسَبْتَ جميعها كانت ستة، وعند من يعتني بهذا الشأن أنّ نظير الستة من العشرات ثمانية وعشرون، وكذلك لها في كلّ من المئين والألوف نظير واحد.

فالستة أول الأعداد التامّة، كما أن التسعة منتهىٰ الأنواع كلها، الآحاد، والعَشَرات، والمئين، والألوف، لاشتمالها على الفرد وهو واحد، والزوج وهو إثنان، والزوج والفرد وهو ثلاثة، والزوجين وهو أربعة، وقد انتهىٰ، [و] أنّ ما يجيء من بَعْدُ يكون مكرراً، وإذا حسبت الجميع كان تسعة، فكأنّه سبحانه من حكيم أراد أن يكون انتهاء خلقه للعالم بأسره إلى عدد تامٍّ فيما يحصى، كما أنه في نفسه تامٌّ لا بخس فيه ولا شطط فيما يروى ويتلىٰ، ونظير هذه الآية قوله تعالى في موضع آخر، وإن كان فيه زيادة بيان، وسنحكم القول في جميعه، لأنّ ما فيه من زيادة بيان نقيضه، إن شاء الله تعالى(٤).

---

(١) سورة الإنسان، الآية: ٢٣.

(٢ـ٣) سورة الفرقان، الآية: ٣٢.

(٤) يعرّف الرياضيون الأعداد التامة بأنها الأعداد التي تساوي مجموع عواملها، ومن الأعداد التامة (٦، ٢٨، ٤٩٦)، فالعدد ستة مثلاً قواسمه هي ١+ ٢+ ٣ = ٦، والعدد ثمانية وعشرون قواسمه: ١+ ٢+ ٤+ ٧+ ١٤ = ٢٨، وهكذا بقية الأعداد التي تسمّىٰ تامة، ينظر: موجز تاريخ الرياضيات للدكتور هاشم طيار.

وقوله تعالى: ﴿ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ ﴾(1)، إلى: ﴿ فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ﴾، يريد ما أُضِيف إليه، [و] لولا ذلك لما كان لقوله سواء للسائلين معنى، فكأنّه قال: في تمام أربعة أيّام سواءٍ لمن يسأل عن ذلك، ثم قال: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ﴾، إلى ﴿ فِي يَوْمَيْنِ ﴾.

واعترض بعض الملاحدة فقال: هذا باطل، إنكم وَفَّقتم بين التفصيل في هذه الآية؛ وبين الإجمال في الآية المتقدّمة؛ بأن تقولوا: قوله في أربعة أيام؛ يريد مع اليومين اللّذَيْنِ خلق الأرض فيهما، فما قولكم في قوله: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ ﴾ الآية؟ فدلّت هذه الآيات على أنه خلق الأرض قبل السّماء، وقال في موضع آخر: ﴿ أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ ﴾(2) إلى: ﴿ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ ﴾(3)، فدلّت هذه الآية على أنه خلق السماء قبل الأرض.

والجواب، أنه إنَّما كان بحَدِّ الطاعن متعلّقا لو قال: والأرض بعد ذلك خلقها أو أنشأها، وإنما قال: دَحَاها، فابتدأ الخلق في يومين، ثم خلق السماوات وكانت دخاناً في يومين، ثم دَحَا بعد ذلك الأرض، أي بسطها ومدّها وأَرْسَاها بالجبال، وأنبت فيها الأقوات في يومين، فتلك ستة أيام، وليس إحداثه تعالى لها في ستة أيّام إلاّ لتكوينه إيّاها في غير مُدَّة ولا زمان، لكن الحكمة التي دللها عليها أوجبت تقسيمها والإتيان بها على ما ترى.

وقال في موضع آخر: ﴿ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾(4)، وهذا أبلغ في الأعجوبة، أن يكون العرش، هذا البناء العظيم على الماء، وإنما يراعى في أسباب الأبنية ووضع قواعدها أن يكون على أحكم الأشياء، فهو مثل ابتداع أعيانها وإقامتها بلا عهد ولا علاقة، وقوله: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ ﴾، أي: قصد خلق السماء كما خلق الأرض سواء، وعمد إليها بعقب خلقها من غير حائل بينهما، وذلك تكوينه لهما جميعاً كما أراده، وهذا كما يقال: فعلنا كذا ثمّ استوينا على طريقنا؛ واستمررنا فيها سائرين؛ ولم يشغلنا عن الامتداد شاغل، قال زهير في مصداق ذلك(5):

ثُمَّ اسْتَمَرُّوا، وقالوا: إنَّ مَوْعِدَكُمْ ... مَـاءٌ بِشَـرْقِيِّ سلمـىٰ فَيْـد أو رَكَـكُ

ويروى: ثمّ استَوَوا وتنادوا.

وقد كان الله تعالى قبل تسويته إياها على ما هي عليه، خَلَقَها دخاناً، فَكَوَّن بعد ذلك من الدخان سَماءً وشمساً وقمراً وكواكب ومنازل وبروجا، وقوله: اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ،

---

(1) سورة فصلت، الآية: ٩.

(٢ ـ ٣) سورة النازعات، الآيات: ٢٧ ـ ٣٠.

(٤) سورة هود، الآية: ٧.

(٥) ديوانه ص ١٦٧، وقافيته في المطبوع: ركل. وهو وهم.

يريد الاستيلاء والملك، يدل عليه قول [الـ] بعيث[١]:

قَـدِ ٱسْتَـوَىٰ بِشْـرٌ عَلَـى ٱلعِـرَاقِ مِـنْ غَيْـرِ سَيْـفٍ وَدَمٍ مُهْـرَاقِ

يعني بشر بن مروان لمّا ولي العراق.

والعَرْش يحتمل أن يكنّى به عن الملك، وإن كان الأصل فيه ما يتخذه الملوك من الأَسِرَّة، ولهذا قيل لقوام أمر الرجل: العرش، وإذا اضطرب قيل: ثلّ عرشه، ويحتمل أن يراد به السماوات والأرض، لأن كلّها سقف عند العرب، ويقال: عرشت الشيء وسمكتـ[ـه]، وَسَقفتـ[ـه] وسطحته بمعنى، ويكون مَجيء ثُمَّ على هذا النسق خبراً على خبر؛ لا لترتيب وقت على وقت، ومثل هذا قول الشاعر[٢]:

قُـلْ لِمَـنْ سَـادَ ثُـمَّ سَـادَ أبـوهُ ثُـمَّ قَـدْ سَـادَ بَعْـدَ ذَلِـكَ جَـدُّه

وذكر بعض شيوخ أهل النظر أنّ ثُمَّ إنّما هو لأمرٍ حادث، واستيلاء الله على العرش ليس بأمر حادث، بل لم يزل مالكاً لكلّ شيء؛ ومستولياً على كلّ شيء، فنقول: إنّ ثمَّ لِرَفْع العرش إلى فوق السماوات، وهو مكانه الذي هو فيه، فهو مُسْتَولٍ عليه، ومالك له، فَثُمَّ للرَّفْع لا للإستيلاء، والرفع محدث، قال: ويشبه هذا قوله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ ﴾[٣]، لأنّ حتى تكون لأمر حادث، وعِلْمُ اللّهِ ليس بحادث، وإنّما المعنى، يجاهد المجاهدون ونحن نعلم ذلك، وإنما قال هذا لأنه لم يعرف ما ذكرناه من الوجه الثاني في ثُمَّ.

ومعنى يغشي الليل النهار، أي يغطي ضِيَاءه ونوره، فهو كقوله: ﴿ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ﴾[٤]، وقوله: ﴿ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا ﴾ أي، يطلب الليل النَّهارَ، والحثيث، السريع، وذلك كما قال: ﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ ﴾[٥]، جعل التعاقب كالطلب، وقد مرَّ القول في ذلك مستقصىً.

قوله تعالىٰ: ﴿ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾[٦] أي بإرادته، وانتصب القمر وما بعده بالفعل، وهو خَلَقَ، ومسخراتٍ انتصبت على الحال، أي سُخّرت بالسير والطلوع والغروب، [و] قوله تعالى: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾[٧]، المراد بالخَلْق، المخلوق، وللأمر في اللغة وجوه تجيء، ومعناه، الإرادة؛ والحال؛ ومصدر أمرت، ويختص هنا بالإرادة، [و] على ذلك قوله

---

(١) من غير عزو في الصحاح ولسان العرب/ سوا.
(٢) البيت لأبي نواس كما في ديوانه ص ٤٩٣، وانظر: مغني اللبيب ١/ ١٢٥، وهمع الهوامع ٢/ ١٣١.
(٣) سورة محمد، الآية: ٣١.
(٤) سورة الحج، الآية: ٦١.
(٥) سورة يس، الآية: ٤٠.
(٦ ـ ٧) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾(1)، والمعنى، الأمر كله له، لا شريك معه في شيء، ولا مُعين، ولا وزير، ولا ظهير، وأنّ إرادته هي النافذة، لا تَرْتَدّ؛ ولا تَبُوءُ، ولا تتوقف، ولا تكبو، بل يحصل المراد على الوجه الذي يريده بلا تعب ولا نصب.

قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٥٤﴾(2)، تمجيد وتجليل، وهذا تعليم من الله كيف يُمَجَّدُ، كما أنّ قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢﴾(3)، تعليم كيف يحمد، والعَالمون، الخلائق، وقال بعضهم: هو من العلامة، لأنه بآثار الصنعة فيه يدل على الصانع، فهو كالعلامة له في الأشياء، وقيل: هو من العِلْم، كأنّه عِلْمُ الصانع جرى مجرى قولهم: الخاتم والطابع، لأنه يختم بها الشيء ويطبع، ثم اختير له جمع السلامة لغلبة العقلاء الناطقين، وقوله تعالى من الآية الأخرى: ﴿ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩﴾ بعد قوله: ﴿لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾(4)، تبكيت للمخاطبين وإزراءٌ بهم، وأنّ أمثال كيدهم لا يُعبأ بِها، ولا تأثير لها مع خالق أصناف الأشياء كلها على اختلاف فِطَرِها.

وتلخيص الكلام: أتكفرون بمن هذه آثاره، وتجحدون نعمه عليكم مع ادّعاء شركاء له، ذلك رَبُّ الأرباب، وخالق الأرض والسماوات، وهو لنا ولكم بمرصاد، ومعنى قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾، بيان التكوين، وقوله تعالى: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝١١﴾، بيان حسن الطاعة وسرعة التكوُّن، لكنّه لمّا جعل العبادة مبنيّة على الابتداء، والجواب بالألفاظ المستعادة؛ والأمثال المضروبة، لتمكّنَ في نفوسهم، وتعشش في صدورهم، جَرْياً على عادتهم في أفانين الكلام، وأساليب التصاريف في الاستفهام والإفهام، وإخراجهم ما لا نطق له البتّة في صورة الناطق، حتى صارت أجوبة أسند لــهم(5) إذا واجهوها، وإن كانت من عندهم كأنها من مخاطب، إذ كان اعتبارهم يغني عن الجواب والمجيب، حتى قال بعضهم: إذا وقفتَ على المزارع المرفوضة، والديار الدارسة المتروكة فقل: أينَ من شقّقَ أنهارَكِ، وغَرَسَ أشجارَكِ، وجنى ثمارَكِ، أين مَن بنىٰ دُورَك، وأسس رُبُوعَك، وعَرَشَ سقوفَكِ، فإنّها إن لم تُجبك جواراً، أجابتك اعتباراً، فعلى هذا الذي رتّبنا الكلام صار ظاهر بناء الأمر بالإتيان طوعاً أو كرهاً، إيجاباً لحصول الفعل حتى لا معدل عنه؛ إذا كان وقوع الفعل من الفاعلين لا يقع إلاّ على أحد هذين الوجهين، وهذا كان لمن تدبّر.

فأمّا الطوع والكره، والطائع والمكره، واستعمال الناس لهما فيما يثقل أو

(1) سورة الروم، الآية: ٤.
(2) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.
(3) سورة الفاتحة، الآية: ٢.
(4) سورة فصلت، الآية: ٩.
(5) أسند لــهم: هكذا رسمه في المطبوع، ولم أعرف له وجهاً، وأحسبها أسند لفهمهم.

يخف، ويهون أو يشتد، فظاهر، وقد قال الله تعالى في قصة ابني آدم: ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ ﴾[1] أي سهّلته عليه ودمثته، وأمّا التأنيث في قَالَ لَهَا، وقَالَتَا، فللفظ السماء والأرض، وكونهما في لغتهم مؤنثين، وأمّا جمع السلامة في طَائِعِينَ، فلما أُجري عليهما من خطاب المميَّزين، وقد مضىٰ مثله.

ورُوي في التفسير أنّ ابتداء خَلْقِ الأرض كان في يوم الأحد، واستقام خَلْقُها في الاثنين، وبارك فيها، وجعل فيها رواسي في تتمة أربعة أيام مستويات تامّات للسائلين عنها، ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾. أي عَمَدَ، ففضاهن سبع سماوات في يومين، أي أحكمهما وفرغ منهما، قال الهذلي[2]:

وَعَلَيْهِمَا مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا ... دَاوُدُ أَوْ صَنَعُ السَّوَابِغِ تُبَّعُ

وقيل: اللام في للسَّائِلِينَ تعلّقَ بقوله تعالى: ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا ﴾، والمعنى، قدّر الأقوات لكلّ محتاج إليها سائل لها، والأول أحسن في النظم وأجود، ويجوز أن يكون المراد بقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ﴾، أي قصد لبنائها من غير فصل ولا زمان، ومعنى ﴿ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ ﴾، أي جبالاً ثوابت تمسكها، وهذا كما قال تعالىٰ: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ ﴾[3]، وقوله: سَوَاءً، المنتصب على المصدر، أي استوت سَواءً واستِواءً، ويجوز الرفع على معنى، وهي سواءٌ، أي مستويات، ويجوز الخفض على أن يكون صفة لقوله: ﴿ فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً ﴾، والمعنى، مستويات.

وقوله تعالىٰ: ﴿ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ﴾[4]، المراد بالوحي، الإرادة والتكوين، والمعنى، أَخْرَجَ كُلَّ واحدة من السماوات على اختلافها على ما أراد كونَها عليه، وقدرها من مراده، قال تعالىٰ: ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ﴾[5]، وكما جعل السماوات سبعاً شِداداً، كذلك خلق الأرض سَبْعاً طباقاً، بدلالة قوله تعالىٰ: ﴿ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾[6]، وقوله: ﴿ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ﴾[7] يريد، جعلنا الكواكب زينةً للسماء، وحفظناها من مسترقة السمع، فالمصابيح يستضاء بها في الأرض ليلاً ونهاراً، وقال: وَحِفْظاً، لأنها بالليل رجوم للشياطين[8]،

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣٠.
(٢) هو أبو ذؤيب الهذلي. ينظر ديوان الهذليين ١/ ١٩.
(٣) سورة النبأ، الآية: ٧.
(٤) سورة فصلت، الآية: ١٢.
(٥) سورة الأحزاب، الآية: ٣٨.
(٦) سورة الطلاق، الآية: ١٢.
(٧) سورة فصلت، الآية: ١٢.
(٨) هذا وهم من المرزوقي، لأن الكواكب لا ترمي مسترق السمع، ولا علاقة لها برجم الشيطان، فالذي=

وانتصب بفعل مقدّر، كأنه قال: زُيّنت بمصابيح، وحُفظت حفظاً، ثم ختم القصة بأن قال: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾، نبّه على حكمته فيما فعل وقدرته، وأنه العالِمُ بعواقب الأشياء، حتىٰ تقع وفق إرادته.

ومنه قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾[1]، إلى شُكُوْراً، أراد بالبروج، ٱلحَمَل، والثَّوْرُ إلى الحوت، فٱلفَلَكُ مقسوم بها، وكلّ برج منها ثلاثون قِسْمَاً، ويسمّى الدرج، وإنّما قُسِّمَ الفَلَكُ بهذه القسمة ليكون لكلّ شهر برج منها، لأنّ القمر يجتمع مع الشمس في مدّة هذه الأيام اثنتي عشرة مرة، فجُعلت السنة إثني عشر شهراً، وهي التي تسمّى الشهور القمرية، وجعل الفلك اثني عشر بُرْجاً؛ لأنّ الشمس تدور في هذا الفلك دوراً طبيعياً، فمتىٰ انتقلت من نقطة واحدة بعينها عادت إلى تلك النقطة بعد ثلاث مئة وخمسة وستين يوماً وقريب من ربع يوم، ويستمد فيها فصول السنة التي هي، الربيع والصيف والخريف والشتاء، ولهذه العلّة سمّيت هذه الأيام سنة الشمس.

فلما كانت العرب تراعي القمر ومنازله، وهي ثمانية وعشرون منزلاً في قسمة الأزمان والفصول، والحكم على الأحداث الواقعة في الأحوال والشهور مراعاة عجيبة، ولهم في ذلك من صدق التأمل واستمرار الإصابة؛ ما ليس لسائر الأمم، حتى تستدل منها على الخصب والجدب، ويعتمد منها على ما تبنىٰ أمورهم عليه في الظَّعْن والإقامة، ذكَّرهم الله تعالى بنعمته عليهم فيها، وعلى جميع الخلق، ودعاهم إلى إقامة الشكر عليها ليستحقّوا المزيد، فقال تعالى في موضع آخر: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾﴾[2] الآية، وقوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً﴾[3] الآية، فقوله: تَبَارَكَ، تعليم منه، أي: قولوا: تبارك، والمعنى: دام ذكره، وثبّت بركته عليكم، ويمناً واستدامة الخير ونفعاً.

وأصل البروج في اللغة، الحصون، فاستُعيرت على التشبيه، وقوله تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا﴾، أي الشمس، وقد كُرِّر ذكرُ الأنوار والظُّلمَ في عدة مواضع، ولم يجعل لفظة السراج من بينها إلاّ للشمس، وذلك لشيء حسن، وهو أنّ الضياء والنور والمصباح وما أشبهها من أسماء؛ وما يستضاء به؛ لا يقتضي شيء منها أن يكون في الموصوف به اتّقاد وحِمَى؛ إلاّ للشمس، فنبّه تعالى على ذلك فيه بأن سمّاه سراجاً، ولا يسمّى سِرَاجاً حتى يكون محرقاً، وكشف الله تعالى عن المراد بقوله في موضع آخر: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾﴾[4]، والوهج، ضوء الجمر واتقاده، فلهذا خصّ الشمس بأن وصفت بالسراج، وهذا بيّنٌ.

يرجم مسترق السمع هو الشهاب، وهي خاصية فيه، أما الكواكب، فأنها تنقضّ للمغيب فقط ليس غير.

(١) سورة الفرقان، الآية: ٦١.
(٢) سورة نوح، الآية: ١٥.
(٣) سورة يونس، الآية: ٥.
(٤) سورة النبأ، الآية: ١٣.

قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ خِلۡفَةً لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوۡ أَرَادَ شُكُورًا﴾[1]، أي مختلفة، يجيء هذا خلف هذا، وهذا خلف هذا، ويجوز أن يريد به أنها تجيء وبعضها يخلف بعضاً. لأنّها لا تستقرّ إلاّ بهذا، بل تتابع وتختلف في قصورها، ويكون شاهد هذا الوجه قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾[2]، وانتصاب خلفة يجوز أن يكون على الحال، وقوله: ﴿لِّمَنۡ أَرَادَ﴾، مفعولاً ثانياً لجعل، والمعنى، صيَّر الليل والنهار على اختلافهما لمن أراد تذكّراً أو تَشكّراً، واللام في لِمَنْ تَعَلَّق بِجَعَلَ[3]، ويجوز أن ينتصب خِلْفَةً على أنّه مفعول ثانٍ لجعل، واللام في لِمَنْ تَعَلَّقَ بها حينئذٍ، أي صُيِّرَ خِلْفَةً لهم، ومن أجلهم، والوجه في تفسير خِلْفَةً حينئذٍ أن يكون من الخلافة لا من الاختلاف فاعلمه، وقوله تعالى: ﴿لِّمَنۡ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ﴾، روي عن الحسن فيه أنه قال: مَن فاته عمله من التذكرُ والتّشكُّر، كان له في الليل مستعتب، ومن فاته بالليل كان له في النهار مستعتب.

وتلخيص الآية، من أراد الاستدلال على الله، فتفكَّر في آلائه التي لا تضبط، وتذكَّر أنعمه التي لا تحصىٰ، كانت أوقات الليل والنهار ميسرة له مُهَيَّأة، فليأت منها كيف شاء، وٱلشُّكْرُ، كلّ ما كان طاعة وثناءً على الله، ويكون بالفعل والقول جميعاً، قال تعالىٰ: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾[4]، [و] قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ يَسَّرۡنَا ٱلۡقُرۡءَانَ لِلذِّكۡرِ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ﴿٢٢﴾﴾[5]، ومَن تأمّل هذا التوسيع من الله عليه، حتّى لا وقت من أوقاته إلاّ وله أن ينقطع فيه إلى الله من غير تضييق ولا مدافعة، عَلِمَ أنّ الله تعالى شكور كريم، يقبل الإنابة كيف اتّفقت، فنعمته عند إنعام من شكره مثل نعمته حين يبتديء من صنيعه، فسبحانه من مُنْعِم في كلّ حال.

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾﴾، إلى ﴿لِّلۡمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾﴾[6]، قوله تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾، لم يرد به الأمر بالانطلاق، وإنّما هو مقدّمة يأس من المأمور، وبعث على الأخذ في غيره، على هذا قوله تعالىٰ: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ﴾[7]، وهذا في المعنى كقولهم: طَفِق يفعل كذا، وأقبل يأمرُ بكذا، وقم بنا نفعل، وإن لم يكن ثمّ إقبال وقيام، ويقولون: ذهب يقول في نفسه، وإن لم يكن منه ذهاب، لأنّ المراد ما كان مُهَيّأً لذلك؛ وفي صورته، وعلى هذا قولهم: تعال نفعل كذا، وهَلُمّ نأخذ في كذا.

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٦٢.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩٠.
(٣) في المطبوع: يجعلنا.
(٤) سورة سبأ، الآية: ١٣.
(٥) سورة القمر، الآية: ٢٢.
(٦) سورة المرسلات، الآيات: ٢٩-٣٤.
(٧) سورة ص، الآية: ٦.

قوله تعالىٰ: ﴿ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾، الذي كذّبوا به في الدنيا هو البعث والنُّشور وملائكة الله وكتبه ورُسُله، وشيء من ذلك لم يوجّهوا إليه، إنّما المراد، صيروا إلى ما كنتم تحذرونه وتَخَوّفون له؛ فلا تعبأون به، ولا تنزجرون لمكانه، وهذا تبكيت وتقريع.

قوله تعالىٰ: ﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ ﴾، ذكر أهل التفسير أنه يخرج لسان من النار فيحيط بهم كالسرادق، ثم تنشعب منه ثلاث شعب من الدخان فيظلّهم حتى يفرغ من حسابهم؛ ويُساقون إلى النار، ولا يمنع أن يكون المراد: ﴿ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾ من شدائد عقابه وأليم سخطه، ويكون ٱنطَلِقُوا الثاني شرحاً للأول؛ وكالتفسير له، والمُراد، انطلقوا من العذاب إلى ما يلزمكم لزوم الظلّ؛ ولا روح فيه ولا راحة من الحركة؛ كما كنتم ألفيتموه في الدنيا عند الحرب؛ من لفح الهاجرة ولهب الحرور إلى الظلال الثابتة، بل يرمي بشرر يتطاير، وكأنّها في عظمها جِمَالَاتٌ صُفْرٌ، والجِمَالاتُ، جمع جِمالة، وزيدت التاء توكيداً لتأنيث الجمع، وهذا كما يقال: بحر وبحارة، وذكر وذكارة، وقد قرأ ابن مسعود، جِمالةٌ[1] وقُرِيء، جمالات، وهو أكثر في القراءة وأقوىٰ، ولا تمنع في قراءة ابن مسعود أنّها الطائفة منها، ويراد بالجمالات، الطوائف، وهذا كما يقال: جِمَالٌ وجِمَالاتٌ، قال:

عِنْدَ التَّفَرُّقِ في ٱلْهَيْجَا جِمالَاتِ

ويكون جِمالات وجِمال كحِبال وحِبَالَات، وبُيوت وبُيوتات، للطوائف، وقد قيل: رِجال ورجالة كرجالات في كلامهم، يريدون، ما فسّرت وبيّنت، لأنّ رجال، نهاية الجمع، ورجالة إذا جعلتها للطائفة؛ فهي دونه، ومعنى صُفْرٌ، سود، قال:[2]

هي صُفْرٌ أَلوانُها كالزُّغْبِ

وقد قيل: جعلها صفراً لأنّ لون النار إلى الصفرة، [و] قوله تعالىٰ: ﴿ بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ ﴾، قيل فيه: واحد القصور، والتشبيه بها لعظمها، وقيل: القَصْر بسكون الصاد، جمع قصرة، وهي الغليظ من الشجر، وقُرىء كالقَصَره بفتح الصاد[3]، وهي أعناق الإبل، فأمّا تكرير التشبيه وجعلها أوّلاً كالقصر، وفي الثاني كالجِمَالات، فكأنه أراد بالقصر الجنس، فتحصل الموافقة، لأنّ الجنس كالجمع في الدلالة على الكثرة، أو أراد تشبيه

---

(١) وقرأ بهذه القراءة أيضاً حمزة والكسائي وحفص. ينظر: تفسير البيضاوي ٢/٥٥٨.

(٢) الذي يبدو أنّ هذا الشعر قد تحرف في المطبوع بهذا التحريف الغريب. وهو بيت شعر للأعشىٰ في ديوانه ص ٣٣٥ وروايته:

تلك خيلي منه وتلك ركابي ... هُنَّ صُفرٌ أولادها كالزبيب

(٣) ينظر تفصيله في تفسير البيضاوي ٢/٥٥٨، وقرأ يعقوب جُمالات بالضم، وهي الحبل الغليظ من حبال السفينة، شبهه بها في امتداده والتفافه. وانظر: لسان العرب/ جمل.

الشَّرَرة الواحدة بالقصر، فإذا توالت شَرَراً كثيراً، فهي كالجِمالات، فعلى هذا حصل التشبيه للواحد وللجمع، والله أعلم، وقوله تعالى: ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾، فهو كقولهم: داهيةٌ دهياء، ونهارٌ أنهَرُ، ولَيْلٌ أليَلُ، وليلة ليلاء، يتبعون الشيء بصفة مبنيّة منه، والمراد المبالغة والتأكيد، وقال: ﴿ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾﴾، لأنّها محيطة بأهلها من جميع الجوانب إلاّ القفاء، لأنها لا تُقفّي نفسها، وعلى هذا كلُّ ذي ظلّ إذا تأملته، ويشهد للإحاطة قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾[1]، وقال أيضاً: ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾[2]، وقال بعض أصحاب المعاني في ﴿ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾﴾، المراد أنّه غير ظليل، وأنّه لا يغني من اللهب، وأنّها ترمي بالشرر كالقَصْر، وتحصيل هذا ذي ثلاث صفات.

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾ إلى ﴿ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾[3]، قوله: ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ﴾، يجوز أن يكون قوله: فَلاَ، نَفْياً لشيء قد تقدّم، وتكون الفاء عاطفة له عليه، وابتداء اليمين من قوله: أُقْسِمُ، ويجوز أن تكون لا دخلت مؤكدة نافية، كما جاء في قوله تعالىٰ: ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾[4]، والمعنىٰ، لأن يعلم، وقال بعضهم: لا دخلت لنفي الأَقسام، وقال: لأنَّ الأيمانَ يتكلّفها المتكلّم تأكيداً للأخبار، وإزالةً لما يعترض فيها من التجوّز والتَّسمح، وإذا كان الأمر على هذا فقوله: لا أُقْسِمُ، يجوز أن يراد به أنّ المحلوف له في الظهور وخلوصه من الشكّ أَبْيَنُ وأَوْضَحُ من أن يتكلف إثباته بالأيمان، وعلى هذا يكون قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ﴾ يراد به أنّ الحلف بمواقع النجوم عظيم ممّن أقسم بها، وقوله: ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ﴾، بعث على الفكر في المحلوف فيه، وبما يتضمّنه ممّا يعظم موقعه في الصدور عند تأمّل الأحوال المبهجة للإستدلال.

وقيل: أراد بالنجوم، الأنواء وما يتعلق بها من حاجات النفوس؛ ومن المآرب والهموم؛ على اختلاف المعتقدات فيها، وقيل: بل المراد فِرَق القرآن، لأنّ الله تعالى أنزله نجوماً؛ لِمَا عرفه من مصالح المكلفين والمدعوين إلى الدين، ويكون الشاهد لهذا الوجه قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾، ويكون الطريق فيمن جعلها الأنواء التنبيه على وجوه النِّعم في الأنواء والغُيوث؛ وما به قوام الخلق في متصرفاته، قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ جواب اليمين عند من أثبته يميناً، و ﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾﴾، يجوز أن يريد به اللوح المحفوظ، لأنه أودع التنزيل اللوح؛ ثمّ فَرّق منه نجوماً، ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ

(١) سورة الزمر، الآية: ١٦.
(٢) سورة العنكبوت، الآية: ٥٥.
(٣) سورة الواقعة، الآية: ٧٥.
(٤) سورة الحديد، الآية: ٢٩.

﴿لَدَيْنَا﴾[1]، وذكر الأمّ كما قيل في المجرَّة: أمّ النجوم، وكما قيل: مَكّة أمّ القُرىٰ، ومعنى كريم، أنه خلص من جميع الأدناس، وطهر من الشوائب، يشهد لهذا قوله تعالى في صفة المؤمنين: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾﴾[2]، وهذا كما يقال في صفة الشيء العظيم الخطير: هو مُكرمٌ عَلَيَّ، أي يجلّ موقعه، والمراد بقوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾، الملائكة، إذا جعلت الكتابَ اللوح المحفوظ، والمعنى، لا يصل إليه ولا يقربه غيرهم، وذلك على حسب ما يصرفون فيه عند تنزيله، وإن جعلت الكتاب المكنون ما حكم الله به من قضاياه، وتَعَبَّدَ به عباده من أصناف العبادات، وشاهد هذا قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾[3]، وأنّ حفظَ الشيءِ وصيانتَهُ وكَنَّهُ واحد.

والشاهد في أنّ الكتاب المكنون هو الحكم المفروض، قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾[4]، وقوله تعالىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[5]، فحينئذٍ يكون معنى لاَ يَمَسُّهُ، لا يطلبه، كما قال:

مَسِسْنَـا مِـنَ الآبَـاءِ شَيْئـاً وكُلُّنَـا ... إلَى حَسَبٍ في قَوْمِهِ غَيْرُ وَاضِعِ

وقد حكي أنّ اللَّمْسَ والإلتماسَ والمَسَّ متفقات، والحجة في أنّ اللَّمْسَ مثل الإلتماس قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾[6] الآية، وقول الشاعر:

إلامَ عَلَـــيَّ تبكيـــهِ ... وألمَسُـــه فَـــلاَ أجِـــدُه

فقوله: لا أجده يشهد بأنّ المراد بألمَسّ، الطَّلَب لا غير، وقد أحكمت القول في هذا في شرح الحماسة، وقال بعض النظّار: قوله تعالىٰ: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾، لَفظُهُ لفظ الخبر، والمراد به، النهي، والمعنى، لا يتناولَنَّ المصاحف إلاّ المتطهرون، فليس يجوز للجنب والحائض مسّ المصاحف، تعظيماً لها وإجلالاً.

قوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾، تصديق للنبي ﷺ في جميع ما دعا إليه من الإيمان بالله تعالى، وفي إبطاله دعاواهم[7] وشهاداتهم، في القرآن؛ وسائر العبادات، وارتفع تَنزِيلٌ على أنه صفة لقوله: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾، أو على أنه خبر مبتدأ محذوف.

ومنه قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ﴾، إلى ﴿حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾[8]، ذكر الله

---

(1) سورة الزخرف، الآية: ٤.
(2) سورة الفرقان، الآية: ٧٢.
(3) سورة الحجر، الآية: ٩.
(4) سورة النساء، الآية: ٦٦.
(5) سورة البقرة، الآية: ١٨٣.
(6) سورة الجن، الآية: ٨.
(7) في المطبوع: دعاويهم.
(8) سورة الإسراء، الآية: ٤٢.

تعالى فيما وعظ من قبل قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ﴾[1]، ثم أتبعه بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ﴾ الآية[2]، والإنذار بالتبكيت الشديد، والوعيد المحضّ، إلزاماً للحجّة، وإظهاراً للعناد منهم، وأنه هداهم فلم يهتدوا، وذكّرَهم فلم يعبأوا، إعجاباً برأيهم، وذهاباً عن[3] التدبّر والنظر ليومهم وغدهم، ودنياهم وآخرتهم، ثمّ أخذ عزَّ وجلّ يحاجّهم على لسان نبيِّهم فقال: قل لهؤلاء الذين ضلّوا عن الرشاد وعَمُوا عن الصواب، أنّ الله تعالى لو شركه في ملكه غيره كما تدّعون لفسدت الأحوال، وتقطّعت الوُصُلُ والأسباب، ولَعَلا بعضهم على بعض وكان يطلب كُلٌّ الإقتـارَ وتَسليمَ الأمرِ له، كما قال هو: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[4]، وكان لا ينفع الاستثناء فيما بينهم، وترك الخلاف وإظهار الرِّضاء، لأنّ الاستبداد وطلبه - وإن لم يظهر فعلاً من واحد منهم - فلا مهرب من تجويزه عليهم، وجوازه لن يحصل إلا عن تقدير استضعاف، ومن قُدِّر فيه ضعف، فإنه لا يكون إلَهاً، وهذا بَيِّنٌ.

قوله تعالىٰ: ﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْاْ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾﴾، أي لطلَبوا إلى أخصهم بالملك، وأولاهم بالأمر مُنَازعته ومجاذبته ومساواته ومسامتته[5]، قوله: ﴿ذِى ٱلْعَرْشِ﴾، يجوز أن يريد به ذا السلطان والعزّ، ويجوز أن يريد به ذا السرير الذي حمله في السماء، والملائكة يطوفون حوله، كما أنّ البيت المعمور في السماء الرابعة، وقال بعضهم: أي، العرش، وأنشد قول الشمّاخ[6]:

فأُدْمِجَ دَمْجَ ذِي شَطَنٍ بَعِيْدِ

قال: يريد، أدمج دمج شطن، فزاد ذي، فكذلك قوله: ﴿إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾، يريد إلى العرش، والمعنى، لطلبوا إلى الاستيلاء على العرش والاستواء عليه طريقاً، قال: ومثله لفظ حَيّ، أنشد أبو زيد:

يـا قـرُّ إنّ أبـاك حَـيَّ خُـوَيْلِـدٍ … قَـدْ كُنْـتِ خـائِفَـةً عَلَـى الإحْمَـاقِ

يريد، إنّ أباك خويلد، فزاد قوله حيّ، وقوله: ﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ﴾[7]، بمعنى علا،

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٩.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٤١.
(٣) في المطبوع: عند.
(٤) سورة الأنبياء، الآية: ٢٢.
(٥) في المطبوع: مسامتته.
(٦) ديوانه ص ٢٣٣، وقد تحرفت قافيته في المطبوع، وصوابها بديع، وشطره: أطار عقيقة عنه نسالا.
(٧) في المطبوع: عما يقول الظالمون، والكلام عن سورة الإسراء في تفسير الآيات/ ٤٢ - ٤٤، والآية هي: ﴿سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيرا﴾.

والمعنى: جَلَّ وارتفع عمّا يقول المشركون، أكّده بقوله: ﴿عُلُوًّا﴾، ووصف العلوّ بالكبر مبالغة في التبعيد.

قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾، يريد، ما من شيء إلاّ وبما فيه من أثر الصنعة يدل على قدرة الله تعالى، ويشهد بإلاهيته، ويدعو إلى عبادته، وينفي عنه مشابهة لخلقه، وجميع ما لا يليق بحكمته، ومعنى يُسَبِّحُ بحمده، أي ينزهه، إمّا إعراباً باللسان، أو دلالة بواضح البرهان، وفائدة قوله: يُسَبِّح بِحَمْدِهِ، أي فيما يظهر من حكمته في خَلْق ما خَلَقَ، والإنعام على مَن أنعمَ، حمداً له إذا لم يكن إعداد الشكر في مقابلة النِّعم أكثر من إضافة النِّعم إلى المنعم، فإذا كان الحمد تولية النعمة ربَّها، وإشادة ذكره، ونسبتها إليه، فآثار النِّعَم حامدة شاكرة لِمُسديها، ألا ترى إلى قول القائل(١):

وَلَوْ سَكَتُوا أَثْنَتْ عَلَيْكَ الحَقَائِبُ

فنسبة الثناء إلى الحقائب كنسبة التسبيح بالحمد لله إلى الدالّ عليه والمقيم له، وهذا حسن بالغ.

قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾، أي تجحدونه، أو تعرضون عنه فِعْلَ مَن لا يفهم، وهذا كقوله تعالى يصفهم: ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾(٢) ثم قال: ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾، قوله: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾، يريد، هو حليم حين لم يُعاجلهم فيما أدعوه بالعقوبة، ولكن تركهم إمهالاً ورفقاً، وهو غفور لمن أناب؛ وإن ارتكب كلَّ منكرٍ قبيحٍ، رحمة منه لعباده، وحُسْنَ تَفَضُّل.

ومنه قوله تعالى: ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ إلى ﴿عَلِيمٌ ﴿٣﴾﴾(٣)، أثبت الله لنفسه أنه القادر الغالب، فهو يملك، وجميع ما تدركه الأبصار والأوهام من أصناف العالَم، جليلها ودقيقها، خيرها وشرّها، يتصرّف فيها كما شاءَ واختار، تصرُّف المُلاّك، فهو مَلِكٌ، يبديء ويُعيدُ، ويحيي ويميت، وقد أُقِرَّت له الصعاب، وتذلَّلَت له الرِّقاب، لا يمتنع عليه مراد وإن عزَّ وشقّ، ولا يوجد عنه ذهاب فيما ثَقُل أو خفَّ، إليه آماد الأعمار والأرزاق، ومصارف البقاء والفناء، فهو القادر الحكيم، والعالم الغني، لا يُخْفَىٰ عليه معلوم وإن دَقّ، ولا يعزب عن الظهور له مطلوب وإن رقّ، الأول في الوجود لقدمه لا عن ابتداء مدّة، والآخر بعد فناء كل شيء خلقه في الدنيا لبقائه، لا إلى غاية، لم يزل ولا يزال على ما هو عليه من ديمومته وحكمته، وصواب فعله وقدرته، يُحيي الأموات إذا شاء، ويميت الأحياء

(١) عجز بيت لنصيب كما في البيان والتبين ١/ ٨٣.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧٩.
(٣) سورة الحديد، الآية: ٢.

إذا شاء، ويفني المخلوقات إذا شاء، ويعيدها إذا شاء، الظاهر بما لَهُ من آياته التي لا تخفىٰ، وعِبَره التي لا تفنىٰ، والباطن لأنه لا تدركه الأبصار، ولا تحصِّله الحواس، وهذا أوجه في الآية.

وقيل: أراد بالظاهر أنّه غالب على كلّ شيء بما دَلَّ به على نفسه من أصناف صنعه، كما قال تعالى: ﴿ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ ﴿١٤﴾ ﴾(١)، أي عالين غالبين، ويقال: ظهرتُ علىٰ الجَلِيّ الواضح الذي هو كالجمر، وقيل في الباطن: التي هي في خفائها كالسرّ، فهو بما تجلّىٰ منها ظاهر، وبما خفي منها باطن، وهذه آية لها جوانب تقتضي الكلام عليها، وأنا إنْ شاء الله أبلُغُ الغاية بمقدار فهمي.

إعلم أنّ الله تعالى قال في موضع من كتابه: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾(٢)، ما قال على الموت، لأنّ الموت إنّما تُعدم به الحياة، والله تعالى قال: كلُّ مَنْ عَلَيْهَا، ولَمْ يَقُل: حياة من عليها، وقال بعده: ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾، والميّت جيفة تبقىٰ، وإذا كان كذلك فلا فضيلة في البقاء مع الشركة فيه، وإذا سقطتِ الفضيلة، فلا تمدّح لربّ العالمين، وقال تعالى في موضع آخر: ﴿ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ﴾(٣) وذكر في صفات نفسه: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْـَٔاخِرُ وَٱلظَّـٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾(٤). وكل هذه الآي دالة على أنه تعالى يصير منفرداً بالوجود، كما كان منفرداً به من قبل أن يَخلقَ الخَلْقَ، وأنه تعالى يُغْنِي كلَّ ما خلقه إفناءً لا يبقىٰ له أثر ولا رسم؛ حتى يصير بالفناء في حكم ما لم يُخلق ولم يوجد وقال تعالىٰ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾(٥) وفي آخر: ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾(٦) و ﴿ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ ﴾(٧)، والمعاد، هو وجود على صفة، لا زيادة عليها، وهو أن يتقدّم الوجود للشيء فيبطل، ثم يعاد إلى الذي كان عليه من الوجود، وإذا كان السمع قد أثبت معاداً، وحقيقة المعاد ما ذكرناه من أنّ ما سميناه في الأول إحداثاً ومحدثاً، سميناه وقد بطل واستجدّ الجادة في الثاني معاداً ومستجدّاً، فقد وضح معنى قوله ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ ﴾، والآي التي معها.

فإن قيل: الذي يعرفه أهل اللغة من معنى الفناء، هو نفاد المركب قليلاً قليلاً، كنفاد الزاد والاضمحلال والهزال، وهو تحلل الأجزاء، والاستحالة هو تغير مزاج الشيء، قلت: الفناء بطلان الشَّيء دفعة واحدة، وهو ضد الإنشاء والاختراع، فإذا تجاوزت هذا الموضع، فاستعماله على ضرب من التشبيه به، فقوله تعالى: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ ﴾، يريد أنّ جميع ما

---

(١) سورة الصف، الآية: ١٤.
(٢) سورة الرحمن، الآية: ٢٧.
(٣) سورة القصص، الآية: ٨٨.
(٤) سورة الحديد، الآية: ٣.
(٥) سورة الروم، الآية: ٢٧.
(٦) سورة الأعراف، الآية: ٢٩.
(٧) سورة البروج، الآية: ١٣.

خلقه قبل الوقت الموعود للثواب والعقاب يبطله، بمعنى يُخْزِعُه[1] إذا حصل فَنِيَ به الأجسام والأعراض كلها فناء الضدّ بالضدّ، وليس ذلك المعنى بمقدور للعباد، والبقاء لا يجوز عليه، فإذا أفناهم بعزّته الغالبة بذلك المعنىٰ؛ أعادهم بقدرته الواسعة، كما كانوا قبل الفناء، ولا يصحّ ما أجمع عليه المسلمون من أمر المعاد والفناء إلاّ على ما ذكرناه، وهو اللغة والشرع.

والناظر فيما ذكرناه يُبيِّنَ له معرفة الفناء مثل ما يُبيِّنَ له من معرفة المعاد، وحكمة وضع اللغة، لأنّ الذي ينقطع وجوده بالموت، كالحيّ مِنّا ظاهر التميّز عَمّا لا ينقطع وجوده بالفناء وما أشبهه من الأعراض، وإذا كان كذلك، فإنا نثبته بالسمع كما ثبت جواز كونه وخَلْقُ اللّهِ له بالعقل، ولكلّ معرفة حقيقة إلى الله تعالى كما قال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[2]، ويكون من جملة ما استأثر بعلمه، وإذا أعادَهم حَشَرَهم النظر في أعمالهم في مواقف مختلفة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾[3]، وكما قال تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ﴾[4]، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾﴾ إلى ﴿سَرَابًا ﴿٢٠﴾﴾[5]، فإن سأل سائل عن معنى قوله: ﴿فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾﴾، وعن وجه التشبيه بالسراب. قلت: معنى قوله: أَبْوَابًا، يريد كانت ذات أبواب مفتّحة، وليس المعنى صارت كلها أبواباً، كما أنّ قوله: كانت فراخاً بيوضها، صارت كلّها فراخاً، لأنّها إذا صارت كلّها أبواباً؛ عادت فضاءً، وخرجت من أن تكون أبواباً.

وأمّا التشبيه بالسراب، فالمراد به بيان إلماعها وتخلخلها في نفسها، والسراب هو الذي يتخيَّل للناظر نصف النهار كأنه ماء يطرد، ويقال: سَرب الماء يَسْرُبُ إذا سال، والمراد، ما يتداخل النفس من تغيّر المعهود، وقد أخرج الله تعالى صفة القيامة في معارض مختلفة لاختلاف أحوال المسوّفين، وكرّر ذكرها وحذّر منها، ونبّه من أمرها على كثير مما يكون فيها، ليبيّن فظاعتها، فقال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾﴾ إلى: ﴿يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾﴾[6]، وقال تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ﴾[7] الآية، فتبديل الأرضين والسماوت وإطفاء الضوء، وتفريج السماء، وتحليل عقدها حتى تصير أبواباً، وطمس نجومها، وانتثار كواكبها، ونسف جبالها، كلّ ذلك أو أكثره[8] ممّا يؤكد حال الفناء، وإزالة معقد الأرض والسماء، وقد درّج تعالى في هذه الصفات، لأنه تعالى ردّدها متفنّنة في أوقاتها بين

---

(١) قوله: يخزعه من خزعت الشيء فانخزع، إذا قطعته فانقطع. لسان العرب/ خزع.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.
(٣) سورة الغاشية، الآية: ٢٥.
(٤) سورة إبراهيم، الآية: ٤٧.
(٥) سورة النبأ، الآية: ١٧.
(٦) سورة المرسلات، الآية: ٨.
(٧) سورة إبراهيم، الآية: ٤٨.
(٨) في المطبوع: أكثره.

أوائلها ووسائطها وأواخرها، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦﴾ إلى ﴿بِٱلسَّاهِرَةِ ۝١٤﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾[2]، أي الوعد به صدق، أو يراد به أنه يوم حق لا باطل معه إذا قام الأوّلون والآخرون، ويجتمع متفرق الأسباب؛ ومتمزق الأجلاد، ويعود غائب الأرواح، ويحشر الأفواج، وقد قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ۝٣٤﴾[3]، والطامَّة هي العالية على ما قبلها، وقال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١﴾ إلى ﴿وَأَخَّرَتْ ۝٥﴾[4]، وقال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١﴾ إلى ﴿وَتَخَلَّتْ ۝٤﴾[5]، و ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾[6]، و ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ۝٢﴾[7]، و ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾[8]، وقال تعالىٰ: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۝٤٢﴾[9] إلى آخر السورة، وهذا السؤال والجواب مثل سؤالهم عن الروح، فقوله: ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ۝٤٣ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ۝٤٤﴾[10]، مثل قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[11]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ۝١٢ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ۝١٣﴾[12]، والإبداء إبداعه الخَلْقَ كلَّهُ، لا من شَيء، والإعادة، ما وَعَدَ بِهِ من الإحياء بعد الإماتة، والبعث والحشر، وإعداد الثواب والعقاب.

وحُكي عن الأصمعي أنه قال: إذا قال الرجل: أوّل امرأة أتزوجها فهي طالق، لم يعلم هذا من قوله حتى يحدث بعدها أخرى، فإن ماتت لم تكن أول، لكنه لا تشركها أخرى، قال أبو العباس المبرد: وهذا خطأ، لأنّ قوله: أول هو مُوقع لما بعده، وذلك أن تأتي بعده بما شئت، ولا يكون آخر إلاّ لشيء قبله غيره، وإنما هو مأخوذ من آخر، وقيل: لما كان لا أول له، قال المبرد: ولا يجوز هذا إلاّ في صفة القديم تعالى، فهو الأول والآخر والظاهر والباطن.

وقال الفقهاء: إذا قال الرجل: أول عبد أملكه فهو حُرٌّ؛ فَمَلَكَ عبدين جميعاً معاً، لم يعتق واحداً منهما، وإن ملك بعد ذلك عبداً آخر، لم يعتق أيضاً، لأنه ليس بأول[13]، ولو قال: أول عبد أملكه فهو حُرٌّ؛ فملك عبداً ونصف عبد، عتق العبد ولم يعتق النصف، لأنّ هذا أول عبد ملكه، والنصف لا يسمىٰ عبداً واحداً، ولو قال: آخر امرأة أتزوجها من النساء فهي طالق، فتزوّج امرأة، ثمّ تزوج أخرى، ثم طلّق الأولىٰ، ثم تزوجها، ثمّ مات، فإنّ

(١) سورة النازعات، الآية: ٩.
(٢) سورة النبأ، الآية: ٣٩.
(٣) سورة النازعات، الآية: ٣٤.
(٤) سورة الإنفطار، الآية: ١.
(٥) سورة الانشقاق، الآية: ١ ـ ٤.
(٦ ـ ٧) سورة التكوير، الآيتان ١ و ٢.
(٨) سورة الزلزلة، الآية: ١.
(٩ ـ ١٠) سورة النازعات، الآية: ٤٢.
(١١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.
(١٢) سورة البروج، الآية: ١٢.
(١٣) يصير ثالثاً لامتلاكه عبدين قبله، فهو ليس أول.

الطلاق يقع على الثانية التي تزوجها، وما يقع على التي تزوجها أول مرّة، وليست بآخر[1]، والتزوّج بها ثانياً لا يخرجها من كونها أول امرأة.

ألا ترى أنه لو نظر إلى امرأتين فقال: آخر امرأة أتزوجها منكما فهي طالق، فتزوّج إحداهما، ثمّ تزوّج الأخرى، طُلِّقَت الثانية حين يتزوجها، لأنها آخر امرأة تزوجها منهما، ولو تزوج الأولى بعد الثانية لم تطلّق، وكان المبرد إنّما قال: لا يجوز هذا إلاّ في صفة القديم لمكان الآخر، لأنه لم يزل ولا يزال أوّلاً وآخراً، والواحد منا ليس كذلك فاعلمه.

ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾[2]، وفي موضع آخر: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾ إلى ﴿مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾[3]، وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾. يريد، أدمها وأثبت عليها؛ [تقول] فلان لا يقوم بكذا، وهذا يقوم عَلَيَّ بكذا، فله تصرّف في الأمر واسع، قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾، يحتمل وجهين، أحدهما: أقم الصلاة لتذكرني بها، أي الصلاة ذكرى، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ ١٤﴾، أي، إذا ذكرتني فأقم الصلاة، كأنّه يرجع النسيان، فالذكر[5] في الوجه الأول تسبيح الله وتمجيده بصفاته الكريمة، وفي الوجه الثاني الرجوع إليه بعد ذهول يُسْبَق، ونسيان يلحق، واللام من قوله: لِذِكْرِيْ، أي عند ذكري، وكذلك قوله تعالى: ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ﴾، أي عنده، ولام الإضافة يدخل في الكلام لوجوه:

أ ـ التمليك: كقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[6]، وكقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾[7].

ب ـ أن يكون الشّيءُ سَبَباً لِغَيْرِه وعلة له، مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ﴾[8].

ج ـ أن يكون دخوله لمعنى الإرادة، كقولك: قمتُ لأضربَ زيداً، أي: قمت إرادةَ لضربه، ولكي أضربه، أي قمت من أجل هذه الإرادة، وقد يحذف اللام من هذا وأشباهه.

د ـ أن يكون بمعنى في، كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخۡرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمۡ لِأَوَّلِ

(١) لأنه بعد طلاقها بقيت عنده الثانية فصارت الثانية بحكم تطليق الأولى هي الأولى، فلما تزوّج مطلّقته صارت المطلّقة هي الثانية، فالتي تطلق هي الثانية التي لم تطلق.

(٢) سورة طه، الآية ١٤.

(٣) سورة الإسراء، الآية ٧٩.

(٤) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.

(٥) في المطبوع: كالذكر.

(٦) سورة النجم، الآية: ٣١.

(٧) سورة الجن، الآية: ١٨.

(٨) سورة الإنسان، الآية: ٩.

﴿الْحَشْرِ﴾[١]، أي في أول الحشر.

هـ - أن يكون لمرور الوقت على الشيء، كقول النابغة[٢]:

تَـوَهَّمْـتُ آيَـاتٍ لَهَـا فَعَـرَفْتِهـا   لِسِتَّـةِ أَعْـوامٍ، وذا العَـامُ سَـابِـعُ

أي: عرفتها وقد أتت عليها ستة أعوام، أو توهمتها لذلك، ويقال: أتى للصَّبي سنتان عليه، وكم سنة أتت لك.

و - أن يكون لمعنى بَعْدَ، كقوله ﷺ: «صُومُوا لِرُؤْيَتِهِ»[٣]، وقوله تعالىٰ: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾[٤]، والعدة ها هنا ظرف للطلاق، وبمنزلة وقت له؛ لا علة ولا سبب، كما لم يكن الحشر علة لإخراج الذين كفروا، إنّما كان علة إخراجهم كفرهم، والدليل على ما قلنا إنه قال: لأَوَّلِ الحَشْرِ، جعل له أولاً.

ز - أنه يدخل لما ذكرناه أولاً، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ﴾ و ﴿أَقِمِ الصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾، أي لاصفرارها عند غروبها، دلكت فهي دالك، وقال ابن عباس: لِدُلُوكِ الشَّمْسِ، لزوالها الظهر والعصر[٥]، وأنشد[٦]:

شَـادِخَـةُ الغُـرَّةِ، غـرَّاءُ الضَّحَـكْ   تَبَلُّـجَ الـزَّهْـرَاءِ فِـي جُنْـحِ الـدَّلَـكْ

فجعل الدلك غيبوبة الشمس، وقال أبو حاتم[٧]: روي عن أبي عمرو أنّ دلوكها زوالها، فعلى هذا يجوز أن يكون المفروض بالآية أربع صلوات، الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء بالليل، ويجوز أن يكون: إِلَى غَسَقَ في موضع مَعَ، فيدل على فرض صَلاَتين من الليل والنهار، وثالثة يدل عليها: ﴿وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾﴾[٨].

ثمّ سائر الصلوات، يدل عليها بغير هذه من الآيات، وقوله: ﴿وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ﴾، يريد، وأقم قرآن الفجر، والمعنى، أقم الصلاة بالقراءة، وهذا يدلّ على أنّ الصلاة لا تكون إلاّ بقراءة، فالضمير في به[٩]، يرجع إلى القرآن، ومعنى ﴿كَانَ مَشْهُودًا﴾، أي حقّه أن

---

(١) سورة الحشر، الآية: ٢.

(٢) ديوانه ص ٣٠.

(٣) صحيح مسلم ٢/ ٧٦٠ وما بعدها.

(٤) سورة الطلاق، الآية: ١.

(٥) تنظر مادة/ ذلك في لسان العرب، ففيه قول ابن عباس وغيره.

(٦) البيت لرؤبة بن العجاج، ديوانه ص ١١٧.

(٧) أحسبه السجستاني، العالم اللغوي المعروف.

(٨) سورة الإسراء، الآية: ٧٨.

(٩) يريد قوله تعالى: ﴿ومن الليل فتهجد به﴾.

يُشْهَدَ، أي: يُخرجُ له إلى المساجد، ويقام مع الجماعة فَيُشاهد، وقيل: أراد، تشهده الملائكة، وقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ ﴾، معنى تهجَّدْ، إسهر، يريد، استيقظ، ومعنى به، أي بالقرآن، ويقال: هَجَدَ أيضاً بمعنى نام، [قال لبيد][1]:

قَالَ هَجِّدْنَا فَقَدْ طَالَ السُّرَىٰ وَقَدَرْنَا إِنْ خَنَىٰ الدَّهْرُ غَفَل

يريد، يومنا، ومثل هجد وتهجد قولهم: حنثَ وتَحنَّث، لأنّ معنى حنث، لم يَبَرَّ في اليمين، ومعنى تحنّث، ألقىٰ الحنْثَ عن نفسه، وهذا الأمر اختُصّ به النبيّ ﷺ، تفضيلاً له على جميع الخلق، ومعنى نافلة لك، عطاءً لك وتكرمة، ولذلك أتبعه بقوله تعالى: ﴿ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ﴿٧٩﴾ ﴾، أي، إفعل ذلك رجاء أن تثاب هذا الثواب العظيم.

وقيل في المقام المحمود: إنّ المراد به؛ الشفاعة للمذنبين، والذي عليه الناس، أنّ الدلوك، مغيب الشمس، ويذهب العرب لذلك إلى أنّ قول القائل[2]:

هَـذَا مُقَـامُ قَـدَمَـيْ رَبَـاحِ غُـدْوَةَ حَتَّـىٰ دَلَكَـتْ بَـرَاحِ

يدل على صحة قولهم، وأصله، إنّ السّاقي يُكْتَرَىٰ على أن يسقي إلى غيبوبة الشمس، وهو في آخر النهار يتبصّر هل غابت الشمس؟، قوله براحِ، أي يضع كفه فوق عينيه ويتبصر، قال: ويسلم للحديث ما جاء أنّ ابن عباس قال: إنّ غسق الليل ظُلْمَتُه الأولى، للعشاء والمغرب، فإذا زادت قليلاً، فهي السُّدفة، وقوله: ﴿ نَافِلَةً لَّكَ ﴾ ليست لأحد نافلة إلا للنبي ﷺ، لأنه ليس من أحد لا يخاف ذنوبه غيره، فإنه قد غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، فعمله نافلة.

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ ﴾ إلى ﴿ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[3]، وقوله تعالىٰ: ﴿ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٢﴾ ﴾[4] الآية، طرفا النهار، الفجر والعصر، وكما ثنّىٰ الطّرَفَ هنا، جمع في قوله تعالى: ﴿ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ ﴾ إلى ﴿ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرۡضَىٰ ﴿١٣٠﴾ ﴾[5]، لذلك اختلف الناس، فبعضهم جعله من أوقات الصلوات المفروضة، والقائل بهذا يكون عنده الفجر من النهار، محتجاً بأنه ابتداء الصوم، لقوله تعالى: ﴿ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ ﴾[6]، والذين يخالفونه يجعلونه من الليل، ويدّعون أنّ ابتداء النهار طلوع الشمس، وانتهاءه غروبها، وإذا زالت الشمس انتصف النهار.

فأمّا قوله تعالى: ﴿ وَأَطۡرَافَ ٱلنَّهَارِ ﴾، فيجوز أن يجعل النهار للجنس حتى يصير له

---

(١) ديوانه ص ١٨٢.

(٢) من غير نسبة في أزمنة قطرب ص ٩١. ولسان العرب/ برح، دلك.

(٣) سورة هود، الآية: ١١٤.

(٤) سورة المزمل، الآية: ٢.

(٥) سورة طه، الآية: ١٣٠.

(٦) سورة البقرة، الآية: ١٨٧.

أطرافاً، ويجوز أن يجعل الجميع مستعاراً للتثنية، لأنّ أرباب اللغة قد توسّعوا في ذلك، ألا ترى قوله: يا ناحة ودخيلاً، ثم قال: طرفاً، فتلك لها تنمي[1]: وكقوله تعالى: ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾[2]، وليس بمستنكر أن تسمّى الساعات أطرافاً، كما قيل: أصيلاً لَهُ وعشيات في آخر الأصيل والعشية، قال أبو العباس ثعلب: أطراف النهار، قيل: يعني، صلاة الفجر والظهر والعصر، وهو وجه إن جعل الظهر والعصر من طرف النهار الآخر، ثم يضمّ الفجر إليهما، فيكون أطرافاً، وقال أبو العباس المبرد: معناه أطراف ساعات النهار، أي، من الليل سبحه، وأطِعْه في أطراف ساعات النهار، الآناءُ، الساعات، واحدها أَنْي، ويكون من آنَيْت، أي أخّرت، ومنـ[ـه] قول الشاعر[3]:

وآنَيْـتُ العِشَـاءَ إِلَـىٰ سُهَيْـلٍ ... أوِ الشِّعْـرَىٰ فَطَـالَ بِـيَ الأَنَـاءُ

وقال العجاج[4]:

طـال الأنـا وانتظـر النـاس الغيـر ... مِـن أمـرِهـم على يَـدَيـك والتّـوَر
طـال الأنـا وزايـل الحق الأشـر

وفي القرآن: ﴿غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾[5]، فأمّا قوله تعالىٰ: ﴿وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ﴾، فالزُّلَف، الساعات، ومن أبيات الكتاب[6]:

طـيَّ اللَّيَـالِـي زُلَفَـاً فَـزُلَفَـا ... سَمَـاوَةَ الهِـلاَلِ حَتَّـىٰ احْقَـوْقَفَـا

والزُّلْفَةُ، واحدة الزُّلَف، ويقال: لفلان عندي زُلْفَة وزُلْفَىٰ، وهي القربة، وفي القرآن: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾﴾[7]، أي، قربت، وسُمِّيت المزدلفة، لاقتراب الناس إلى مِنىً بعد الإفاضة من عرفات، وانتصب سماوةَ على المفعول من طيّ الليالي، والمعنى أنّ الليالي طوت شخص الهلال ونقصته شيئاً شيئاً حتى ضمر ودقّ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾، يجوز أن يريد، إنّ الحسنات من أفعال النبيّ ﷺ، والمؤمنين؛ يُبْطِلْن سيّئات الكفّار والمجرمين، وهذا بشارة من الله للمؤمنين بأنه سيعلي كعبهم؛ وينفذ كلمتهم، كما قال: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾[8]، ويجوز أن يكون مثل قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ﴾[9]، ويكون هذا مثل قوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ

---

(١) هذا كلام لم أتبيّن وجهه، ولم أجده في مرجع آخر، وأحسبه جزءاً من بيت شعر.
(٢) سورة التحريم، الآية: ٤.
(٣) هو الحطيئة كما في ديوانه ص ٨٣.
(٤) ديوان العجاج ص ٩.
(٥) سورة الأحزاب، الآية: ٥٣.
(٦) الرجز للعجاج كما في ديوانه ص ٤٩٦.
(٧) سورة الشعراء، الآية: ٩٠.
(٨) سورة الأنبياء، الآية: ١٨.
(٩) سورة النساء، الآية: ٣١.

﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٩﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ۝١١٤﴾[2]، أي أخبرناك بما أخبرنا من ضمان النصرة، وقمع الباطل، وإعلاء كلمة الحقّ، لكي تتذكّر به فتزداد حرصاً على الادّخار والإصلاح، ولأنك إذا أقررت به والتزمته فتذكّرته؛ تيسّر لك المطلوب، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧﴾[3]، يريد، أنّ المأمور بهذا، أو الموعوظ إذا قبِلَه، حصل له[4]، بذلك ذكر في الذاكرين، وهذا ترغيب، لأنّ ما يبقىٰ به الذكر ليس كما يلغىٰ وينسىٰ، قال:

فَقَالَ لَهُ هَلْ تَذْكُرَنَّ مُخَبِّراً ... يَدُلُّ عَلَىٰ غُنْمٍ ويَقْصُرُ مُعْمِلاَ

أي، هل تعتد بهذا الخبر فتذكره به، فأمّا قوله تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝٣﴾[5]، أي من النصف، أو زد عليه، فانتصاب اللَّيْلَ إلاّ قَلِيْلاً، أي، قبله بقليل، أو بعده بقليل، لأنّ بيان أَوْ ٱنْقُصْ مِنْهُ أَوْ زِدْ عليه ذلك، والمعنى، قم نصف الليل، أو انقص من نصفه حتى يرجع إلى الثلث، أو زد على نصفه حتّى يبلغ الثلثين، وفي هذه الأشياء منها، أنه جعل نصف الليل قليلاً منه، سواء جعلته بياناً للقليل المستثنىٰ، أو جعلته بياناً للباقي الواجب، لأنّ الكلام يقوم على الوجهين جميعاً، ومنها، أنّ قوله: أَوْ ٱنْقُصْ مِنْهُ قَلِيْلاً، بمعنىٰ إلاّ قليلاً في التحصيل، ولكنه ذكر مع الزيادة، وكان كالمكرر.

وكثير من أهل النظر يذهبون إلى أنّ القِلّة تقع على ما دون الثلث، لقوله عليه السلام لِسَعْدٍ في الوصيّة: «والثُّلُثُ كَثِيْرٌ»[6]، ومنها أنّ هذا التنويع يدل على أنه تعالى لم يفرضها عليه، لكنه على سبيل الترغيب، لأنّ الفرائض التي يفرضها الله على عباده ليس يجعل الأمر فيها إليهم، فينقصوا ما شاءوا، أو يزيدوا فيها ما شاءوا، وقد قيل: إنّ الله تعالى كان فرض على رسوله وعلى المؤمنين قيام الليل، ثم نسخه، إذ كان شقّ عليهم، فقال تعالىٰ: ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾[7]، أي يعلم مواقيتها، ويعلم أنكم لن تحصوه، أي لن تطيقوا معرفة حقائق ذاك، والقيام فيه فتاب عليكم: ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾، قالوا: وهذا في صدر الإسلام، ثم نُسِخ بالمكتوبات

---

(١) سورة التوبة الآية: ٣٣ وسورة الصف الآية: ٩.
(٢) سورة هود، الآية: ١١٤.
(٣) سورة ق، الآية: ٣٧.
(٤) في المطبوع: لك.
(٥) سورة المزمل، الآيتان: ٢ و٣.
(٦) ضمن حديث طويل في صحيح مسلم ٣/ ١٢٥٣.
(٧) سورة المزمل، الآية: ٢٠.

الخمس، وقوله تعالى: ﴿أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ﴾، يجوز أن يكون من دَنَا الشيء، إذا سفل فنزل، كما قال: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾[1]، أي نزل، ومنه قوله: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾[2]، أي يرسلن، وقال بعضهم: معنى أدْنى، أدْوَن، لكنه قلب، فقدّم اللام[3]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ۝٥﴾[4]، يجوز أن يكون المعنى، قولاً يثقل العمل به، ويجوز أن يريد به، قولاً له وزن، وخطر بين الكلام إذا مُيِّز، أي، ليس بالسفساف الدون، ومعنى يُلقي، يُنزل، فيتلقّنه، ومنه قولهم: ألقيت على فلان مسألة كذا فأعْيَيْتُه، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾[5]، فبعضهم يجعله من هذا، أي لا تَكُ في شكّ من نزول هذا الكتاب قبلك.

وكان شيخنا أبو علي ينكر أن يكون ألقيت من لَقِيت، ويقول: إنّ لقي يتعدّى إلى مفعول واحد، تقول: لقيتُ زيداً، فلو كان ألقيت من لقيت لوجب أن يتعدّى إلى مفعولين، كما أنّه إذا دخل على ما لا يتعدّىٰ إلى المفعول عَدَّاه إلى واحد، تقول: خرج زيد وأخرجته، وذهب زيد وأذهبته، وتقول في المتعدّي: قرأ كذا، وأقرأته أنا كذا، وسمع زيدٌ شرّاً، وأسمعته أنا خيراً، وإذا كان كذلك ووجدنا لقي يتعدّى إلى مفعول واحد، وألقيت مثله يتعدّى إلى مفعولٍ واحد، وعلمنا أنهما من أصلين، فاعلمه.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾[6]، يريد، السّاعة منشأ الحدوث، ويقال: فلان ناشىء، ونشأت السحابة من قِبَل البحر، ويجوز أن يكون ناشئة يراد بها الحدث لا الفاعل، فيكون كاللاغِيَة في قوله تعالى: ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ۝١١﴾[7]، أي لغواً، أو كالكاذبة في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢﴾[8]، أي كذب، ومثل ذلك، قُمْ قائماً، أي قُمْ قِياماً، قوله تعالى: ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾، أي أبلغ في القيام، وأبين في القِراءة، لما في الليل من السكون والقرار، ويجوز أن يريد أنّها أشدّ على الإنسان وأشَقّ، لأنّ الليل للتودّع والراحة، وقُرىء، وُطَاءً، بالواو والمدّ، والمعنى، أشدّ مواطأة للقلب إذا نقله السمع.

ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦﴾ إلى ﴿لَا يَسْجُدُونَ ۩﴾[9]، أوّل السورة، ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١﴾، والانشقاق والانفطار والانفتاح؛ يتقارب في المعنى، وذلك من أهوال

---

(١) سورة النجم، الآية: ٩.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٥٩.
(٣) يريد لام الفعل من حيث الميزان الصرفي، فجذر الكلمة دنىٰ، ودَوَنَ بزنة فَعَلَ، فقدم نون دون فصارت دنا، فالنون في دون هي لام الفعل.
(٤) سورة المزمل، الآية: ٥.
(٥) سورة السجدة، الآية: ٢٣.
(٦) سورة المزمل، الآية: ٦.
(٧) سورة الغاشية، الآية: ١١.
(٨) سورة الواقعة، الآية: ٢.
(٩) سورة الانشقاق، الآية: ١٦ وما بعدها.

القيامة، وما يتغيَّر فيها من الأُمور ويتبدّل، وقيل: المراد انشقّت بالغمام، كقوله تعالى في موضع آخر: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾[1]، وجواب إذا محذوف لما يدلّ عليه ما عُرِف من أهوال القيامة وشدائدها وتخمَّر في النفوس وتقرر، والمراد، إذا انشقت السماء، كان من أشراط القيامة فيكم ما عرفتموه وتكرر عليكم وصفه، وقيل: جوابه في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾[2]، وقيل: جوابه أذنت، والواو زائدة، والنحويون على اختلافهم يردّون هذا، وكأن قائله شبهه بقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا﴾[3]، لأن المعنى عنده، فُتِحَتْ، والأجود عندي أن يكون جوابَ إذا قولهُ تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾، أي في ذلك الوقت يكون حالك، ومعنى أَذِنَتْ لِرَبِّها، أطاعت واستمعت وأجابت، وحُقَّتْ، أي وجب ذلك عليها، وكانت محقوقة بالانشقاق، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣﴾، كأنه بسط مجموعها وأخرج مضمونها وموعدها حتّى تَخَلَّتْ، قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾، عموم دخلت الكافة تحته، وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦﴾، يشير إلى ما قاساه مدّة حياته، واكتسبه في متصرفاته، ونِيْلَ فيه من سعادة وشقوة وحياة وأمانة، وما تزوّده من دنياه وأعدّه لأخراه، أي تسعىٰ سعياً قد أتعبك وتلاقي له كلّ ما قدّمته من عملك، وتصير من حميته إلى ما تستحقه بفعلك، قال[4]:

وَمَا الدَّهْرُ إلاَّ تَارَتَانِ فَمِنْهُمَا ... أَمُوتُ وأُخْرَىٰ أَبْتَغِي العَيْشَ أَكْدَحُ

وقوله: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾، من قولك: لاقيت من كذا جهداً وأذًى، وقاسيت من كذا مكروهاً، والضمير في ملاقيه، إن شئت جعلته للكدح، والأجودُ أن تجعله للربّ، والمعنى، تلاقي جزاءك منه، فيكون على حذف المضاف، والشَّفَقُ، الحمرة تبقىٰ من الشمس في المغرب إلى وقت العشاء، وقال بعضهم: هو البياض الذي إذا ذهب صُلِّيت العشاء الآخرة، لأنّ الحمرة تذهب عند الظلام.

قال الفَرّاء: سمعت بعض العرب يقول: عليه ثوب مصبوغ كأنّه الشفق، وكان أحمر، قوله تعالى: ﴿وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ۝١٧﴾[5]، أي جمع وأدرك من مقتضياته، وهوله، ويجوز أن يكون وسَقَ بمعنىٰ طَرَدَ، يريد، وما جاء به واحتمله، والوسيقة، الطريدة، قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ۝١٨﴾[6]، يريد، اسْتَتَبَّ واستوسق لثلاث عشرة وأربع عشرة، ويجوز أن يريد باتّساقه استمراره في سيره، وتناهيه في ازدياد ضيائه، [قوله تعالىٰ]: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ۝١٩﴾، كما قيل: سادوك كابراً عن كابر، والمعنى، كبيراً عن كبير، أي، يتردّدون

---

(١) سورة الفرقان، الآية: ٢٥.
(٢) سورة الانشقاق، الآية: ٦.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٧١.
(٤) هو تميم بن أبيّ بن مقبل كما في لسان العرب/ كدح.
(٥) سورة الانشقاق، الآية: ١٧.
(٦) سورة الانشقاق، الآية: ١٨.

بعد أحوال مختلفة، ويخرجون من بعضها إلى بعض من نشر وحشر وفناء وإعادة، والطبق، الشدة، قال[1] :

قد طَرَقَتْ بِبِكْرِهَا أُمُّ طَبَق

وقال:

فَلَوْ رَآنِي أَبُو حَسَّانَ وانْحَسَرَتْ عَنِّي الأُمُورُ إِلَىٰ أَمْرٍ لَهُ طَبَقُ
لَقَالَ رَغْبٌ ورَهْبٌ أنتَ بَيْنَهُما حُبُّ الحَيَاةِ وَهَوْلُ المَوْتِ والشَّفَقُ[2]

وفائدة القسم تأكيد الوعيد على المخاطبين بهذا الكلام، وهو قوله تعالى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾﴾، وقُرِىء، لَتَرْكَبَنَّ، جعل الخطاب للنبي ﷺ، والمراد، لَتَرْكَبَنَّ طَبَقاً من طِباق السماء، وقوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾﴾، لفظة استفهام، معناه الإنكار والتبكيت، يقول: ما الذي منعهم من الإيمان وقد وضحت الدلائل والسبل، وتكررت الآيات والنذر، وضاقت المعذرة، وحقّت الكلمة، قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾﴾، إكباراً وإعظاماً وإيماناً وإيقاناً، وهو من المعجزات الباهرة؛ والإلزامات المسكتة، وهل ذهابهم عن تدبّرِه واشتغالهم إلاّ عناد؟! ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾﴾، أصل البشارة من الْبَشَرَةِ، استبشر بشَيء انبسط جلده، ونضر وجهه، وهذا وأمثاله إذا استعملت في غيره، كقوله:

تَحِيَّةَ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ وَجِيعُ

أي يقيمون بدل التحيّة عند اللقاء ذلك، فأمّا قوله تعالىٰ: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾﴾[3]، فإنما معناه سينشَقُّ القمر، ومَن أثبت ذلك دليلاً اختصّ[4] به عبد الله بن مسعود، وأنّ سائر الناس لم يروه لأنّ الله حال بينهم وبين رؤيته بغمامة أو غير ذلك، ويجوز أن يكون غير عبد الله بن مسعود قد رأىٰ ذلك، فاقتصر في نقله على رؤية عبدالله وعلى ما نطق به القرآن من ذكر، وكان الجاحظ ينفيه ويقول: لم يتواتر الخبر به، ويقول أيضاً: لو انشَقّ حتى صار بعضه في جبل أبي قبيس؛ لوجب أن تختلف التقويمات بالزيجات، لأنه قد عُلِمَ سيره في كلّ يوم وليلة، فلو انشَقّ لكان وقت انشقاقه لا يسير[5].

---

(١) الرجز في لسان العرب/ طبق، وقال: لمّا نعي المنصور إلى خلف الأحمر أنشأ يقول البيت ومعه بيتان آخران، وفسر أم طبق بالحية.

(٢) فاتحة البيت في المطبوع، يقال: وقد جعله نثراً.

(٣) سورة القمر، الآية: ١.

(٤) في المطبوع: لاختصّ.

(٥) الذي عليه المفسرون: سينشق القمر يوم القيامة، وقالوا أيضاً: اقتربت الساعة، ومن آيات اقترابها انشقاق القمر. ينظر مثلاً: تفسير البيضاوي ٢/ ٤٤٥.

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ﴾، إلى ﴿وَهُوَ حَسِيرٞ﴾، أول سورة ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾، وليس تَفاعَلَ هذا كتَفَاعَلَ الذي يفيد التكلّف بشيءٍ عن غير موجب له نحو تَخَازَرَ وتَعَارَجَ وَتَسامَوْا وتَجاهَلُوا، لكنه بمعنى فَعَل، وأصل البركة، البقاء والزيادة، وكذلك لفظة تَعَالَىٰ في صفة الله، فهي بمعنىٰ عَلاَ، ومثله علا وتكبر، بمعنى كبر وعلا، وهذا كما يقال: علا قرنه واستعلاه، وقال زهير[1]:

وكانـا امْـرَأيـنِ كُـلُّ أمرِهِمَـا يَعْلُـو

ومثله، قرَّ واستقرّ، وهَزَأ واستهزأ، ويشهد لنا قول امرىء القيس[2]:

تَجَبَّـرَ بَعْـدَ الأكْـلِ فَهْـوَ نَمِيْـصُ

وإنما يصف نبتاً رُعِيَ؛ ثم عاد منه شيء، فتجبَّر بمعنى جبر، من قوله[3]:

قَـدْ جَبَـرَ الدِّيـنَ الإلَـهُ فَجَبَـرْ

وقد كشف عن المراد بقوله: فهو نميص، أي لِقِصَرِه[4]، كأنه يُنْمَصُ بالنماص وهو المنقاش، ومتى جعلت تَجبَّرَ؛ صار كالجبارة، وهي النخلة التي فاتت اليد طولاً، وأوقع آخر الكلام أوّله، لأنّ المنموص لا يتجبّر ولا يطول، وعلى هذا قوله[5]:

تَعَلَّـىٰ النَـدَّىٰ فـي مَتْنِـه وتَحَـدَّرا

يريد، علا وحدر، وأنشد أبو عبيدة: تخاطأتْ أَحْشَاءهُ، معناه، أخطاتْ، فهذا شاهد تبارك وتعالى، ومثل هذا، أَجَابَ واستجاب.

وقوله تعالى: ﴿بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾، أي يملك الملك الذي يُمَكِّنُ عباده منه ويصرفهم، فالبقاء والقدرة والتمكّن والقهر[6] بأمره وحكمه، وإضافة الفعل إلى اليد ضرب من التوسع، يقال: [هـ]ـوفي يدي وملكي، وفي قبضي، وهو قبضي، قال تعالىٰ: ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾[7]، أي يحكم فيها حكماً لا قصور فيه عن المراد، ولا تجاوز إلى أكثر من المرتاد، ففعله وفق إرادته ولِفْق قصده وإرادته، فَخَلَقَ الحياة لمن يريد استبقاءه ليعبده،

(١) عجز بيت وشطره: فَرِحتُ بما خُبِّرتُ عن سَيِّدَيكُمْ. ينظر ديوان زهير ص ١٠٩.
(٢) عجز بيت، وشطره: ويأكلنَ من قَوٍّ لعاعاً وربَّةً. ينظر ديوان امرىء القيس ص ١٨١.
(٣) للعجاج كما في ديوانه ص ٤.
(٤) يريد في قول امرىء القيس: تجبَّر بعد الأكل هو نميص.
(٥) عجز بيت لعمرو بن أحمر ص ٨٤، وشطره: كثور العداب الفرد يضربه الندىٰ.
(٦) في المطبوع: والقمر.
(٧) سورة الزمر، الآية: ٦٧.

والموت إلى غير ما هو عليه؛ إخباراً منه لطاعة المطيع منهم، ومعصية العاصي منهم فيعاقبه، وهو العزيز فلا يفوته الهارب، القدير فلا يعجزه المغالب.

وقوله تعالىٰ: ﴿خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾، أي بعضها فوق بعض فهو[1] يطابقه ويشابهه، ولا يخالفه فيباينه، وقال الشاعر[2]:

إذَا نَـزَلَ الظـلُّ القَصِيـرُ بِنَحْـرِه فَكَـانَ طبـاقَ الخُـفِّ أَوْ قَـلَّ زائـدا

ويقال: طابق فلان فلاناً على كذا، إذا وافقه عليه، ويقال: الناس طبقات، أي فوق بعض، ومنه قولهم: طابَقَ البعير، إذا وضع خُفَّي رجليه في موضع يديه، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾، فقوله: الدنيا، يدل على السماوات تقارباً وتباعداً، وأنّ التي هي فوق هذه ليست بالدنيا منه، قوله: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾، وقُرِىء، من تَفوُّتٍ، أي بنىٰ ما خلقه على حكمه فلا يفوت بعضه بعضاً، ولكنه يتعادل، وفي هذا المعنى قالوا: وجه مقسم إذا كان الحُسْنُ مقسوماً فيه، فأعطى كلَّ جزءٍ نصيبه منه، حتى لا استبداد فيه، وقالوا: ما أحسن قسمة وجهه، وهذا بخلاف ما ذكرناه في تفسير المتفاوت، لأنّ المتفاوت ما يزيد على الاعتدال؛ أو يخرج عن القدر الملائم بالانتقاص، وذلك ضدّ التقدير، وقوله تعالىٰ: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾، المراد به، أيُّها الإنسان، بما أُعطيت من الآلات، ورتُّبَ في عقلك وتحصيلك من البيانات، ما تدرك به حيناً أو تقديراً تراكيب الأشياء، وسلامتها ممّا يشينها، إذ دخولها فيما يجتذب وجوه الفساد إليها، فتأمّل ما صنعه الله واخترعه في هذا الخلق العظيم، واْقتَفِ آثاره فيها، وردّد طرفك وعقلك في ظواهرها وبواطنها ومفرداتها ومركباتها، وتأمَّلْ بعد تقصّي وسعك واستفراغ جهدك، وردَّ المجمل على المفصَّل، والمشاع على المقسوم، هل تجد فيه خللاً؟ أو هل تتبيّن فيه عيباً؟، وقوله تعالىٰ: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا﴾، بعث على الكشف والبحث وتأكيد في المبالغة فيهما، وإنّما قال هذا لما يعتقده العرب من أنّ النظرة الأولى حمقاء فينبغي أن لا يكتفى بها في المزاولات والتتبع في المستكشفات، حتى إنَّ بعضهم قال في صفة امرأة:

لَهَـا النَّظْـرَةُ الأُوْلَـىٰ عَلَيْهِـمْ وَبَسْطَـةٌ وإنْ كُرَّتِ الأَبْصَارُ كانَ لَهَا ٱلعَقْبُ

يقول: لهذه المرأة على من يستقري محاسنها النظرة الأولى، فإن لم يقنعهم ذلك فأخذوا يستنبطون في المعاودة، ويجيلون الطرف في العين والأثر، كان لها البسطة، فإنْ أَبَوا إلاّ أن كرّروا الأبصار وردّدوا النظرة حالاً بعد حال، كان لها العقب، وما يسلم على التعاقب

---

(١) في المطبوع: حده بدل فهو، وما أثبتناه اجتهاداً.

(٢) للأعشى كما في ديوانه ص ٦٧، وقد روىٰ شطره فقط، ووضع المحقق نقاطاً موضع عجزه، وفي شطره روى إذا لاوذ بدل إذا نزل.

من أواخر البحث، فقوله تعالى: ﴿كَرَّتَيْنِ﴾، تأكيداً على ما ذكرناه، وحكى لي عن بعض أهل النظر أنه قال: إنّ الله تعالى أمر بكَرِّ البصر مرّات، لأنه قال: ارجع البصر، ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾، وهذا الذي ذكره وعوّل عليه من ذكر الكرتين لا يحصل له المراد، بل يفسد عليه ما اعتمده، لأنه قال تعالىٰ: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾﴾، وهذا لا يقتضي إلاّ مرَّةً واحدة، وقال من بعد: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾، ولو اقتصر الكلام على فارجع البصر، ولم يأت بذكر المرتين لكان للسامع أن يتجاوز إلى ما فوقها من الكرّات، لأن ثُمَّ لا يقتضي الحصر، ولا يوجب الوقوف، فلما قال: كرّتين علم أنه أكَّدَ به ما ذكر من الرجعتين، على أنّ قوله تعالى: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾، ليس قبله فعل مذكور، فيكون الرجوع عن ذلك الفعل، لأنه قال تعالىٰ: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾، فكان المراد، انظُرْ فأرجعْ، ثمّ ارجعْ، أي لا ترضَ بالنظرة الأولى، ولكن راجع بعدها ثمّ راجع، وإذا كان التكرار هو الرجوع إلى الأول، والأول هنا النظر المضمر، فقوله تعالى: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾﴾، كرر أول إلى النظر المستدل عليه، وقوله: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾، وإذا كان الأمر على هذا، لم تحصل ثلاث كرّات، فلذا أتبع الكلام بقوله كَرَّتَين، وهذا جيّد بالغ، وقوله تعالى: ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾﴾، أي مِنْ شقوق وصدوع، وقوله تعالى: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا﴾، المعنى، أنك إنْ أدمت النظر، واتبعت البصر، تطلبُ العَيْبَ في حكمة الله، والفطورَ في صنعه، رجعت من مطلوبك خاسر الصفقة، صاغر الرجعة، خائب الطلبة، بعيداً من البغية، والخاسىء، من قولك: خَسَأتُ الكلب إذا طردته وبعَدْتَه خَسْأً، ولا تَقُل: انْخَسَأ، والحَسير، الكالّ المعيي، ويقال: إبلٌ حَسْرَى، لأنّ حسيراً فَعِيْلٌ بمعنى مَفْعُول، فهو كجريح وجرحى.

ومنه قوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾[1]، الآية، وقوله: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾﴾[2]، خضراء ملساء، متصلة الجوانب والأكناف، مرتبة الوسائط والأطراف، محفوظة من مسترقة السمع بما أعَدَّ لها من الأرصاد، وتلخيص هذا يبينُ إذا ضُمَّ إلى قوله تعالىٰ: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِٱلغَمَامِ﴾، وإلى قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[3]، لأنّ المعنىٰ يأتيهم أمر الله، والسماء كالوردة، وقد انفطرت بالغمام، أي ينشقّ بها، والملائكة تنزل منها في الغمام، فكأنّها تنشق، وهم في تكاثفهم وتراكمهم بما معهم كظل من الغمام، وهذا كما يقال: رَعَفَ البابُ بفلان، أي جاء من قِبَلِه، وسال الوادي ببني فلان، إذا خرجوا منه؛ وكقول الشاعر[4]:

(١) سورة الرحمٰن، الآية: ٣٧.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٢٥.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢١٠.

(٤) من أبيات تدافعها أكثر من شاعر، ينظر تخريج الأبيات في شعر يزيد ابن الطثرية ص ٦٤.

وَسَالَتْ بِأَعْنَاقِ المَطِيِّ الأَبَاطِحُ

أَلاَ صَرَمَتْ حَبَائِلَنَا الجَنُوبُ ... فَفُرِّقْنَا، ومَالَ بِنَا قَضِيبُ

قضيب، وادٍ باليمامة، والمعنى، أنجدنا لما افترقنا، وأتْهَمَتْ هذه المرأة، ويقال: نزل بقارعة الوادي، أي أعلاه، وقوله: مال بها، كقوله: سالت الأباطح بأعناق المطي. قوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ۝٣٧﴾[1]، يريد تحولها عمّا كانت، والورد الأحمر، وليس بمشبع، قال[2]:

فَهْوَ وَرْدُ اللَّوْنِ فِي أَزْبِئْرَارِهِ ... وكُمَيْتُ اللَّوْنِ مَا لَمْ يَزْبَئِرْ

وقال الفرّاء: شِيَةٌ[3] تلوّن السماء تَلوّن الوردة من الخيل، لأنها تكون في الربيع إلى الصفرة، فإذا اشتدّ البرد كانت وردة حمراء، فإذا كانت بعد ذلك؛ كانت وردة إلى الغبرة، قال عبد بني الحسحاس[4]:

فَلَوْ كُنْتُ وَرْداً أَحْمَراً لَعَشِقْتَنِي ... ولكِنَّ ربِّي شَانَنِي بِسَوَادِيا

وقيل في الدهان: إنّها جلود حمر، وقيل: هي جمع دهن، أي تمور كالدهن صافية، والشاهد لهذا قوله تعالىٰ: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ۝٩﴾[5]، أي تتميّع، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ۝٨﴾[6]، وهو الصفر المذاب، وكأن التشبيه وقع بالذوب، فيكون المور والذوب على طريقة واحدة[7]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ﴾[8]، وقوله تعالى في سورة الرحمن عند ذكر وعيد الكفار والإنذار من يوم الحشر والمعاد، وما يجري مجراه من الاقتصاص، والأمر بالعَدل والإنصاف: ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾، سأل سائل، أي شيء في هذا من الآلاءِ حتى ذكره الله ممتناً به في جملة ما عدده من صنوف النِعَم ووجوه القسم في الأولى والآخرة؟.

والجواب، إنّ الله تعالى منعم في كلّ حال، ومذكّر بما يزيد المتعبّد استبصاراً في

---

(١) سورة الرحمن، الآية: ٣٧.

(٢) هو للمرار بن منقذ الحنظلي كما في لسان العرب/ زبر، وروىٰ معه بيتاً آخر، وقال: الورد هو بين الأحمر والأشقر.

(٣) في المطبوع: الفراشية، تحريف.

(٤) ديوان سحيم ص ٢٦، وفيه ورداً لونه بدل ورداً أحمراً.

(٥) سورة الطور، الآية: ٩.

(٦) سورة المعارج، الآية: ٨.

(٧) لتفصيل أزيد إرجع إلى معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٠١.

(٨) سورة الفرقان، الآية: ٢٢.

الأمر الأَوْلَىٰ، ونفوراً وزهداً في الدنيا، وواعظ بما يكون السامع له أقرب إلى الطاعة فيما يعمله من الاستطاعة، وإذا كان الأمر على هذا، فنِعمَه على خلقه في الإنذار والإعذار، مثل نِعَمه في التبشير والتحذير، إذ كان الصارف عن الشرّ بلطفه مثل الباعث على الخير بفضله، وقد توعد الله جاحدي نعمه والمهملين لآياته ونذره بالخسف والرجف والخزي الثابت، والبعث المفاجىء، والمسخ المرصد، والريح العاصف، والزلازل، والصواعق، بعد أن أمضى بها أو بأكثرها الحكم على من حقت عليه الكلمة، فمن سعد ووعظ بغيره فأجاب حين دعي، وأدرك لما بصر، ونفعته المهلة والإملاء، واستسعد بالإعادة والإبداء، ونبهه ضرب الأمثال والمبالغة في الإبلاغ، ثمّ عرف حال أولئك المستمرين في الضلالة، والذاهبين عن طرق الهداية، ومصائر أحوالهم، فإنه إذا راجع نفسه درى عظم نعم الله عليه فيما وفَّقه؛ أو يسَّرَ أَخْذَه به من العدول عن سلوك مناهجهم، وأوجب على نفسه شكرين: الأول، لاهتدائه، والثاني، لما زاده الله من الاستضاءة بنور الهدى، وقرّبه من التقوى، ألا ترى قوله تعالى حاكياً عن أهل الجنّة وقد استقرّوا في منازلهم منها: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ ﴾(1).

قوله تعالى: ﴿ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ﴾(2) وصف عُقْبىٰ(3) حالهم: ﴿ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾(4)، [و] بيَّن أحوالهم قبل ذلك: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ﴾ إلى ﴿ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾(5)، فعلى هذا الذي بنينا الكلام عليه قدّر الله نِعَمه على الجنّ والإنس في دنياهم وأخراهم، ثمَّ قال: بأيّها تُكَذِّبُونْ؛ وكلّ ما تتصرفون فيه من حياة وممات، ونعمة ونقمة، وتيسير وتعسير، وتقريب وتبعيد، آثار إحساني فيها ناطقة، وإعلام آلائي فيها سُنَّة واضحة، وهذا بمنّ الله ظاهر.

ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ إلى ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾(6)، الخَلْقُ، هو الإحداث على تقدير من غير احتذاء مثال، ولذلك لا يجوز إطلاقه إلاّ في صفة الله تعالى، لأنه لا أحد يجمع(7) أفعاله على ترتيب من غير احتذاء أمثال إلاّ الله، وإنّما جمع السماوات؛ ووحدّ الأرض، لأنّ الأرضين لتشاكلها تشبه الجنس؛ والواحد كالرجل، والماء الذي لا يجوز جمعه إلاّ أن يراد الاختلاف، وليس يجري السماوات مجرى الجنس المتفق، لأنّه دبَّر في كلّ سماء أمرها بالتدبير الذي هو حقها، قوله تعالى: ﴿ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ يجوز أن

---

(1) سورة الأحقاف، الآية: ٤٣.
(2) سورة البقرة، الآية: ٢١٠. وانظر مادة/ قضىٰ في المعجم المفهرس.
(3) في المطبوع: نصف عقبي حالهم.
(4) سورة يونس، الآية: ١٠.
(5) سورة مريم، الآية: ٦٨ وما بعدها.
(6) سورة البقرة، الآية: ٦٤.
(7) في المطبوع: جميع، وقد تكون جمع.

يكون من الخلاف، كالسواد والبياض، لأنّ أحدهما لا يسدّ مَسَدّ الآخر في الأحوال، ويجوز أن يكون من الخلف، لأنّ كلّ واحد منهما يخلف صاحبه على طريق المعاقبة، والنهار في اللغة يفيد الاتساع أيضاً، ويقال: أنهرت العنق إذا وسعته، وذكر الله تعالى هذه الآيات مجموعة؛ معظِّماً شأنها ليصرف بكريم عطفه وحسن نظره أوهام المخاطبين بها إليها وإلى النظر في تراكيبها، وابتداع خلقها مَدْرَجاً إلى الاستدلال بها على خالق لا يشبه الأشياء، ولا يشبهه من جهة أنه لا يقدر على خلق الأجسام إلاّ القديم الذي ليس بجسم ولا عَرَض، إذ جميع ذلك محدث ولا بُدَّ له من محدث لاستحالة التسلسل، فتقديم السماوات والأرضين في الذكر، لأنّها المعظم في المشاهدات والأصل، وما عداها تَبَعٌ لها، ولتكون الحواس إلى تمييزها أسرع، والأذهان إلى مبحثها أَمْيَل، والنفوس في الكشف عن سرائرها أرغب، والعقول عنها أفهم، واختلاف الليل والنهار يدل على عَالِمٍ مدبِّر؛ لأنه متقن في الصنع، محكم في التدبُّر، قريب التحوّل، بعيد التأخر، فهو أبلغ أداءً، وأَبْيَن مأخذاً، وأفصح برهاناً، [قوله تعالىٰ]: ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾، لأنه فِعْلُ منعم عالم بمَا يكون قَبْلَ أن يكون هَيَّأَ الله لمنافع الناس ومن جرى مجراهم، لكي يفكّروا مع كثرة بلواهم بها، ومع تَعَذُّرِ فعل مثلها عليهم منها، وليعلموا بمواقع حاجاتهم، وتيسّر مرافقهم بها، إنّ الله لَهُوَ الحكيم الرؤوف، المحدث لهم، والمنشيء والمصرِّف والمسخرِّ.

فأمّا الماء المُنْزَلُ من السماء، فيدل على الرازق المنعم المبدع لما شاء، لا يعجزه شيء مروم، ولا يَتَكَأَدُه مطلوب، لا يُخطىء تدبيره، ولا يقصر عن الحاجة تقديره، آخر مراده وفق أوله لائق بآخره، وإما إحياء الأرض بعد موتها فتمثيل للحشر والبعث، وتنبيه على أنّه تعالى تتجدد منحه حالاً بعد حال، ووقتاً بعد وقت، ليكون للعائشين بها أهنأ، وفي إظهار القدرة عليها أحكم، ويجوز أن يقال: وصفت الأرض بالحياة لِيَنْشَأَ النبات عنها، كنشوء النتاج عن الحيوان، فقيل: إذا كانت عامرة حيَّة، وإذا كانت هامدة ميتة، ويجوز أن يقال: وصفت بذلك لأنّها تخرج ما تُحيي به النفوس من الثمار والزروع.

قوله: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ﴾، يريد، من جهة السماء[1]، ومن نحو السماء، وفي موضع آخر: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ۝٤٨﴾[2]، يجوز أن يكون بدلاً من الماء، أو

(١) وردت كلمة سماء في القرآن الكريم (١٢٠) مئة وعشرين مرة، وقد توزعت على ثلاث دلالات، فقد وردت بمعنىٰ السماء المظلة، وجاءت بمعنىٰ السحاب كما في هذه الآية الجليلة، ووردت بمعنىٰ المطر كما في قوله تعالى: ﴿يرسل السماء عليكم مدراراً﴾، وقد قمنا بدراسة هذه المسألة في رسالة ماجستير وسمت بعنوان: ألفاظ النوء في اللغة والقرآن الكريم. قدمت إلى كلية التربية للبنات بجامعة تكريت سنة ١٩٩٥ م، فالسماء في هذه الآية الجليلة تعني السحاب، وهو ما عليه المفسرون.

(٢) سورة الفرقان، الآية: ٤٨.

تبييناً له وتفسيراً، أو يكون كالفطور وأمثاله، فلا يدلّ على الكثرة، وإذا جاز ذلك فيه، فليس لأحد من الفقهاء أن يتعلق بظاهر الآية فيقول: إنّ طَهُوْراً فَعُوْلٌ، وهو صفة للماء، فيجب أن يدلّ على الكثرة والمبالغة في الحكم الذي يجب في فَعُول إذا كان صفة، لأن فَعُولاً قد يكون كالفطور، فلا يدلّ على الكثرة، ولأنه قد يجوز أن لا يكون صفة للماء، بل يكون بدلاً وتفسيراً، ويسقط التعلق بظاهر الآية.

وأمّا قوله تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ﴾ فيُسْتَدَلّ به على الإقتدار على ما لا يتأتّىٰ للعباد؛ أنّ مُيَسِّرَهَا لأوان فقرهم إليها، إن شاء جعلها السبب في إهلاكهم بها، فهو مذكِّر واعظ، ومبشِّر قادر، ومعنىٰ تصرّفها، تحوّلها من حال إلى حال، ومن جهة إلى جهة، وكذلك صَرْفُ الدهر تقلُّبُه، وقال الحسنُ: الصَّرْفُ، النافلةُ، والعَدْلُ، الفَرِيضةُ.

قوله تعالى: ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾، أصل البث، التفريق، ثمّ توسّع فيه فقيل: بثّ فيه الشَّرَابَ والسُّمَّ، يريد بالفُلْكِ، السفن؛ إذا أُصعدوا في البحر للتجارات، وما يجري مجراها، ويقع على الواحد والجمع، قال تعالىٰ: ﴿فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾﴾[(١)]، وإذا أُنِّثَ فلأنّه أريد به الجمع، وأصله، الدوران، ومنه: تفلّكت الجارية إذا استدار ثديها، وإنّما استوى الواحد والجمع فيه لأنّ فُعْلاً، وفَعَلاً يشتركان كثيراً، كمثل قولهم: العُرْبُ والعَرَبُ، والعُجْمُ والعَجَمُ، والبُخْلُ والبَخَلُ، فمن قال في أَسَدٍ أُسْد، قال في فُلْكٍ فُلْك، فَجَمَعَه على فُعْل، ومثل هذا قولهم هِجَان، لأنّ فَعِيلاً وفِعَالاً يشتركانِ في الجمع كقولك: قَضِيْبٌ وقُضُبٌ، وكِتَابٌ وكُتُب، فمن قال: كَرِيم وكِرَام، وطَوِيل وطِوَال، يلزمه أن يقول: هَجِين وهِجَان[(٢)]، فإن قال قائل: لم جمعت الليل ولم تجمع النهار، قلت: النهار بمنزلة المصدر، فهو كقولك: الضياء والظلام، فوقع على القليل والكثير والليلة مخرجها مخرج الواحد من الليل، على أنه قد جمع في الشذوذ على نُهُرٍ، قال[(٣)]:

لَـوْلاَ الثَّـرِيـدَانِ هَلَكْنـا بـالضُّمُـرْ ثَـرِيـدُ لَيْـلٍ وثَـرِيـدٌ بـالنُّهُـرْ

وأصل التسخير، التذليل، والمراد أنّ الله يمسكه، وتسكين الأجسام الثقال بغير دعامة ولا علاقة، فعل من لا شبيه له ولا نظير، فهو القادر الذي لا يعجزه مراد، قوله تعالى: ﴿لَأَيَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، يريد أنّ هذه البراهين على التوحيد وبطلان التشبيه يستدلّ بها العقلاء، فيصلون إلى العلم بما يلزمهم، ثمّ العمل بها، ففيه مَدْحُ المفسرين المتأملين، وذَمٌّ لمن سلك غير طريقهم، فأهملوا مع المهملين.

---

(١) سورة يس، الآية: ٤١.

(٢) يعني على القياس.

(٣) من غير عزو في المحكم والمحيط الأعظم، ولسان العرب/ نهر، وكلاهما روى لَمُتْنَا بدل هلكنا.

ومنه قوله تعالى في سورة النمل: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إلى قوله: ﴿بَلْ هُم مِّنْهَا عَمُونَ ۝٦٦﴾[1]، إعلم أنّ هذه الآي تشتمل على فوائد كثيرة، ومسائل جمّة عجيبة، فمنها، بيان الفائدة في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وكيف جعل قُرآناً مَتْلُوّاً، والظاهر أنه من كلام جبريل مخاطباً للنبي ﷺ، عند أداء المنزل إليه، ومنها، كيف مورد قوله: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ﴾، والقصد إلى تبكيت المعاندين وإنذارهم، وجمع الحجة عليهم، وقل إنكارهم بدلالة قوله: ﴿ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٥٩﴾[2]، إلى غير ذلك مما سنبيّنه شيئاً بعد شيء، إنْ شاء الله تعالى، فنقول وبالله التوفيق:

أمّا لفظة: قُلْ، فحيث ما جاء في التنزيل، مبتدأً كان أو متوسطاً، فهو إمارة كونه من كلام الله؛ خطاباً للنبي ﷺ، تبصيراً عند افتتاح القول، وتهذيباً أو إسقاطاً للسؤال يوجهه المعاندون نحوه امتحاناً، فكان النبي ﷺ، ينتظر في مثل هذه الأحوال ما يُلقّنه من وحي، فيدفع به مضرّتهم، أو يبطل به حجتهم، أو يتوصل به إلى تعجيزهم ورد كيدهم في نحورهم، أو يستظهر به داعياً عند طلب السلامة عليهم، ظَهَر الابتداء المعقبِ بقُل، والله يمده بما يعلو به أمره، ويشتد به أزره، فلا يجيء لفظة قُلْ في القرآن إلاّ وهو تلقين للنبي ﷺ، وكموعد ينتظر إنجازه، على هذا قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾[4]، وكقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾[5]، و ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾[6]، و ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾، و ﴿قُلْ أَعُوذُ﴾، وما أشبهها[7]، وأما قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ﴾، فإنَّ القَوْم لما تقرر الكلام عليهم، واستمرارهم في لزوم الجحد، ومباينتهم لنهج الحقّ، جعل الله ابتداء الكلام خطبة على عادة العرب في مقاماتهم، وعند تصرّفهم في منافراتهم، لأنهم يبدأون في مقارضاتهم بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله، يأخذون في مآربهم، ويستقرون في وجه القول مدارجهم، لتكون طرق البيان بها أوسع، وبراهين الموجبات فيها أثبت، فقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، أيْ ابتَدِىء بالثناء على الله فيما آتاك من فضله، واختصك به من كرامته، ثم أَتْبِعْه بالتسليم على إخوانك من الأنبياء الذين اصطفاهم الله كما اصطفاك، وحَمَّلَهم من أعباء

---

(١) سورة النمل، الآية: ٦٦ وما بعدها.

(٢) سورة النمل، الآية: ٥٩.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.

(٤) سورة الأحقاف، الآية: ٩.

(٥) سورة ص، الآية: ٦٥.

(٦) سورة الكافرون، الآية: ١.

(٧) الجدير بالذكر أنّ قُل وردت في التنزيل العزيز (٣٣٢) ثلثمئة واثنين وثلاثين مرة. وهو ما يدل على كثرة ما سئل عنه المصطفى ﷺ وأجاب عنه الله تعالى.

الرسالة مثل ما حملك، ثم سَلْ هؤلاء الذين ينازعونك الأمر، ويُرادُونك فيما تدعو إليه القول، وقُل الله خير أم ما تجعلونه شركاءه، ومثل هذا من الكلام يستعمل مع من حقت عليه الشماتة، ولزمت الحجة، وتبرّأت منه المعذرة، فيُقرَّع لسوء اختياره به، ويرى بُعْدَ ما بين أمريه فيه، ثم أخذ تعالى في إحصاء نعم الله التي تفرّد بإنشائها، يقرِّرهم على ما يضطرون إلى تسليمها، ونقص يد المنازعة فيها من خلق السماء والأرض، وإنزال الغيث الذي تنبت به الحدائق، ويحيي به الموات، ويعيش منه الناس والأنعام، كما قال تعالى في موضع آخر: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[1] الآية، يقول: انظر كيف أنزل الغيث، وكيف أحيَا به الأرض، ثم جعله فيها ينابيع، إلى أن أخرج به المرعى ﴿ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ ﴾[2].

ووجه التقرير بهذا تأنيسهم بما كانوا لا ينكرونه، لأنهم كانوا معترفين بأنّ ما يدعونه من الشركاء لم ينبتوا شجرها، فكيف ما عداها، وأنّ مَثَلَ الشركاء في العجز عنها مثلهم في أنفسهم، لا تَبَايُن ولا تمايز، لتساوي أحوالهم، وتقارب آماد قواهم، فقال: ذَاتَ بَهْجَةٍ، ولم يقل: ذَوَات، لأنّه لمّا كانت الجموع مؤنّثة اكتفىٰ بالتأنيث عن الجمع، ومثله، القرون الأولى، والأسماء الحسنى، قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾، أم فيه لتحوّل الكلام عن حال إلى أخرى، فهي أم المنقطعة لا المعادلة، وفي قوله تعالى: ﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾، هي المعادلة والمفسَّرَة بأي، وفي كلٍّ منهما تبكيت شديد، وتعنيف بليغ، وإن اختلف طريقاهما، لأنّ قوله تعالىٰ: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ﴾ ممتزج بوعيد وتعجيب، وقوله تعالى: ﴿ ءَآللَّهُ خَيْرٌ ﴾، ممتزج بتسخير، ولو قيل: أإلٰهاً، بإضمار فعل جاز، ومثله[3]:

أعَبْداً حَلَّ في شُعَبَى غَريباً   أَلُؤماً لا أباً لَكَ واغْتِرَابا

وقوله تعالى: ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾، حكم بأنّ الكلمة حقَّت عليهم لعبادتهم، ألا ترى أنه تابع بين البراهين الساطعة؛ والإلزامات الدامغة، فأخذ يسألهم عن الأرض ومصيرها، قراراً للخلق، وما في خلالها من الأنهار، وما ثبت بها من الجبال، وعن البحرين والحاجز بينهما، وعن إجابة المضطر، وإغاثة الملهوف من يقيمها، فيقول: من أنشأها وجعلها كذلك، تكرر التفريع، ومثل هذا من القول مع المُصِرّ الجاحد، أبلغ من كلّ وعيد، وواعظ من كلّ نكير، قوله تعالى: ﴿ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾، يجري مجرى الالتفات في كلام البلغاء، لأنّه تعالى بعد تعداد آلائه عليهم وعلى جميع الخلق معهم، وبعد إظهار الآيات

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٢١.

(٢) سورة الأعلىٰ، الآية: ٥.

(٣) لجرير بن عطية كما في ديوانه ٢/ ٦٥٠، وشعبىٰ موضع في جبل طيء.

البيِّنة، وذهابهم عن المناهج المستقيمة وأنهم لا يرجون بالنذر، ولا يرعون للعبر، قال: بلغت المقال في نكوصهم إليهم، ويقبح فيما يؤثرونه من صوابهم لديهم، ﴿قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ﴾، وهو لا يثبت بالقليل شيئاً، وإنّما هو نفي خالص، فكأنه قال: لا تذكرون شيئاً، ويجوز أن يكون انتصاب قليلاً على الظرف، وعلى أن يكون صفة لمصدر محذوف.

قوله تعالىٰ: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾(1)، يريد، مَنْ يُسَيِّرُكم ويُرشِدكم إلى القصد والسمت في تلك الحال، ﴿وَمَن يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾(2)، أي أمام الغيث ناشرة أو مبشرة، فقد قُرِىء: نُشْراً، بالنون، وبُشْراً، بالباء، ومعنى النشر ضدّ الطيّ، أي تفتح الأرض، وتعرج أطباقها للمطر والنبات، كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾(3)، وختم الكلام بإعادة التبكيت، لأنّ هذه المسائل لا أجوبة لها، تعالى الله عمّا يشركون، ثم قال تعالىٰ: ﴿أَمَّن يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾، جعل الخطاب في هذا الفصل، وفي فصلين قبله وهما: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ﴾، و ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، بلفظ المستقبل بعد أن ساق في أول الفصول الكلام على بناء الماضي فقال: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾(4) و ﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾(5)، لأنّ بعض أفعاله تعدم، وحصل محصل المستكمل المفروغ منه، وفعل ما يُساء في خلقه حالاً بعد حال، فهو كالمتّصل الدائم، لذلك خالف الآخر الأول، وقال بعد المسائل التي رتبها معجزاً بها: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ على مقالتكم، واستأنف تعليم النبي ﷺ بما يورده عليهم في إنكارهم البعث، واستعجالهم من النشور بعد الموت لمّا قالوا: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾﴾(6)، فقال تعالىٰ: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾(7)، فما غاب عنكم كيف تحكمون عليه بالبُطلان والامتناع، وقد أستوى المخلوقون في استبهام أمر الساعة عليهم، فلا يشعرون متى يبعثون، ألا تسمع قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ﴾(8)، وإذا كان القيامة من الغيب الذي استأثر الله بعلمه لما تعلق بخفائه من مصالح المكلفين، فالمتكلم فيه من الكفار واقف من مطلوبه موقف الخزي والخيبة، والراجع من مرتاد القيامة يفوت السلامة.

قوله تعالى: ﴿بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾(9)، استهزاءً بهم، جعل علمهم كالثمر

---

(1) و (2) سورة النمل، الآية: ٦٣.
(3) سورة الحجر، الآية: ٢٢.
(4) سورة النمل، الآية: ٦٠.
(5) سورة النمل، الآية: ٦١.
(6) سورة النمل، الآية: ٦٧.
(7) سورة النمل، الآية: ٦٥.
(8) سورة الأعراف، الآية: ١٨٧.
(9) سورة النمل، الآية: ٦٦. رسمت ادّارك في المطبوع: أدرك.

المنتظر يَنْعُه وتكامله، فإذا تمَّ بلوغه قيل: أدرك، وقرىء: ﴿ بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلۡمُهُمۡ ﴾[1]، والمعنى، تَدَارك، وهو أبلغ في المعنى، لأن تَفَاعَلَ بناءٌ لما يحصل شيئاً بعد شيء، على هذا قولهم: تَدَاعىٰ البناء، وتلاحقَ القوم، وما أشبهه، ثم قال مزرياً بهم ومبطلاً لظاهر ما أعطاهم: ﴿ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّنۡهَاۖ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ﴾، فانظر كيف ارتجع منهم ما بذله وعلى أي ترتيب رتّبه، لأنه قال: بَلِ ادّارَكَ عِلْمُهُمْ، بلسان التهكم والهزء، ثم حطهم عن تلك الرتبة فقال: بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها، فضعّف علمهم وإدراكهم بالشبهة العارضة لهم، إذ كان الشكّ لا يحصل إلاّ لعارض شبهة، ثم قال يَجَهِّلُهم ويردُّهم إلى أسوأ منازل المباحث، فقال: ﴿ بَلۡ هُم مِّنۡهَا عَمُونَ ﴾، وقال بعض أصحاب المعاني: بلغني عن ابن عباس أنه قرأ: بَلَىٰ أَدّارَكَ[2]؟ يستفهم ويشدد الدال، وهو وجه جيد، لأنَّه أشبهه بالاستهزاء بأهل الجحد كقولك للرجل بكذبه، والعَمَىٰ المذكور بإنّما هو من الري[3] دون البصر، وهذا بيِّنٌ، والحمد لله.

ومنه قوله تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ إلى ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٣٥ ﴾[4]، أراد بقوله تعالى: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ ﴾، أنّ الآيات الباهرة الدالة عليه؛ وعلى أنه لا نظير له ولا شبيه، وأنّ العبادة لا تحقّ إلاّ له، مبيّنة مضيّقة لعذر من شبه بخلقه، ظاهرة ظهور المصباح الذي وصفه بالمِشْكَاة التي بيَّن أمرها، إذا كان الله تعالى خالق الظلم والأنوار، ثمّ جعل المصباح في زجاجة صافية تشرق إشراق الكوكب المضيء الوقاد، وقد استصبح ذلك السراج بزيت من شجرة زيتون قد بورك فيها، ثابتة على خط استواء لا شرقيّة فيكون حظّها[5] منها العشيات فقط، بل تستوفي قسطها ممّا ينميها ويربيها كلّ وقت، حتى إنّ عصيرها إذا اعتصر يقرب من أن يشرق، وإن لم تمسسه نار، ثم قال: ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ ﴾، يعني، نور المصباح؛ ونور الزجاجة؛ ونور الزيت، يدل على أنّ أسبابه متعاونة في الإضاءة، فكل موادّها نور مفرد، لو اكتُفِي به في الإشراق لأغنىٰ عن غيره، فيقول: إنّ هذه الأنوار المجتمعة المترادفة مَثَل لآيات الله في وضوحها والدلالة على وحدانيته، فلا شبهة تعرض لناظر، ولا مِرْيَة تتسلط على خاطر، فكل من ضَلَّ عَمَّا دُعِيَ إليه، فإنما أُتِي من قِبَل نفسه؛ وسوء تأتّيه، أو مَن هو يجذبها إلى الضلال فيرديه، فإنْ قيل: هل تعرف في نظوم كلامهم مثل هذا التركيب والتلفيق، أو هل تعرف في الأمثال المضروبة لتأكيد القصص والأخبار ما

(١) هذا هو الرسم القرآني، والقراءة التي قُرىء بها هي بل أدرك. والمرزوقي أسس كلامه على إحدى القراآت ولم يؤسس على القراءة التي هي في رسم المصحف وهي أصل.

(٢) قراءة ابن عباس وغيره في معاني القرآن للزجاج ٤/ ١٢٧ ـ ١٢٨، وفيه تفصيل أزيد للآية.

(٣) قول المؤلف: والعمىٰ المذكور بأنما هو من الري دون البصر، أحسبه قد تحرف عن صوابه، وأحسبه إنما هو من الرؤيا.

(٤) سورة النور، الآية: ٣٥.

(٥) في المطبوع: خطّها.

أسس هذا التأسيس، قلت: هم يقولون مثل هذا إذا قصدوا التنبيه على تناهي الشيء وبلوغه أقصىٰ مآخذه، حتى يستغرق أكثر أوصافه، على ذلك قول الأعشىٰ وهو يهوّل أمره ويعظمه فيما قاساه في الغزل، حتى بُلي فيه بما لا مزيد على شأنه، فقال[1]:

عُلِّقْتُهـا عَـرَضـاً، وعُلِّقَـت رَجُـلاً ... غَيْرِي، وعُلِّقَ أُخرَىٰ غَيْرَها الرَّجُلُ
وعُلِّقَتْـهُ فَتَـاةٌ مـا يُحَـاذِرُ لَهـا ... مِنْ قَوْمِهَا مَيِّتٌ يَهْذِي بِهَا وَهِلُ[2]
وعُلِّقَتْنِـي فَتَـاةٌ مـا تُـلائِمُنِـي ... فـاجْتَمَـعَ الحُـبُّ حُبّـاً كُلُّـه تَبِـلُ
فَكُلُّنـا هَـائِـمٌ يَهْـذِي بِصَـاحِبِـهِ ... آبٍ وَدَانٍ وَمَخْبُـولٌ ومُخْتَبَـلُ[3]

فهذا من الباب الذي نحن فيه، وقد فعل الله مثل ذلك فيما ضربه من المثل للكفر والضلال، فقال تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾[4] الآية، فكما ضرب للهدى المثل بالنور على ذلك الحدّ من التأكيد، ضرب للكفر مثله وعلى حَدِّه.

فأمّا قوله: ﴿يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾، فإنه يحتمل وجهين، أحدهما، أن يكون مثل قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾[5] وقوّى بصيرته، ونوّر منهاجه وقصده، ويجوز أن يريد بالنور الذي يهديه له، ما يفعل الله بالمؤمنين من إرشادهم إلى طريق الجنّة، كما قال في صفتهم: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾[6]، ومثل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قوله في صفة النبي ﷺ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا﴾[7] الآية، وهذا واضح بيِّن.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ﴾ إلى ﴿شِهَابًا رَّصَدًا﴾[8]، يقال: لَمَسَ والتَمَسَ، بمعنىٰ طَلَبَ، وحُمِل عليهما المَسُّ أيضاً، فالحجة في الأول قوله[9]:

إلامَ عَلَـــيَّ تَبْكِيـــهِ ... [وألْمَسُـــهُ] فَــلاَ أجِــدُه

يكشف ذلك قوله: فلا أجده، وفَعَلَ وافْتَعَلَ يتصاحبان كثيراً، وأمّا المسّ وخروجه إلى معنى اللَّمس، فقد استشهد له بقوله[10]:

مَسِسْنَـا مِــنَ الآبَـاءِ شَيْئـاً وكُلُّنـا ... إلَىٰ حَسَبٍ فِي قَوْمِهِ غَيْرِ واضعِ

---

(1) ديوانه ص ٥٧.
(2) في الديوان: ما يجادلها بدل ما يخاف له.
(3) في الديوان: مغرم في موضع هائم، وناءٍ في موضع آبٍ.
(4) سورة النور، الآية: ٤٠.
(5) سورة الزمر، الآية: ٢٢.
(6) سورة التحريم، الآية: ٨.
(7) سورة الفتح، الآية: ٨.
(8) سورة الجن، الآية: ٨ وما بعدها.
(9) سبق إنشاد البيت قبل.
(10) سبق إنشاد البيت قبل.

فقيل: المعنى، طلبنا في نسب آبائنا هل فيه ما يقتضي ما أنكرناه من أخلاقهم، لأنّ المسّ بالجارحة لا يتأتّىٰ في الأنساب والأحساب، ثم حُمِل قوله تعالى: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾[1] وقيل، معناه، لا يطلب النظر في أدلة الله المنصوبة في كتابه العزيز للاقتباس من آدابه وحكمه، والاعتبار بأمثاله وحججه إلاّ المطهّرون من دنس الشرك ودغل الكفر، ويكون على هذا التأويل الكلامُ خبراً.

وقيل فيه أيضاً: إنّ المسَّ هو التناول باليد، ويكون على هذا، اللفظ لفظ الخبر، والمعنىٰ معنى النهي، كأنَّه نهىٰ الحائض والجُنُب ومن جرى مجراهما من تناول المصاحف، تنزيهاً لها وتعظيماً لشأنها، والوجهان قريبان، فأمّا الآية فهي إخبار عن الجن المسترقة للسمع، وأنهم كانوا قبل الإسلام يقعدون من السماء مقاعد تقرب الاستماع إلى الملائكة، وتسهله في السماء الدنيا، فكانوا يلتقطون من تجاورهم وتذاكرهم بما يوحىٰ إليهم، امتحاناً لهم، ما يلقونه على ألسن الكهنة، حتى يتصوّروا للناس بصورة من يعلم الغيب، فيؤمنوا بهم، وذلك من الإضلال وفساد الأدلة ما لا خفاء فيه فقالوا: قد كان هذا، فلما بعث النبي ﷺ مُنِعْنا من ذلك بما أرصد لنا من ثواقب النجوم.

وقد اعتقد قوم أنّ انقضاض الكواكب ظهر في الإسلام، لأنها جعلت رجوماً للشياطين فيه، وقد جاء في الشعر القديم تشبيه المسرع من الخيل وغيرها بمنقض الكواكب[2]، فالأقرب في هذا أنه كثر في الإسلام، ومن قبل كان يتفق نادراً، أو يكون جَعْلُها رجوماً إسلامياً، وفيما تقدّم من الزمان لم يكن لذلك من الشأن، فأنه تعالى قال: ﴿ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ﴾[3]، وقوله تعالى لا يبدل ولا يدخلـ[ـه] التسمّح، بل هو الوحي المحقق والخبر المصدَّق.

فإن قيل: من أين لك أنّ الملائكة كان يَرِدُ عليهم الوحي فيتدارسونه بينهم ويُجَاذبونه، حتى توصلت الشياطين منه إلى الاستماع؟ قلت: يدل على مثل ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا ﴾[4] الآية، فتبين أنه قدم إلى الملائكة خبر ما أراده من آدم عليه السلام، وما كان من ذريته في الأرض امتحاناً لهم.

---

(١) سورة الواقعة، الآية: ٧٩.

(٢) أنشد ابن قتيبة قول الشاعر يصف وحشية:

نَفَـذَت كنجـم الأخـذ يرقـد شـأوهـا

والحقيقة إن الكواكب لا تنقض إلاّ للمغيب، وإنّ الذي يرجم الشياطين هو الشهاب حسب. انظر: الأنواء في مواسم العرب ص ٩.

(٣) سورة الملك، الآية: ٥.

(٤) سورة البقرة، الآية: ٣٠.

قوله تعالى: ﴿فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا﴾، يعني الملائكة، فدعاهم حرساً لما كان منهم من منع الشياطين من السمع، والحرس، جمع حارس، ومثله، غائب وغُيَّب، والشهب، جمع شهاب، وهو النار، ولولا فعل الله تعالى ذلك لكان الوحي إلى النبي ﷺ يتخلله الفساد بما يكون من الجن، فله الحمد والشكر على نعمه في كل حال، وسيجيء من الكلام من بَعْدُ فيه ما تزداد به هذه الجملة انشراحاً، إن شاء الله تعالى.

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ﴾[1] الآية، نبّه الله تعالى على عدد الشهور العربية، وهي التي تسمَّىٰ، شهور القمر، وميزان السنة اثنا عشر شهراً، لأنّ القمر يجتمع مع الشمس في مدّة هذه الأيام اثنتي عشرة مرّة، ألا ترى قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾[2]، وكذلك فعلت الفرس بقسمة أيام السنة باثني عشر قسماً، وجعلوا أيّام كلّ شهر ثلاثين يوماً، وزادوا في آخر ماه آبان خمسة أيام سمّوها اللواحق والمسترقة، وسمّوها الكبيسة، وإنما زادوا ذلك لتتم سنة الشمس[3].

وكذلك زادت الروم في أيام شهورهم، وكبست لتكون أيام سنتهم موافقة لأيام سنة الشمس، وهي ثلاث مئة وخمسة وستون يوماً وربع يوم، وذكر بعضهم أنّ العرب كانت تعمل الكبيسة أيضاً لئلاّ تتغيّر أحوال فصول سنتهم، وكان شتاؤهم أبداً في جمادى الأولى وجمادى الآخرة، ويجمد الماء في هذين الشهرين، ولذلك سمّوهما بهذا الاسم، ويكون صيفهم في شهر رمضان وشوال، وسمّوا رمضان بهذا الاسم لشدة الحرّ فيه، ووجدوا أيام السنة القمرية ثلاث مئة وأربعة وخمسين يوماً، وينقص عن أيام السنة الشمسية نحو أحد عشر يوماً، وأحبّوا أن تكون فصول سنتهم على حال واحدة لا تتغير، وكانوا يكبسون في كلّ ثلاث سنين شهراً، ويجعلون سنتهم ثلاثة عشر شهراً، ويسمونها النسيء، إلى أن بُعِث محمد ﷺ، وأنزل الله تعالى هذه الآية: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ﴾[4] الآية، فلم يكبس بعد ذلك، فصار شهر رمضان يتقدم في كلّ سنة نحو أحد عشر يوماً، ويدور على جميع فصول السنة في نحو ثلاثين سنة، ولا يلزم نظاماً واحداً، وهذا الذي حكاه هذا الإنسان يبطله ما ذكره الله تعالى، ورواته[5] نقلة الأخبار، وسأبيّنه من بعد.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٦.

(٢) سورة يونس، الآية: ٥.

(٣) ينظر فصل التقاويم من كتاب التفهيم لأوائل صناعة التنجيم، للبيروني بتحقيقنا بالاشتراك. ففيه تفصيل متزايد لهذه المسألة، وقد وضعها ضمن جداول للتوضيح.

(٤) سورة التوبة، الآية: ٣٧.

(٥) هكذا هو في المطبوع، وأحسبه ورواه نقلة الأخبار.

فقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، فالكتاب ها هنا هو الحكم والإيجاب، ألا ترى قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ﴾(١)، و ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾(٢)، والمعنىٰ، أنّ الواجب عند الله أنّ عدد الشهور على منازل القمر، وأنّ أعياد المسلمين وحَجَّهم وصلواتهم في أعيادهم وغير ذلك تدور، وأنه أجراها على هذا المنهاج ﴿يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، ثم قال تعالى: ﴿مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾، يريد من الأشهُرِ، أي جعل لها حرمة كما جعل البلد الحرام والبيت الحرام، ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾، يريد، دين الإسلام.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ﴾، أي لا تَدَعوا مقاتلة عدوّكم إذا قاتلوكم في هذه الأشهر، فتكونوا معينين على أَنْفُسِكُم وظالمين لها، ويكشف هذا قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ﴾ والمعنى، عن قتالٍ في الشهر [الحرام]، ﴿قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ﴾، وقد تمَّ جواب السؤال، لكن الله تعالى زاد في الكلام ما انشرحت به القصة، وأتى من وراء القصة فقال: ﴿وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ﴾(٣)، فقاتِلوهم فإنكم معذورون، ومعنى قوله تعالى: ﴿كَآفَّةً﴾، جميعاً ومحيطين بهم ومجتمعين، وانتصابه على الحال، ومثل كافة قولهم: قاموا جَمْعَاً(٤)، لا يدخلها الألف واللام، وكذلك، قاموا جميعاً، وقال الزَّجّاج: اشتقَّت من كفَّة الشيء، وهي حَرْفُهُ، وكأنها مأخوذة من كفّ، لأنّ الشيء إذا انتهىٰ إلى ذلك كفّ عن الزيادة، ولا يثنىٰ ولا يجمع، لأنها مصدر في الأصل، كالعاقبة، وقم قائماً، وكقولهم: العامَّة والخاصَّة، ومن هذا قولهم: لقيته كَفَّة كَفَّة، والمعنى، كَفَّة ككَفَّةٍ، أو كفَّة إلى كَفَّةٍ(٥)، قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، ضمان منه؛ يقال لنصرة المؤمنين:

قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾، النَّسْأُ، التأخير، وقال: نَسَأَ الله في أَجَلِهِ، ومنه النَّسِيءُ في تأخير الدَّيْنِ، يقول: فالذي يفعله الكافرون في تقديم الأشهر الحرم على أوقاتها التي جعلها الله لها، وتأخيرها زيادة في كفر الكافرين، واستمرار في ضلالهم، وذهاب عن الواجب عليهم، وإنما كانوا يفعلون ذلك فيحلون الشهر من هذه الشهور في بعض الأعوام، ويحرّمونه في العام الآخر، ليُوافقوا بالتحليل تحريم الله تعالى، فَيُحِلّوا الحرام ويحرّموا الحلال.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٦.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٥٤.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢١٧.
(٤) في المطبوع: قاموا معاً.
(٥) معاني القرآن وإعرابه ٤٤٦/٢، باختلاف بعض الشيء عمّا ها هنا.

قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لَهُمْ سُوٓءُ أَعْمَٰلِهِمْ﴾، أي، استحسنوا من ذلك ما هو سَيِّء، وأتَىٰ بلفظ الخبر عن المفعول، ولا فاعل ثمّ، ومثله قولهم: أعجب بنفسه، وعُني بكذا، وهذا كان من عادتهم، كما كانوا يفعلونه في البَحِيْرَةِ والسَّائبة والوصيلة والحامي، حتى أبطلها الله تعالى بما أنزل فيه[1].

والبحيرة، كانت الناقة إذا نتجت خمسة أبطن، وكان آخرها ذكراً شقّوا أذنها، وامتنعوا من ركوبها ونحرها، ولا تمنع عن ماء وكَلأ، ولا يركبها المُعِيْي إذا لقيها[2].

والسائبة، كان الرجل إذا نذر لقدوم من سفر، أو بُرْءٍ من عِلَّة، يقول: ناقتي سائبة، أو عبدي سائبة، فلا يستعان بعد ذلك به، ولا يحادث عما يريده[3].

والوصيلة، هي الغنم إذا وضعت أنثى كانت لهم، وإن وضعت ذكراً جُعِل لآلهتهم، وإن وَلَدَتْ ذكراً وأنثىٰ قالوا: وصلت أخاها، فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم[4].

والحامي، كانوا إذا نتجت من صلب الفحل عشرة أبطن قالوا: حَمَىٰ ظهره، فلا يحملون عليه، ولا يمنعونه من ماء ومرعىٰ[5].

فصل في بيان النَّسِيء

فيما قاله الناس، نقلة الأخبار والمفسرون

ذكروا، أنه كان قوم من بني كنانة يقال لهم: بنو فُقيم، يتولون ذلك إذا اضطروا إليه عند اتفاق حرب عظيمة، وداعية خطب قوية، يرى في الواجب عليهم الاشتغال في المحرم به، فكان في ذي الحجة إذا اجتمعت العرب لموسمهم يقوم منادٍ فينادي، ألاَ إنّا استَنْسَأنا واستفرضنا، ألاَ إنّ المحرم صَفَر وإن صَفَراً هو المحرم الأكبر، فكانوا يحلون في المحرّم ما كان فيه من قتال وسفك دم واستباحة حريم، ويحرِّمون في صَفَر ما كان مباحاً عندهم، وفي مذهبهم، ليواطئوا العدة، ويبلغوا فيما رأوه من الإرادة، والمواطأة، الموافقة.

وحكى ثعلب أن الكناني كان يقال له: نعيم بن ثعلبة، وكان رئيس الموسم في الجاهلية، فيقوم إذا أرادوا الصدور عن منى فيقول: أنا الذي لا أعاب ولا أخاب، ولا يُرَدّ

---

(١) وذلك قوله تعالىٰ: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ﴾ سورة المائدة، الآية: ١٠٣.

(٢) المُعيي: المنقطع به، وما ها هنا من كلام هو في تهذيب اللغة/ بحر. وقال: وهو أثبت الأقوال.

(٣) قوله: يحادث عما يريده. قال في حاشية المطبوع ص ٨٨ لعله يحاد. وأحسبه هكذا. وانظر لسان العرب/ سيب.

(٤) لسان العرب/ وصل.

(٥) لسان العرب/ حمىٰ.

لي قضاء، فيقولون: صَدَقْتَ، أَنسِئنا شهراً، ويريدون، أخِّر عنّا حرمة المحرّم، واجعلها في صفر، فيفعله، ولهذا ذكر أبو عبيدة معمر بن المثنىٰ أنّ الأشهر الحرم كانت في الجاهلية عشرون من ذي الحجة، ثمّ المحرّم، ثمّ صفر، وشهر ربيع الأول، وعشر من شهر ربيع الآخر، وفي الإسلام هي، ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرّم، ورجب، ثلاثة متناسقة، وواحد منفرد، وكانت العرب تعظم رجباً، وتسميه، منصل الأسنة، ومنصل الأل[1]، لأنهم كانوا ينزعون الأسنّة من الحراب والرماح، توطيناً للنفوس على الكفّ عن المحظور فيه في مذهبهم، ويسمونه أيضاً، شهر الله الأصم، لأنه كان لا يسمع فيه تداعي القبائل ولا قعقعة السلاح.

قالوا: فلما قام الدين لمحمد ﷺ، أنزل الله في النَّسيء ما أنزل، ولتأكيد الأمر فيه ذكره ﷺ في خطبة [حجّة] الوداع فقال: «**إنَّ الزَّمَانَ قَدْ أسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ [الله] السَّمَاوَاتِ والأَرْضَ؛ السَّنَةُ أثْنَا عَشَرَ شَهْراً، مِنهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ، ثَلاَثَةٌ مُتَوالِيَةٌ، ذُو القِعْدَةِ، وذُو الحِجَّةِ، والمحرَّمُ، ورَجَبُ مُضَرْ الذي بين جمادى وشَعْبَان**»[2]، ثم انتسب الناس بعد فراغه مما أرادَ تأكيداً للقول فيه فقال: في أيّ يوم يخطب، ومن أي شهر هو، حتى أجابوه، فأشهدَ اللهَ على ما فعل فقال: «**ألاَ هَلْ بَلَّغْتُ؟ اللَّهُمَّ فَأشْهَدْ**».

فهذا الأمر النَّسيء، ومعنى قوله عليه السلام: «**قَدِ أسْتَدَار كَهَيْئَتِهِ**»، هو أنهم كانوا يحلون المحرّم، ويحرّمون صَفَراً كما ذكرنا، ثم كانوا يحتاجون في سنة أخرى إلى تأخير صفر إلى الشهر الذي بعده كحاجتهم في المحرّم، فيؤخّرون تحريمه إلى ربيع، ثم يمكثون بذلك دَعَةً، ثم يحتاجون إلى مثله، ثم كذلك، وكان يتدافع شَهْراً شهراً، حتى دار التحريم على شهور السنة كلها، وقد رجع المحرّم إلى موضعه الذي وضعه الله به، وذلك بعد دهر متطاول، فكأنّ النبي ﷺ أراد رجعة الأشهر إلى مواضعها وبطل النسيء.

وروي عن مجاهد أنه قال: كان العرب في الجاهلية يحجّون عامين في ذي القعدة، وعامين في ذي الحجة، فلما كانت السنة التي حجَّ فيها أبو بكر رضي الله عنه، كان الحجّ في السنة الثانية من ذي القعدة، وهي حَجَّة قراءة بَرَاءَة، قرأها عليٌّ كرّم الله وجهه على الناس،

---

(١) في المطبوع: منضل بالضاد. وهم. وفي مادة/ نصل من لسان العرب قال: كانوا يسمون رجباً منصل الأسِنَّة، أي مخرج الأسنة من رماحها... ومنصل الأل بفتح الهمزة رجب. قال الأعشىٰ:
تداركه في مُنصَلِ الألِّ بعدما مضىٰ غير دأداءٍ وقد كاد يذهبُ

(٢) تُنْظَرُ الخطبة في البيان والتبيين ١/ ٢٨٨. وقد كنت نشرت بحثاً في مجلة شعب تعرضت فيه لهذه الخطبة وقوله ﷺ: «إنّ الزمان قد استدار من أوله» وأوضحت فيه علمية المسألة، وخلصت فيه إلى أنّ وقوف النبي ﷺ في ذلك اليوم هو اليوم الذي عاد فيه الخلق إلى عهده الأول. ينظر مجلة شعب ـ تصدر في الموصل ـ العدد/ ٣، كانون أول ١٩٧٨، ص ١٢.

ثم حج النبي ﷺ، فلما كانت السنة التي حجَّ فيها النبي ﷺ، عاد الحجّ إلى ذي الحجّة، فذلك قوله: «**إنَّ الزَّمَانَ قَدِ ٱسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ الله السَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضَ**»، ثم قال لمّا فرغ من خطبته: «**أيُّ يَوْمٍ هَذَا؟**» قالوا: يوم حرام، قال: «**أيُّ شَهْرٍ هَذَا؟**» قالوا: شهر حرام، قال: «**أيُّ بَلَدٍ هَذَا؟**» قالوا: بلد حرام، فقال: «**ألاَ إنَّ دِمَاءَكُمْ وأمْوَالَكُمْ وأعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذا، اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟**»، ومراد النبي ﷺ أنه قد ثبت الحجّ في ذي الحجّة على ما كان عليه في أيام إبراهيم عليه السلام، فهذا أيضاً طريقه، والأول أشبه وأشهر، وجميع هذا أو أكثره حكاه أبو عبيد القاسم بن سلاّم أيضاً، وقيل: إنّما قيل: رجب مضر، لأنها كانت تعظِّمه وتحرِّمه، ولم يكن يستحله العرب، إلاّ حيَّان، خثعم وطيء، فإنهما كانا يستحلاّن الشهور، فكان الذين ينسَؤون الشهور أيام الموسم يقولون: حرَّمْنا عليكم القتالَ في هذه الشهور، إلاّ دِمَاء المُحِلِّيْن.

فصل

في تأويل أخبار مروية عن رسول الله ﷺ والصحابة، وبيان ما يحمد ويذم من معتقدات العرب في الأنواء والبوارح

وهذا الفصل لائق بما قدّمناه من التنزيل، فلذلك جعلناه من تمامه، روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**ثَلاَثٌ مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ، الطَّعْنُ في الأَنْسَابِ، والنِّيَاحَة، والاستسقاء بالأنواء**»(١)، فالاستسقاء بها منكر كما قال ﷺ.

إلاّ أنّ العرب مختلفون فيما يراعونه من قسمة الأزمان والفصول، والحكم على الأحداث الواقعة في الأحوال والشهور، ولهم في ذلك من صدق التأمّل واستمرار الإصابة، ما ليس لسائر الأمم، يدل على ذلك أنّ كلّ ما حكموا به قديماً عند طلوع هذه المنازل من تحت شعاع الشمس بالغدوات في ناحية المشرق، وسقوط نظائرها في المغرب من أحوال فصول السنة وأوقات الحرّ والبرد، ومجيء الأمطار والرياح، فإنها تجري على ما حَكَمَتْ به، فلا يتغير ولا يتبدّل إلاّ على طريق الشذوذ، وعلى وجه لا يحصل به الاعتداد، وعلى ذلك فهم مختلفون، فمنهم من اعتقد أنّ تلك الحوادث من أفعال الكواكب، وأنها هي المدبِّرة لها، والآتية بها حتّى صارت كالعلل فيها والأسباب، وأنّ للأزمنة تأثيراً في أهلها، كما أنّ للأمكنة تأثيراً في أهلها، ولذلك أخذ قَرن عن قَرن، الناسُ بزمانهم أشبه منهم بآبائهم.

قالوا: فتصاريف الأزمان تؤثر في الخلق والأخلاق، والصور والألوان، والمتاجر

---

(١) الحديث في أنواء ابن قتيبه ص١٨، ولسان العرب/ نوء، وفي كتاب الإيمان من صحيح مسلم ١/ ٨٢ قال: اثنتان في الناس بهم كفر، الطعن في النسب والنياحة على الميت.

والمكاسب، والهِمَم والمآرب، والدواعي والطبائع، واللِّسْن والبلاغات، والحكم والآداب، فذمّ الله تعالى طرائقهم، ونعىٰ عليهم عقائدهم، وقال حاكياً عنهم: ﴿ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ﴾[1]، وهذا تجهيل من الله تعالى لهم، وذكر بعضهم أنّ الذي يدل على أنّ شأنهم كان تعظيم الرجال، والاستسلام للمنشأ، والذهاب مع العصبية والهوى ما نجد من اعتقاد أكثر أهل البصرة وسوادهم لتقديم عثمان، واعتقاد أهل الكوفة لتعظيم عليّ، ومن اعتقاد أكثر الشاميين لدين بني أمية وحب بني مروان، حتى غلط قوم فزعموا أنّ هذا لا يكون إلاّ من قِبَلِ الطالع، أو من قِبَل التربة، كما نجد لأهل كلّ ماء وهواء نوعاً من المنظرة والرأي والطبيعة واللون واللغة والنشوء والبلدة، ولو كان ذلك كما ظنّوا لما حَسُن الأمر والنهي، ولا كان لإرسال الرسل معنى، ولما جاز الثواب والعقاب، بلى لاستمالة الناس بالترغيب والترهيب، والإصطناع والتقريب، والذهاب مع المألوف شأن عجيب.

وذكر بعض المفسرين وهو عبدالله بن عباس في قوله تعالى: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[2]، أنه القول بالأنواء، وقرأ عليٌّ، (وَتَجعَلُونَ شُكرَكُمْ أنّكمَ تُكَذِّبونَ)، فأمّا قوله تعالىٰ: ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾، فإنّ للإلفِ والعادة سلطاناً على النفوس والقلوب قوياً، وأخذاً بالبصائر والعيون عزيزاً، وكانوا إذا استهجنوا مُستَلْزماً، واستقبحوا مُسْتَحْسَناً، وعَدَلوا عن مألوف إلى متروك، وعن معمول إلى مرفوض، وتنقَّلت بهم الأحوال، وتبدَّلت لهم الأبدال، طلبوا المعاذير والعلل، وصرفوا الفكر في الأسباب والدواعي من جوانب الإلف والعادة، لا من نواحي النظر والتدبر لطلب الإصابة، فرضوا بأن يُعْمِلوا الظنونَ والأوهام، وتحمّلوا تلك الأفاعيل على الأسماء، فضلاً عن الذوات، ثقة بما يشاهدون، واغتراراً بآرائهم فيما يحكمون، لذلك قال النبي ﷺ: **«لاَ تَسُبُّوا الدَّهرَ فإنَّ الله هُوَ الدَّهرُ»**[3]، لأنه رآهم يقولون لذلك الاعتقاد الفاسد: أباد بني فلان الدهر، وأفناهم الليالي، كقول بعضهم:

يـا دَهـرُ قَـدْ أكثـرتَ فَجْعَتَنَـا إذاً … بِسَـراتِنَـا وَوَقَـرْتَ فـي ٱلعَظْـمِ
وسَهلْتَنَـا مـا لَسْـتَ تَعقُبُنَـا بـه … يـا دَهـرُ مـا أنْصَفْـتَ فـي حُكْـمِ

وكقول الآخر:

وإنَّ أَمِيـرَ المُـؤمِنِيـنَ وَفِعْلَـهُ … لَكَالدَّهرِ لاَ عَارٌ بِمَا فَعَلَ الدَّهرُ

ومعنى قوله ﷺ: **«لا تَسُبُّوا الدَّهرَ»**، أي لا تَسُبّوا الذي يفعل هذه الأشياء، فإنكم إذا

---

(١) سورة الجاثية، الآية: ٢٤.

(٢) سورة الواقعة، الآية: ٨٢.

(٣) الحديث في تهذيب اللغة، وصحاح الجوهري، ولسان العرب/ دهر، وفسّره ابن منظور بأنّ ما أصابك من الدهر فالله فاعله ليس الدهر، فإذا شتمتَ الدهر فكأنما أردتَ به الله.

سببتم فاعلها، فإنّما يقع السبّ على الله تعالى، ومنهم من اعتقد أنّ تلك الحوادث من فعله تعالى، لكنه أجرى العادة بأن يفعلها عند طلوع تلك النجوم أو أُفولها، لأنهم مختلفون في ذلك أيضاً، كأنهم يعدّون تلك التغيّرات أوقاتاً لها وإمارات، وسموها الأنواء باتّفاق منهم، لأنّ النوء يكون السقوط والطلوع، وهذا قريب في الدين والعقل، لا إنكار فيه، وعلى هذا يحمل قول عمر للعباس حين استسقىٰ: يا عَمَّ رسول الله؛ كم بقي من نوء الثريّا، فإنّ العلماء بها يزعمون أنّها تعترض[1] في الأفق سبعاً، لأنّ هذا أمر عيان على مجارٍ قائمة، ومسير مركب، وقد جعل الله تعالى في عِلْم هذا وما أشبهه ممّا ضمنه هذا الفلك عِبَراً كثيرة، وآية مبصرة، ودلالة صادقة، عمَّ بجليله أكثر هذا الخلق، وخصّ بلطيفه خصائص منهم، مدحهم حين تبيّنوه، وأقاموا الشكر عليه، فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ أي مضيئة، ﴿لِّتَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾[2] الآية، وقرأ بعضهم مَبْصَرَةً، فيكون مثل قول عنترة[3]:

والكُفْـرُ مَخْبَثَـةٌ لِنَفْسِ المُنْعِـمِ

وإذا وضعت مَفْعَلة في معنى فاعل، كَفَت من الجمع والتأنيث، يقولون: الولد مَجْبَنَةٌ، وهذا العشب مَلْيَنَةٌ مَسْمَنَةٌ، فاْعلَمْه.

وقال في آية أخرى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾[4] الآية، وقد علمنا أنّ خَلْقاً هَلَكوا بتفويض التدبير إلى النجوم، ولإفراطهم في الأنواء، قال رسول الله ﷺ: «[إنَّ الله عزَّ وَجَلَّ يقول:] مَا أَنْعَمْتُ عَلَىٰ عِبَادِيْ مِنْ نِعْمَةٍ إلاَّ أَصْبَحَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ بِهَا كَافِرِيْنَ، يَقُوْلُوْنَ: مُطِرْنَا بنَوْءِ كَذَا، فَأَمَّا مَنْ آمَنَ بي وَحَمَدَنِي عَلَىٰ سُقْيَايَ، فَذَلِكَ الَّذِيْ آمَنَ بِي وكَفَرَ بالكواكِبِ». وروي عنه أيضاً من وجه آخر: «لَوْ أَنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ حَبَسَ المَطَرَ عَنِ النَّاسِ سَبْعَ سِنِيْنَ ثُمَّ أَرْسَلَهُ؛ لأَصْبَحَتْ طَائِفَةٌ بِهِ كَافِرِيْنَ يَقُوْلُوْنَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ المِجْدَحِ»[5]، ومما يدل على ذلك قول الشاعر[6]:

---

(١) في المطبوع: تعرض، والرواية أنه استسقىٰ بالمصلّىٰ، ثم نادىٰ العباس كم بقي من نوء الثريا. لسان العرب/ نوء.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٢.

(٣) من معلّقته: ينظر: شرح القصائد التسع لابن النحاس ٢/ ٥٢٣ وهو عجز بيت شطره:

نُبِّئْتُ عمـراً غيـر شاكـر نعمتـي

وانظر ديوانه ص ١٥.

(٤) سورة الأنعام، الآية: ٩٧.

(٥) صحيح مسلم ١/ ٨٣، ورواهما أحمد في مسنده ٣/ ٧.

(٦) هو الراعي النميري، ينظر: شعره ص ١١٠.

بأسْحَمَ مِنْ نَتَجِ الذِّراعَيْنِ أَثْأَقَتْ مَسَايِلُهُ حتّىٰ بَلَغْنَ المَنَاجِيَا

المناجاة: المكان المرتفع، لا يبلغه السيل، وقال آخر(١):

وأخْلَفَ نَوءُ المِرْزَمِ الأَرْضَ قَرَّةً لَهَا شِيَمٌ فِيهِ شَفِيفٌ وجالِدُ

وقال آخر(٢):

تَرَبَّعَ مِنْ جَنْبَيْ قَناً فَعَوارِضٍ نِتَاجَ الثُّرَيَّا نَوْؤُهَا غَيْرُ مِجْدَحِ

ولو كان مرادهم بقوله: مطرنا بنوئه كذا، أي مطرنا في نوئه على التشبيه بقول الناس: مطرنا في غرّة الشهر لم يكن مكروهاً، وكذلك مذهبهم في تأمّل الغيث، أن لو كان على نحو توقع الناس إيّاهُ للأوقات المعروفة بالمطر، لم يكن به بأس، لأنّ الناس جميعاً يعلمون أنّ للحرّ والبرد؛ والمطر والريح من السنة وقتاً جرت العادة بتقدير الله تعالى أن يكون فيه أكثر ما يكون، وإن كان الله تعالى يأتي به إذا شاء، لولا ذلك ما عرفوا وقت حرث ولا بذر، ولا ركوب بحر، ولا برد، ولا انتُظِر حين لِمَجيء شيءٍ، ولا لانصراف شيءٍ، ولكانوا ومن يعاملهم كذلك في أجهل الجهل، فممّا هو ظاهر في زوال المكروه عنه قولهم: إذَا طَلَعَتِ الشِّعْرَىٰ سَفَراً؛ ولم يَرَوا مطراً فَلا تَغْذُوَنَّ إِمَّرَةً ولا إِمَّرَا(٣)، لأنهم وجدوا ذلك مستمراً في العادة، ومنه قول الشاعر(٤):

إِذَا مَا قَارَنَ القَمَرُ الثُّرَيَّا لِخَامِسَةٍ فَقَدْ ذَهَبَ الشِّتَاءُ

لأنّ مقارنة الثريا [للقمر] في ليلة الخامسة من مهلّه لا يكون أبداً إلاّ في قبل الدفاء، وكقول الآخر(٥):

إِذَا كَبَدَ النَّجْمُ السَّمَاءَ بِشَتْوَةٍ عَلَىٰ حِيْنَ هَرَّ الكَلْبُ والثلجُ خاشِفُ

لأنّ موافاته كبد السماء في أول الليل يكون في صبّارة الشتاء، ومما يكون على العكس من هذا في موافقة المكروه قول الآخر(٦):

هَنَأْنَاهُمُ حتّىٰ أَعَانَ عَلَيْهِمُ عَوَافِي السِّمَاكِ ذِي السِّجَالِ السَّوَاجِمِ

---

(١) من غير عزو في انواء ابن قتيبة ص ٥٣.

(٢) هو الشماخ بن ضرار الغطفاني. كما في أنواء ابن قتيبة ص ١٩.

(٣) تجد هذا السجع في أنواء ابن قتيبة ص ٥٣، والمخصص ٩/ ١٥، وعجائب المخلوقات ص ٣٠، واختلف السجع بعض الشيء في الأزمنة وتلبية الجاهلية ص ١٠٥، وقد شرح السجع في هذه المصادر.

(٤) من غير عزو في أنواء ابن قتيبة ص ٩١، ولأسيد بن الحلاحل في لسان العرب/ عدد.

(٥) للقطامي كما في أنواء ابن قتيبة ص ٣٢، ورواية المطبوع فيه خاسف.

(٦) بلا عزو وفي أنواء ابن قتيبة ص ٦٨، وروىٰ في عجزه: سوافي السماك، والسلاح بدل السجال.

قال أبو حنيفة الدينوري: هذا الشعر لجاهلي، وأتبع أثره بعض الإسلاميين، فقال:

هَنَأناهُمُ حَتَّىٰ أعانَ عَلَيْهِمُ مِنَ الدَّلْوِ أو عَوَّا السِّماكِ سِجَالُها

قال: وهنؤ القوم أن يكفِهم مؤونة، وقد يجيء من كلامهم ما يغمض، فيرد بالتأويل إلى كل واحد من الناس، وللقائلين بالأحكام في النجوم مضاهاة للقوم في إثباتهم السعد والنَّحس بمقتضيات الكواكب، إلاّ مَن عصمه الله تعالى، ولله الأمر والحكم، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا رادّ لأمره، ولا مناص من قضائه.

وقد رُوي عنه ﷺ: «مَنْ تَعَلَّمَ باباً مِنَ النُّجُوم تعلّمَ باباً مِنَ السِّحْرِ، ومَنْ زادَ ٱسْتَزَاد»، كما روي عنه ﷺ في بعض خُطَبه أنّه قال: «مَا بَالُ أقْوام يَقُولُونَ إنَّ كُسُوْفَ هَذِه الشَّمْسِ وخُسُوْفَ هَذَا القَمَرِ وزَوَالَ هَذِه النُّجوم عَنْ مَطَالِعِهَا لِمَوْتِ رِجَالٍ؟ قد كَذَبُوا»[1]، الزوال والزولان بمعنى، وهذا يمكن حمله على قوله: «إنَّ مِنَ البيَانِ لَسِحْرَاً»، فيكون الكلام مدحاً لهذا العلم وللمشتغلين به إذا تبرّأوا من الحول والقوة، وممّا يدخلهم في الإشراك بالله والتسليم إلى الكوكب.

وقال ابن عباس لعكرمة مولاه: أخرج فانظر كم مضى من الليل، فقال: إني لا أبصِر النجوم، فقال له ابن عباس: نحن نتحدّى بك فتيان العرب، وأنت لا تعرف النجوم! قال: وددت أني أعرف هفت ودُوَازدَه، يريد النجوم السبعة السيّارة والبروج الإثني عشر، وقال معاوية لدغفل بن حنظلة؛ العلاّمة وقد ضمه إلى يزيد: علِّمه العربية والأنساب والنجوم، أترى هؤلاء حضّوا على الضلالة؛ ورغبوا في السفاهة، فتأمّل ما ذكرته فإنّه واضح.

فإن قيل: إذا كان القول في قضايا النجوم على ما ذكرته، فما وجه قول إبراهيم عليه السلام مخاطباً لقومه وهم يعبدون الأصنام لتقرّبهم إلى الله زلفىٰ: ﴿ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْاْ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾[2]، قلت: قد تكلم الناس في هذا، فقال بعضهم: النجوم جمع نَجْم، وهو ما نجم من كلامهم لمّا سألوه أنْ يخرج معهم إلى عيدهم، ونَظَرَ نَظْرَةً معناه، تفكّر ليدبّر حجّة، فقال: إنّي سَقِيمٌ، يريد، سقيم من كفرهم، وإيمانهم بغيره، وهذا كما يقال: أنا مريض القلب من كذا، وإنّما تخلف عنهم لما أضمر من كيد أصنامهم، لأنّ حجته عليهم في تعطيل عيدهم، فلما غابت عيونهم جعلها جذاذاً.

وسئل ابن الأعرابي عن معنى قوله تعالى: ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴾[3]،

---

(١) ينظر: لسان العرب/ خسف.

(٢) سورة الصافات، الآية: ٨٧ ـ ٩٠.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٦٠.

فقال: معنى يذكرهم، يعيبهم[1]، وأنشد[2]:

لا تَـذْكُـرِي فَـرَسِـي وَمَـا أَطْعَمْتُـه   فَيَكُونُ جِلْدُكِ مِثْلَ جِلْدِ الأَجْرَبِ

قال أبو إسحق الزَّجّاج: قال ذلك لقومه وقد رأى نجماً فقال: إنِّي سَقيمٌ، يوهمهم أن به الطاعون، فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِيْنَ، فراراً من أن يُعديهم[3] الطاعون، وإنّما قال: سقيم، لأنَّ كلّ أحَدٍ وإن كان معافى لا بدَّ له من أن يسقم ويموت، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾[4]، أي أنك ستموت فيما تستقبل فكذلك إنّي سقيم، أي سأسقَمُ لا محالة، وروي في الحديث: «لَمْ يَكْذِبْ إبْرَاهِيْمُ عَلَيْهِ السلامُ قَطّ إلاّ في ثلاث»، وأنَّ هذه الثلاث وقعت فيها معارضة، وذلك قوله: ﴿بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا﴾[5] على معنىٰ، إنْ كَانُوْا يَنْطِقُوْنَ، فقد فعله كبيرهم، وقوله في سارة: هي أختي في الإسلام، وقوله: إنِّي سَقِيْمٌ، على ما فسَّرناه.

وقال أبو مسلم: عطف بالفاء هذا الكلام على ما تقدّم من أمره في مخاطبة قومه بقوله: مَاذَا تَعْبُدُونَ، قال: ونظره في النجوم هو الذي أخبر الله تعالى به عنه إذ يقول الله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إلى ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[6]، فكانت نظرته تلك للتبيّن، فلمّا أراه الله الآيات في نفسه وفي الآفاق كما قال الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾[7] الآية، قال لقومه: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾﴾[8]، وذلك حين قال: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[9] الآية، وكان قوله: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾، قبل التبيين، وأراد بالسقيم أنه ليس على يقين ولا شفاء من العلم، ويقول الرجل إذا سأل عن شيء فصدق عنه وبُيِّن له: شفاني فلان، فلما كان العلم واليقين شفاء صلح تسمية الحال التي قبل كنه البيان سقماً، وقد قال الله تعالى في قوم لم يكونوا على إيمان محض: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾[10]، وهذه الحال التي انتسب فيها إبراهيم عليه السلام إلى السُّقم هي الحال التي فيها البلوغ ووقوع التكليف من الله عزّ وجلّ، ولزوم أمره ونهيه، والفاء في قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّوْا﴾، فاء عطف أيضاً، ينعطف بها ما هي معه من الكلام على قوله: ﴿أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾﴾، فلمّا دعاهم إلى الله تعالى وأنكر عليهم عبادة ما يعبدون

---

(١) هكذا هو في قواميس اللغة، وقد فسّر به النص الجليل. ينظر لسان العرب/ ذكر، وقد نسب تفسير يذكر بمعنىٰ يعيب إلى الفراء.

(٢) لعنترة بن شداد العبسي كما في ديوانه ص ٢٧٢.

(٣) في المطبوع: يعذبهم.

(٤) سورة الزمر، الآية: ٣٠.

(٥) سورة الأنبياء، الآية: ٦٣.

(٦) سورة الأنعام، الآية: ٧٥ وما بعدها.

(٧) سورة فصلت، الآية: ٥٣.

(٨) سورة الصافات، الآية: ٨٦.

(٩) سورة الأنعام، الآية: ٧٩.

(١٠) سورة البقرة، الآية: ١٠.

[من] دون الله، تولَّوا عنه مدبرين.

وزعم قوم لا يعقلون أن إبراهيم عليه السلام كذَّب ثلاث كذبات هي واحدة منها، وحاش للرسول الذي اتخذه الله خليلاً أن يكذب أو يأتي بالقبائح، والذي توجبه التلاوة وشهادة بعض القرآن لبعض، ويحسن في أوصاف أنبياء الله وصفوته من عباده هو ما ذكرناه، وتلخيص ما في هذه القصة منذ ابتداء ذكر إبراهيم إلى حيث انتهينا، أنّ الله تعالى أثنىٰ على إبراهيم بأنه وافق نوحاً في الإيمان والإخلاص حتّىٰ توفّاه الله على ذلك، سليم القلب لئلا يشرك به شيئاً، وأنه نظر فيما خلق الله من النجوم، فاستدلّ على خالقها بها، وتبيَّن له بالتأمُّل لها أنّ إلٰهها وإلاهه واحد ليس كمثله شيء، وهو ربُّ العالمين، وخالق الخلق أجمعين، ودعا قومه إلى مثل ما أراد الله وهداه له، وزرى عليهم وعاب اختيارهم في عبادة الأصنام، لا تسمع ولا تبصر، ولا تغني عنهم ولا عن أنفسها شيئاً، فتولّى القوم عنه مدبرين عند ذكره ربّه، كما قال تعالى في الكافرين من قوم النبي ﷺ: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾[1]، وقال تعالى: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾﴾[2] الآية، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ﴾[3] الآية.

وقال بعض أهل النظر: إنّه عليه السلام رآهم يعتمدون فيما يعنُّ لهم ويحدث، وفيما يستأنفون من مبادىء الأمور ومفاتحها على النظر في النجوم وأحكامها، فاقتدى بهم، تأنيساً لهم، وأخذاً بعادتهم، ليسكنوا إليه بعض السكون، وإن لم يركنوا كلّ الركون.

وقوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وإن قاله متأوِّلاً، ففيه استنباء؛ ورجاء رفق منهم، إمّا لعلَّة، وإمّا للتربُّص به حتى يأمنوا شرّه، ويشهد لهذا قوله: ﴿فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾، وهذا حَسَن قريب، وقال بعضهم: قوله تعالى: ﴿فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾، يعني به ما ينجم من نبات الأرض، كأنه كان يقلّب الأدوية متخيّراً منها ما يقرّب الشفاء عنده، وقيل أيضاً: أراد نظراً فيما كان ينزل عليه من نجوم الوحي، كيف يتوصل إلى ما يهمّ به في آلهتهم، وبماذا ابتدأ، ومن أين مخلصه إذا أقدم، ويكون قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ اختداعاً منه لهم، وإيذاناً منه بأنّه مشغول بنفسه، تارك لما كان لا يؤمن من مكائد، وهذا نهاية ما يقال.

فأمّا قوله تعالى: ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِالْيَمِينِ ﴿٩٣﴾﴾[4]، يريد، مال عليها بالضرب، كما تقول: التقىٰ الفريقان فراغ أحدهما، أي عزل عن الحرب، يقال: دار فلان رائغة عن الطريق، أي عدله، وقوله باليمين، قيل: بيده اليمنىٰ، وقيل: هي يمين كان حلف بها، وهي

(١) سورة الإسراء، الآية: ٤٦.
(٢) سورة المدثر، الآية: ٤٩.
(٣) سورة الزمر، الآية: ٤٥.
(٤) سورة الصافات، الآية: ٩٣.

قوله تعالى: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم﴾[(١)]، وقيل بالقدرة كما قال[(٢)]:

إذَا مَـا رَايَـةٌ رُفِعَـتْ لِمَجْـدٍ تَلَقَّـاهَـا عَـرَابَـةُ بـالْيَمِيْـنِ

وقيل: راغ معناه، أقبل مستخفياً كروغان الثعلب، وكذلك قوله: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ﴾[(٣)]، أي لم يرد أن يشعروا به.

فصل آخر

وذكر أبو علي الفارسي فيما سمعته منه أن قول النبي ﷺ: «تَرَوْنَ رَبَّكُمْ كَمَا تَرَونَ القَمَرَ لَيْلَةَ البَدْرِ، لاَ تُضَامُوْنَ فِي رُؤْيَتِهِ»[(٤)] أن هذا ليس من الرؤية التي هي إدراك البصر، بل هي بمعنىٰ العلم، وساغ حذف المفعول الثاني الذي تقضيه تلك، لأنّ الكلام قد طالَ ما هو بمعنىٰ المفعول الثاني لو أظهر، ألا ترى أنّ قوله: كما ترون القمر ليلة البدر تأكيد وتشديد للتيقّن، وتبعيد عن اعتراض الشبه على العلم به تعالى، وإذا كان بمنزلة ما بمنزلة المفعول الثاني إذا جرى ذكره في الصِّلات نحو: علمت أنَّ زيداً مُنْطَلِق، و ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ﴾[(٥)]، فلَمَا سَدَّ ما جرى في الصلتين مسدّ المفعولين[(٦)]، ومن قال: إنه يضمر في الموصولَيْن مفعولاً ثانياً، كان قياس قوله أن يضمر هنا مفعولاً ثانياً كأنه، ترونه مُتَيَقِناً؛ ونحو ذلك، وأن يقال: إنّ ما ذكر سدَّ مسدّ المفعول الثاني أَقْيَس، ألا ترى أنّ ما جرى في صلة إنَّ بَعْدَ لو في قولك: إنَّكَ لو جئتني، قد سدَّ مسدّ المفعول الذي يقع بعد لو، حتى لم يظهر ذلك الفعل معه واختزل، فكذلك المفعول مع الموصولين في هذا الباب، ومثل هذا قوله: ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ۝٣٥﴾[(٧)]، لأنّ القول في يرى إنّها هي التي تتعدّى إلى مفعولين، لأنَّ علم الغيب لا يوجب الحسَّ، حتى إذا علمه أحسَّ شيئاً، وإنّما المعنىٰ، عنده. علم الغيب مثل ما يشهده، لأن من حصل له علم الغيب، يعلم ما يغيب كما يعلم ما يشاهد، فإن قلتَ: فكيف حذف المفعولين جميعاً، قيل: المعنىٰ، أَعِنْدَهُ عِلْمُ الغَيْبِ فهو يرىٰ الغيب مثل المشاهد؟ والمبتدأ والخبر قبل دخول رأيت عليه كان الغيب فيهما مثل المشاهدة، ثم حذفا

---

(١) سورة الأنبياء، الآية: ٥٧.

(٢) هو الشماخ بن ضرار كما في ديوانه ص ٣٣٦، ولسان العرب/ عرب.

(٣) سورة الذاريات، الآية: ٢٦.

(٤) صحيح مسلم ١/٤٣٩ بتفصيل أزيد.

(٥) سورة العنكبوت، الآية: ٢.

(٦) يعني أنّ الذي سدّ مسدّ مفعولي علم هو جملة إنّ زيداً منطلق في المثال الأول، وأنّ قوله: أن يتركوا سدّ مسدّ مفعولي حسب.

(٧) سورة النجم، الآية: ٣٥.

للدلالة عليهما، وقد قال الأعشى[1]:

فَــأُنْبِئْــتُ قَيْسَــاً ولَــمْ أَبْلُــهُ   كمــا زَعَمُــوا خَيْــرَ أهــلِ اليَمَــنْ

وقال الكميت[2]:

تَـرَىٰ حُبَّهُـمْ عَـاراً عَلَـيَّ وتَحْسَـبُ

فالدلالة من الفحوى، والمعنىٰ في الآية على المفعولين المحذوفين كالدلالة عليهما في البيتين، لجري ذكرهما فيهما، وإنّما ذكرنا ما قاله لغرابته.

فصل آخر

في جواب مسائل للمشبهة من الكتاب والسنّة ممّا تستدل به المشبهة

إنهم قالوا: قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ﴾[3]، وقال: ﴿وَتَرَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ﴾[4]، ثم قال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[5]، وقال: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾[6]، كما قال: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾[7]، ولا فصل بين الكلامين، وقال أيضاً: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾[8]، والكُرسيّ والعَرْشُ بمعنىٰ، وممّا جاء في الخبر قول النبي ﷺ حيث حكم [سعد بن معاذ] في بني قريظة: «لَقَدْ حَكَمْتَ بِحُكْمِ الله مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ»[9]، وعنه حين قال: «فَأَقُومُ عَلَى يَمِينِ العَرْشِ»، ولا يكون يمين إلاّ لما له يسار، قالوا: فقول الله ﴿وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾ و ﴿حَآفِّينَ مِنۡ حَوۡلِ ٱلۡعَرۡشِ﴾، فيه دلالة على أنّ العرش مطاف يطاف به، ودوار يدار عليه، وهذه المواضع وأشباهها عَمَدُهُمْ.

والجواب عنها، إنّ للعرش مواضع عدة في كلام العرب، منها الملك والعزّ، وقوام أمر الرجل وملاكه، ويشهد له قولهم: ثُلَّ عرشُ فلان، إذا أُزيل وحُطَّت رتبته، ومنها، سرير المَلِك، ويشهد له قوله تعالى: ﴿وَلَهَا عَرۡشٌ عَظِيمٞ ﴿٢٣﴾﴾[10]، وقوله: ﴿أَهَٰكَذَا عَرۡشُكِۖ قَالَتۡ كَأَنَّهُۥ

---

(١) ديوانه ص ٢٥، وفاتحته في الديوان: ونُبِّئْتُ.

(٢) ليس في شعر الكميت بن زيد الأسدي المنشور.

(٣) سورة غافر، الآية: ٧.

(٤) سورة الزمر، الآية: ٧٥.

(٥) سورة طه، الآية: ٥.

(٦) سورة الأعراف، الآية: ٥٤. وانظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم/ عرش.

(٧) سورة يوسف، الآية: ١٠٠.

(٨) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

(٩) الحديث في أنواء ابن قتيبة ص ١٢٩، وسيرة ابن هشام ص ٦٨٩، واللسان/ سمو، وكلهم رووا أرقعة بدل سماوات.

(١٠) سورة النمل، الآية: ٢٣.

هُوَ﴾[1]، ويجمع على العَرَشَة والأعراش، ومنها، سقف البيت وما يستظلّ به، والعرش كذلك، ومنه قيل: عرش الكَرْم[2]، فهو عرش، وقالوا: عرش السماك لكواكب أربعة، تشبّهاً به، لأنه على صورة النعش[3]، ومنها، طيّ البئر بالخشب بعدما يطوى موضع الماء منها بالحجارة، ويقولون: عَرِّشُوا بئركم[4].

وإذا ثبتت هذه الوجوه حقيقة وتشبهاً في لفظة العرش، فالواجب حملها حيث جاءت على الأليَق بالمعنى مع قرائنه، والأقرب في الاستعمال، والأشبه في قضيّة السمع والعقل، وهذا الذي ذكرناه هو الميزان عند طلب الرجحان؛ حيث حصل الاشتراك في الألفاظ وغيرها.

فأمّا الخبر المروي وهو: «لَقَدْ حَكَمْتَ بِحُكْمِ الله مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ»، فقوله: من فوق ظرف لقوله حكم الله؛ ومتعلق به، فهو كما يقال: حكم الله العالي المكان؛ الرفيع المحلّ والقدر، وأنت تصف الحكم، ولا يجوز أن يكون متعلّقاً بلفظة الله، لأنه تعالى لا تحويه الأماكن، ولا تحيط به الأقطار والجوانب، والمعنى، بحكم يشبه حكم الله الذي محلّه ومكانه من الإصابة والغلبة والعلوّ فوق سبع سماوات، وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ﴾، ومنهم من يطوف به، وكلهم يسبّح لله بالحمد له، والاعتراف بنعمه، والإيمان بجميع ما تَعَبَّدَ الله به خلقه، ويستغفرون لمن في الأرض، إلى الشفاعة التي قال الله تعالى ما حالهم: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾[5]، وقوله تعالى: ﴿وَيَحۡمِلُ عَرۡشَ رَبِّكَ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ ثَمَٰنِيَةٞ ۝١٧ يَوۡمَئِذٖ تُعۡرَضُونَ لَا تَخۡفَىٰ مِنكُمۡ خَافِيَةٞ ۝١٨﴾[6] يريد، أنّ جميع من خلق الله من البشر في ذلك اليوم يعرضون بأعمالهم وأقوالهم، وكلّ ما أعلنوه وأسرّوه أيام حياتهم، فيُحاسبون عليه، وذلك كما يستعرض السلطان جنده بأسلحتهم ودوابهم وآلاتهم، فأمّا العَدَد المذكور، فهو مما استأثر الله به، ومثله مما رأى الله تعالى إيهام الأمر فيه، والكفّ عن بيانه كثير، وذلك لتعلق المصلحة بأن يكون حازماً، وسائر ما سألوا عنه إذا أجملناه.

فإنا نقول في جوابهم الشامل لمقالهم، المسقط لكلامهم، لمّا أن كان أسفل الأشياء الثرى، وكان أعلى الأشياء السماء السابعة، ثمّ الكرسي؛ ثمّ العرش، فكان الله تعالى قد

---

(١) سورة النمل، الآية: ٤٢.

(٢) في المطبوع: المكرم.

(٣) هكذا في المطبوع. ولعله صورة العرش.

(٤) هذه المعاني للعرش تجدها في قواميس اللغة مفصلة. ينظر: الصحاح، والمحكم، والمحيط الأعظم، ولسان العرب/ عرش.

(٥) سورة الأنبياء، الآية: ٢٨.

(٦) سورة الحاقة، الآيتان: ١٧، ١٨.

جعل للأعلى في القلوب من التعظيم والقدر والشرف ما لم يجعل للأسفل، كما عظَّم بعض الشهور وبعض الأيام وبعض الليالي وبعض الساعات وبعض البقاع وبعض المحالّ، وكان قد جعل للعرش ما لم يجعل للكرسي، وجعل للكرسي ما لم يجعل للسماء السابعة، [و] ذكر العرش والكرسي والسماء بما لم يذكر به شيئاً من سائر خلقه، فذكر مرّة العرش والكرسي والسماء في جملة الخلق، وأنه عال على جميعها بالسلطان والقدر والقوّة، حيث قال تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾[1]، وحيث قال تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ۝٤٥﴾[2]، وقد يقول الرجل: فلان شديد الإشراف على عمّاله، وليس يذهب إلى إشراف يده ورأسه، [و] قد خبّر الله أنه على كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، ومقتدر، وحافظ، وظاهر، وقد قال: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾[3]، والعرش شيءٌ هو عالٍ عليه بالقدرة، والظاهر عليه بالسلطان، وإنّما خصَّه بالذكر إذ كان مخصوصاً عندنا بالنباهة، وأنه فوق جميع الخلق، فذكر مرّة في الجملة، ومرّة بالإبانة، قال تعالىٰ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾، فخبره عالٍ عليه، وحافظ لَهُ، ومانع له من الزوال، وقوله: ﴿كُرْسِيُّهُ﴾، كقوله: بيته، ولو كان متى ذكر أنّ له كرسيّاً وعرشاً، فقد أوجب الجلوس عليهما، [و] كان متى ذكر بيته فقد أوجب أنه ينزله ويسكنه، وليس بين بيته وعرشه وكرسيّه وسمائه فرق، ولو كنّا إذا قلنا سماؤه، فقد جعلناه فيها كنا إذا قلنا أرضه فقد جعلناه فيها، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾[4] فأدخلهما في جملة الملائكة، ثم أبانهما إذ كانا بائنين من سائر الملائكة، وكذلك سبيل القول في العرش والكرسي والسماء والأرض والحوت والثرىٰ، لأنَّ الكرسي إذا كان مثل السماوات والأرض، والعرش أعظم منه، فمتى ذكر أنّه عالٍ على العرش وظاهر عليه فقد خبَّر أنه على كلّ شيء قدير، وقد يكون العلوّ بالقدرة والاعتلاء، فمرّة يذكر العرش، ومرّة يذكر الكرسي دون العرش، ومرّة يذكر السماء دون الكرسي، ومرّة يقول: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾[5]، بعد أن قال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ۝١٦﴾[6]، وترك ذكر الأرض، فلو كان إذا ذكر السماء دون الأرض كان ذلك دليلاً على أنه ليس في الأرض، كان ذكره أنه على العرش دليل على أنّه ليس في السماء، وقد قال: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾، ومرّة يذكر معاظم الأمور وجلائل الخلق وكبار الأجسام وأعالي الأجرام، ومرّة كلّ شخص كيف كان وحيث ما كان، كقوله تعالىٰ: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾[7] الآية،

---

(١) سورة الملك، الآية: ١، وانظر المعجم المفهرس// قدر.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٤٥.
(٣) سورة الحديد، الآية: ٣.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٩٨.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ٣.
(٦) سورة الملك، الآية: ١٦.
(٧) سورة المجادلة، الآية: ٧.

وقد قال أيضاً على هذا المعنى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾[1]، وقال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾[2].

فإن زعم القوم أنه إنما ذهب إلى معنى القدرة والعلم، لأنّ قُرْبَهُ منهم كقربه من العرش، قلنا: فقد صرتم إلى المجازات، وتركتم قطع الشهادة على ما عليه ظاهر الكلام، فكيف نعيتم ذلك علينا حين زعمنا أنّ تأويل قوله: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾، ليس على كون الملك على سريره، بل هو على معنى العلوّ والقدرة والحفظ والإحاطة والظهور بالسلطان والقوّة، وهذا بيِّنٌ، والحمد لله.

فإن قالوا: ما تأويل استوى وما فائدة على؟ قلنا: قد زعم أصحاب التفسير عن ابن عباس، وهو صاحب التأويل، والناس عليه عيال، أن تأويل قوله: استوى، استولى، وقد قال تعالى لنوح: ﴿فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى الْفُلْكِ﴾[3]، ولم يرد الله تعالى أنهم كانوا مائلين فاعتدلوا، وإنّما معناه، فإذا صِرْتم في السفينة فقل كذا وكذا، وقد يقول الرجل: قلتُ كذا وكذا ثم استويت على ظهر الدابة بعد أن لم أكن عليها فقلت كذا، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾[4]، وإنّما يريد، فلمّا انتهىٰ وبَلَغ جعلناه حكيماً، وكما يقال للغُلام المقدود: هذا غُلامٌ مُسْتَوٍ، فإن قالوا: قد عرفنا هذه الوجوه، ولكن ما معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾[5]، قلنا: معناه ثم عمد إلى السَّمَاءِ فخلقها، كما قال ابن مُقْبِل[6]:

أَقُولُ وَقَدْ قَطَعْنَ بِنَا شَرَوْرَىٰ عَوَامِدَ وَاسْتَوَيْنَ مِنَ الضَّجُوعِ

أي، خرجن، وقال الآخر:

اسْتَوَتِ العِيرُ إلىٰ مَرْوَانِ مَسِيرَ شَهْرٍ قَبْلَهُ شَهْرَانِ

ولفظه على تختلف مواقعها، فمنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾﴾[7]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾﴾[8]، وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾[9]، والمُرادُ في الجميع اللزوم والوجوب، ومنها قول الفرزدق[10]:

وَلَوْ أَنِّي مَلَكْتُ يَدِيْ وَنَفْسِي لَكَانَ عَلَيَّ لِلْقَدَرِ الخِيَارُ

---

(١) سورة ق، الآية: ١٦.
(٢) سورة الواقعة، الآية: ٨٥.
(٣) سورة المؤمنون، الآية: ٢٨.
(٤) سورة القصص، الآية: ١٤.
(٥) سورة فصلت، الآية: ١١.
(٦) ديوانه ص ٩٨.
(٧) سورة الغاشية، الآيتان: ٢٥ و٢٦.
(٨) سورة القيامة الآيات: ١٧، ١٨، ١٩.
(٩) سورة النحل، الآية: ٩.
(١٠) ديوانه ١/ ١٩٤.

وإنما قال هذا حين تندّم على تطليق امرأته نوار، وأوّله:

نَـدِمْـتُ نَـدَامَـةَ الكُسَعِـيِّ لَمَّـا غَـدَتْ مِنِّـي مُطَلَّقَـةً نَـوارُ

والمعنى، لو ملكت أمري لكان[1] عَلَيَّ أن أختار للقدر، ولم يكن على القدر أن يختار لي، ومنها قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾[2]، وهذا كما أنّ السماوات بعضها على بعض، ويجوز أن يكون عليه على جهة الالتزاق، ومثله قوله تعالىٰ: ﴿ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ ﴾[3]، وهذا من قولهم: على فلان نذر، وعليه حَتم، وعليه يمين، ومنها قوله[4]:

سَـلَامُ الله يـا مَطَـرٌ عَلَيْهَـا وَلَيْـسَ عَلَيْـكَ يـا مَطَـرُ السَّـلَامُ

ومنها قول الآخر:

ولا أَلْحَىٰ عَلَىٰ الحَدَثَـانِ قَـوْمـي عَلَىٰ الحَدَثَـانِ ما تُبْنَـىٰ السُّقُـوْفُ

يقول: لا ألوم قومي أن يحنوا عليّ وأن يُحدثوا الأحداث، فعلى احتمال ذلك بنى بيت السؤدد، ومنها قوله تعالى: ﴿ أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا ﴾[5]، فمعنىٰ مرَّ على قرية، مرَّ بجنباتها، ولم يُرد أنّه مرَّ فوقها، وقوله: هي خاوية على عروشها، يريد، وهي خالية على عروشها، أي هي على ما بها من السقوف خالية، كما يقال: زيد على كثرة محاسنه متواضع، وقال بعضهم: أراد، بقيت حيطانها لا سقوف لها، وما قلناه أشبه، وقال أبو عبيدة: هي الخيام وبيوت الأعراب، ومنها قولهم: عليك الجادة والطريق الأعظم، في الاغراء بها، وفي القرآن: ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ﴾[6]، هذا ما حضر من مواضع على.

فصل آخر

وهو بيان قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾[7]، وبيان قول القائل: الله أعلم بنفسه من خلقه، والفصل بينهما.

أمّا قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾، فلا يجوز أن يكون انتصاب حيث على حد انتصابه إذا كان ظرفاً، لأنّ علمه تعالى في جميع الأماكن على حدٍّ

---

(١) في المطبوع: فكان.
(٢) سورة هود، الآية: ٧.
(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.
(٤) البيت في مغني اللبيب ٢/ ٣٤٣.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٥٩.
(٦) سورة المائدة، الآية: ١٠٥.
(٧) سورة الأنعام، الآية: ١٢٤، وفي المطبوع: رسالاته.

واحد لا يدخله التزايد والتناقص، وإذا لم يستقم[1] حمل أفعل على زيادة عَلِمَ في مكان، فيجب أن يحمل على انتصابه انتصاب المفعول به، ويكون العامل فيه فعلاً مضمراً، يدلّ عليه قوله: أَعْلَمُ، ويحصل الاكتفاء بقوله: الله أَعْلَمُ، ثم أَعْلَمُ، يدل على يَعْلَمُ مضمراً، والتقدير: الله أَعْلَمُ العالِمِينَ يَعْلَمُ حَيْثُ يجعَلُ رِسَالَتَهُ، فيختار لأدائها من يصطفيه، ومثل هذا قول الشمّاخ[2]:

وَجَلاَّهُمَا عَنْ ذِيْ الأَرَاكَةِ عَامِرٌ ... أَخُو الخضْرِ يرمِي حَيْثُ تُكْوَىٰ النَّواجِرُ

فقوله: حيث، مفعول، لأنّه هو المرمىٰ، إذ لم يجز أن يكون المعنى، يرمي شيئاً في ذلك المكان، وهذا مثل قول الآخر[3]:

أَكُــرُّ وأَحْمِــيْ لِلْحَقِيْقَــةِ مِنْهُــمُ ... وأَضْرِبُ مِنَّا بـالسُّيُوفِ القَـوَانِسَا

انتصب القوانس بفعل مضمر، دلّ عليه قوله: وأضرب مِنّا.

وأمّا قول القائل: الله أعلم بنفسه من خلقه؛ حتى قيل: لم يزل معلوماً لنفسه، فاعلم أنَّ هذا الكلام له متصرفات، بعضها يجوز ويحسن في وصفه تعالى، وبعضها يمتنع، فإن أردت بقولك نفسه صفة لأنه به حَسُنَ. وجَازَ، ويكون هذا كقوله في صفة قدرته وتدبيره وعظمته وإرادته وكرمه ورحمته ﴿يَسْئَلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾﴾[4]، وكذلك إن أردت أنّ علم العبد قد يعترض فيه الشك، ويتسلط عليه النسيان، ويعتريه الآفات، كالغشىٰ والنوم والموت فتعطله، وعلم الله يدوم ويثبت على حدٍّ واحد، كان صواباً وقائماً وصحيحاً، وإن أردت أنّ علمه بذاته متكامل فهو يسعها، وعلم خلْقه بها متناقص، فيعزّ عن الإحاطة بها، كان غير لائق به، وممتنعاً من تجويزه فيه، وكذلك إن أُجْرِيت مُجرى قول القائل: إنّ جبريل أعلم بالله من الإنسان، تريد، أنّ علمه أعلق به وألزم له، كما يزداد حبٌّ على حبّ، ويكون تَعَيُّنٌ أثبتَ من تَعَيُّنٍ، امتنع أيضاً، وذكر النفس ليس يثبت به شيء غير الذات، وكذلك الوجه في قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾[5]، وليس ذلك على ما ينسب إلى المحدثين من الأعضاء، وكذلك العَيْن، إذا قلت: عَيْنُ الشيء، ويصحّ أن يقال: الله أعلم بنفسه من خلقه، ويرادُ، أنه أذكر لوجوه القدرة وصنوف ما يدل عليه الحكمة والعظمة، ولجميع صفاته العلى، وأسمائه

---

(١) في المطبوع: لم يسقم.

(٢) ديوانه ص ١٨٢، وفاتحته في الديوان وحلأها، وقافيته في المطبوع: النواجر، تصحيف.

(٣) هو العباس بن مرداس السلمي كما في ديوانه ص ٦٩، ولسان العرب/ قنس.

(٤) سورة الرحمن، الآية: ٢٩.

(٥) سورة الرحمن، الآية: ٢٧.

الحُسنىٰ، فلا أَمَدَ لعلمه، ولا نهاية، ولا مدد ولا غاية، وشاهد هذا قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ ﴾(١) الآية، وهذا لأنّ العبد لا يكون ذاكراً من وجوه القدرة والحكمة كلها إلاّ ما عَلِمَ منها، والله تعالى ذاكر لها كلها، ويكون هذا كما يقال: فلان أعلم بالله من فلان، ويرادُ أنه قد عرف أنّ الدنيا محدثة من وجوه عدَّة، وأنّ الآخر لا يعرف ذلك إلاّ من وجه واحد، وقد ظهر بما بيّناه الفصل بين ما يُسْأل عنه في الموضعين جميعاً.

فصل

في تبيين المحكم والمتشابه من قوله تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ﴾(٢)

والحكمة في إنزاله، مقسّماً بين الوجهين المذكورين والكلام في المعارف والمعجز

إعلم أنّ الله تعالى لمّا ابتلى العقلاء بتكاليف الدين بعد إزاحة العلل وتسهيل السبل وبعث الرسل، رتّب في مراسمه مراتب، وجعل لكلّ مرتبة قدراً من الجزاء والمثوبة، ترغيباً في الاستكثار من طاعته، وحضّاً على التنافس في أشرف المنازل لديه، ومن أجل تلك المراسم ما ندب إليه من تدبّر كتابه الحكيم، الجامع للأوامر والنواهي، وأصول الحلال والحرام، والمندوب إليه، والمباح، وقصص الأمم السالفة، وأخبار الأنبياء معهم المواعظ والأمثال والحكم والآيات والنذر والمثلات والعِبَر، والامتنان بأنواع النعم والإخبار بالشيء قبل كونه، والتنبيه على مغيبات الأمور وسرائر القلوب من دونه هذا، وقد أنزله علماً لنبيّه يتحدّى زمان الفصاحة، وأوان التبلغ بالبلاغة، جعل بعضه جليّاً واضحاً، وبعضه خفياً متشابهاً، لِيُعمِل من تسمو نفسه إلى أعلى الدرجات فكره، فيمتاز في العاجل بما يستنبطه ويثيره من جليل العلم ودقيقه، عن غيره ممّن لم يسعَ سَعْيَه وإن جاهد في ربّه، ويجتاز في الأجل عند الله من الزلفة وجزيل المثوبة ما يقرب من غايات الأنبياء، وذوي العزم والنصيحة، فلولا حكمة الله فيما ذكرته لبطل التفاضل فيما هو أشرف، وتدانت الأقدار فيما هو أفخم، ألا ترى أنّ الصبر في إعمال القلب وإعمال الفكر، وكدّ الروح لنتائج النظر، ليس كالصبر في إتعاب الجوارح، وإنصاب الآداب والمفاصل، لذلك قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾(٣)، فأمّا ما روي من أنّ لكلّ آيةٍ ظهراً وبَطناً ومطلَعاً، فالمعنى، لكلّها لفظ ومعنى ومأتىٰ، أي طريق يؤتىٰ منه، فيتبيّن علمه من ذلك الطريق، وقيل أيضاً: فيه الظهر للإخبار عن مخالفة الأمم وهلاكها، والبطن يكون تحذيراً، أي لا تفعلوا فعلهم فتهلكوا هلاكهم.

---

(١) سورة لقمان، الآية: ٢٧.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٧.

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦٩.

وحكي عن النَّظَام أنه قال: القرآن كلّه أو بعضه جاء على كلام العامة في أمثالهم، إياك أعني فاسمعي يا جارة[1]، وقد ظهر وجه الحكمة بما بيّناه في تنزيله بعض الكتاب محكماً، وبعضه متشابهاً، فأمّا التنبيه على كلّ نوع منهما، فإنّا نقول: وبالله التوفيق:

إعلم أنّ المحكم من الآي هو الذي لا يحتمل إلاّ معنى واحداً، فيوافق ظاهره باطنه، إذا تأوّل، كأنّه أُحكِمَ أمره، ومنع متدبره من تسليط الشبهة عليه، كما منع هو في نفسه من أن يتورّده الاحتمال، وأصل الإحكام، المنع، ومنه حَكَمَة الدابّة، فإن قيل: إنّ الله تعالى قد وصف آيات القرآن كلها بمثل هذه الصفة، لأنه قال تعالىٰ: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾[2]، وإذا كان كذلك، فالمتشابه محكم أيضاً، ويؤدي ظاهر الآيتين إلى تناقض، قلت: إنّ قوله: ﴿أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾ معناه، أُتقِنت، وأُتِي بها على حدٍّ من الوثاقة في النظم والإصابة في المواضع، لا يتخللها اختلال، وهذا كما يقال للبناء الوثيق محكم، وقد قال الله تعالى في موضع آخر: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ۝١﴾[3] فجعل الكتاب حكيماً بما تضمنه من الحكمة، وإذا وضح ذلك فقد سلم ما قلناه، ولم يحصل بحمد الله تناقض، ويشهد لما تأوّلنا عليه المحكم أنه جُعِل في مقابلة المتشابه.

وجوّز بعض المتأولين أن يكون معنى أحكمت آياته، أجْمَلت، من حيث جاء بعده ثمَّ فُصِّلَتْ، إذ كان الإجمال والتفصيل يتعاقبان، وهذا الذي قاله لا يعرف في اللغة، والمتشابه، هو الذي دخل في شبه غيره، فيعتوره تأويلان[4] أو أكثر، ومن شرطه أن يردّ إلى المحكم، فيقضىٰ به عليه، لهذا قال تعالى في صفة ثمر الجنة: ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ﴾[5]، فقيل: المعنىٰ، يشبه بعضه بعضاً في الجودة والحسن.

وقال المفسرون: يشبه بعضه بعضاً في الصورة، ومختلف الطعوم، وقد وصف تعالى الكتاب كلّه بالمتشابه، كما وصفه بالحكيم، وكما وصف آيهُ بالأحكام فقال: ﴿كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾[6]، والمعنىٰ، يصدق بعضه بعضاً، فلا يختلف ولا يتناقض، وقال عليٌّ لابن عباس حين وجّه به إلى الشُّراة قبل القتال: لا تُناظروهم بالقرآن، فإنّ القرآن حَمَّالٌ ذووجوه، ولكن ناظروهم بالسُّنَّة، فإنهم لا يكذبون عليها[7]، فقوله: حمّال، أي يحمل عليه كلّ تأويل، وهذا يترجم عن معنى المتشابه، ومثال المحكم نحو قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ

---

(١) مجمع الأمثال ٤٩/١، وقد نسبه إلى سهل بن مالك الفزاري في خبر، يضرب لمن يتكلم بكلام ويريد به شيئاً غيره، وروايته فيه واسمعي يا جارة، بدل فاسمعي يا جارة.
(٢) سورة هود، الآية: ١.
(٣) سورة يونس، الآية: ١.
(٤) في المطبوع: تأويلات.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٥.
(٦) سورة الزمر، الآية: ٢٣.
(٧) وفي رواية: لا يجدون عنها محيصاً.

﴿ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾[1]، وكقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ﴾[2].

فأمّا وجوه المتشابه فمختلفة، منها، اتفاق اللفظين مع تنافي المعنيين في ظاهر آيتين، كقوله تعالى: ﴿ هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ ﴾[3]، فهذا محكم، لفظه استفهام ومعناه نفي[4]، والمراد، لا مُنْشِيء إلا الله، ثم قال تعالى في موضع آخر: ﴿ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ﴾[5]، فقلنا: الخلق في كلامهم يكون الإنشاء ويكون التقدير، يقال: خلقت الأديم إذا قدرته، قال[6]:

ولأنـتَ تَفْـرِيْ مَـا خَلَقْـتَ، وبَعْـ ـضُ القَـوْمِ يَخْلُـقُ، ثُـمَّ لا يَفْـرِي

والآية النافية تقضي على المثبتة بأنّ الخلق يكون فيه التقدير لا غير، لأنّ الذي يخلص لله تعالى من معنى الخلق فلا يشارك فيه هو الإنشاء، ومثله قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ ﴾[7]، مع قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ﴾[8]، لأنّ المولى في اللغة يقع على السيّد والعبد والمعتق والولي والناصر وابن العمّ، فمعنى لاَ مَوْلَىٰ لَهُمْ، لا ناصِرَ؛ ولا وَلِيّ، ومعنى مَوْلاَهُمْ الحَقّ، الإلهُ والسيّد الذي لا شكّ فيه؛ يوم يكون الحكم والأمر له، وهذا بيِّن.

ومنها التنافي بين المعنيين في ظاهر آيتين، وإن لم يكن عن اتّفاق لفظين مثل قوله تعالى: ﴿ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٦﴾ ﴾[9]، مع قوله تعالى: ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَـٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ ﴾[10]، وهاتان حالتان إحداهما حالة الورود، وهي عند البعث والنشور، والأخرى حالة الصدور والانسياق إلى المُعَدِّ مِنَ الثواب والعقاب، وهذا معنى لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ، فالمحكمة التي يَردُ إليها يصدر الناس أشتاتاً، قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[11]، وهذا واضح، ومثله قوله

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٥.
(٢) سورة النحل، الآية: ٩٠.
(٣) سورة فاطر، الآية: ٣.
(٤) يسميه أهل النحو النفي الضمني.
(٥) سورة المؤمنون، الآية: ١٤.
(٦) لزهير بن أبي سلمى كما في ديوانه ص ١٤، وقد تحرف تفري في المطبوع إلى تعزىٰ في الحشو والقافية، فضلاً عن أنه نثره.
(٧) سورة محمد، الآية: ١١.
(٨) سورة الأنعام، الآية: ٦٢.
(٩) سورة الزلزلة، الآية: ٦.
(١٠) سورة الكهف، الآية: ٩٩.
(١١) سورة الروم، الآيات: ١٤ـ١٥ـ١٦.

تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾[1]، أي يُدْفَعون ويستعجلون، مع قوله تعالى: ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾[2]، ومعنى فرداً، لا عَدَدَ معه، ولا عَضُدَ، ولا عدةَ ولا ذخيرةَ، والمحكمة التي ترد إليه هذه، قوله تعالىٰ: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾[3]، وإذا كان كذلك، انتفىٰ التشابه.

ومنها استغلاق الآية في نفسها وبعدها باشتباهها عن وضوح المراد منها، ومن جعل وجه التشابه هذا وما يجري مجراه استدل بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[4]، وجعل وجه الإحكام ظهور المعنى وتساوي السّامعين في إدراك فهمه، ولذلك مَثَّلَ كثير من أهل العلم المحكمات بالآي الثلاث التي في آخر الأنعام، وهي قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴿١٥١﴾﴾ إلى ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾[5]، والمتشابهات بقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾﴾ و﴿الٓرۚ﴾ و﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾﴾ و﴿طه ﴿١﴾﴾[6] وما أشبهها.

ومنها، ألاّ يعلم السبب الذي نزلت الآية فيه على كنهه وحقّه لاختلاف قديم يحصل فيه بين الرواة، وادِّعاء بعضهم النسخ فيه، ولغرابة القصّة وقلّة البلوى بمثلها، والصواب عندي في مثل هذا أن يؤثر ما تكون لفظة الكتاب أشْهَدَ له وأدعىٰ إليه، ومثاله قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ﴾ إلى ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْمَعُوا۟﴾[7].

ومنها، أن يروى في تفسير الآية عن طرق كثيرة وعن رجال ثقات عند نقاد الآثار ورواتها، أخبار تختلف في أنفسها ولا تتّفق، ولا يستجاز مخبرها أو يستبعد، ثمّ تجد إذا عرضتها على ظاهر الكتاب لا تلائمه من أكثر جوانبها، ولا توافقه، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ إلى ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾[8]، ومثل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ إلى ﴿أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾[9]، والوجه في الآيتين وأشباههما عندي أنْ يراعى لفظ الكتاب بعد الإيمان به، ويبذل المجهود في انتزاع ما يتفق فيه أكثر الرواة من جهة الأخبار المروية، ومَا هو أشبه بالقصّة وأقرب في التَّدَيّن، ثم يفسَّر تفسير قَصْدٍ[10] لا يخرج فيه عن قصّة الرواية واللفظ، ولا يترك الاستسلام بينهما للجواز، والانقياد للاستبشار، لما عرف من مصالحنا فيما يمنعنا علمه أو يقنعنا عليه، ألا ترى قوله تعالى فيما استأثر

(١) سورة النمل، الآية: ٨٣.
(٢) سورة مريم، الآية: ٩٥.
(٣) سورة مريم، الآية: ٨٠.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ٧.
(٥) سورة الأنعام، الآية: ١٥١ وما بعدها.
(٦) فواتح سُوَر البقرة ويوسف ومريم وطه من التنزيل العزيز.
(٧) سورة المائدة، الآية: ١٠٦ ـ ١٠٨.
(٨) سورة الأعراف، الآية: ١٨٩ وما بعدها.
(٩) سورة الأعراف، الآية: ١٧٢ وما بعدها.
(١٠) في المطبوع: أقصد.

بعلمه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾[1]، وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، بعد قوله تعالى: ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ۝٢٩ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ۝٣٠﴾[2]، ومثل هذا الاستبشار ما فعل الله من الصرفة بيعقوب وبنيه حين أنطوى عليهم خبر يوسف، وكان بينه وبينهم من المسافة ما كان بينهم، ويشبه الصرفة التي ذكرناها ما يفعل الله من سلب الانبساط من الكفّار، فيكون ذلك سبباً للتسلّي فيما يبتلون به من العقاب، وذلك قوله تعالى: ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ۝٣٩﴾[3].

ومنها، التباس[4] حال التاريخ أو ما يجري مجراه في آيتين تتعارضان، أو آية وخبر، فتختلف في الناسخة منهما، والقاضية على الأخرى، وذلك كما روي عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾[5]، وهو أمر بالحكم، فنسخت ما قبلها وهو ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ﴾[6]، وهو تخيير، وروى السُّدِّي عن عكرمة في قوله تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ قال: نسختها: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ وهذا قول أهل العراق، ويرون النظر في أحكامهم إذا اختصموا إلى قضاة المسلمين والأئمّة، ولما روي من رجم النبي ﷺ اليهودية واليهود[ي]، وأما أهل الحجاز فلا يرون إقامة الحدود عليهم، [و] يذهبون إلى أنّهم قد صولحوا على شركهم، وهو من أعظم الحدود التي يأبون ويتأوّلون في رجم النبي ﷺ اليهوديين على أنّ ذلك كان قبل أن تؤخذ منهم الجزية، والمُقارّة على شركهم، وفي هذا القدر بلاغ للمتأمّل.

فأمّا الكلام في المعرفة بالله تعالى ووجوبها، وبيان فساد قول القائلين بالإلهام، فإنا نذكر طرفاً منه ونقول: اختلف الناس في ذلك، فزعم قوم أنّ المعرفة لا تجب على العاقل القادر، وأنها تحدث بإلهام الله تعالى، وكلّ من لم يلهمه الله المعرفة به، فلا حجة عليه، ولا تجب عليه، وقالوا: إنّ الذين قتلهم رسول الله ﷺ لم يكونوا كفّاراً، وإنّما قُتلوا على سبيل المحنة، كما يقتل[7] التائب والطفل، ولا يجب عليهم عقاب، لأنّ الله تعالى لا يجوز أن يغضب على من لم يرد إغضابه.

وقال الجاحظ: إنّ المعرفة غير واجبة، ولكنها تحدث بالطبع عند النظر، وقال: إنّ

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٨٥.
(٢) سورة المدثر، الآية: ٣١.
(٣) سورة الزخرف، الآية: ٣٩.
(٤) في المطبوع: الالتباس.
(٥) سورة المائدة، الآية: ٤٩.
(٦) سورة المائدة، الآية: ٤٢.
(٧) هكذا هو في المطبوع، وأحسبه كما تقبل توبة التائب، فسقط منه شيء وتحرّف.

الذين قتلهم رسول الله ﷺ؛ كانوا عارفين بالله معاندين، واحتجَّ بقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾[1]، وقال: لا يأخذ الله الإنسان بما لم يعلم، ولا بما أخطأ فيه، ألا تراه يقول تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾[2]، واستدلوا على صحة مذهبهم بأن قالوا: إنّ الاعتقاد لا يُعْلَمَ أنه حسن أو قبيح حتى يُعْلَمَ أنّه عِلْمٌ أو ليس بعلم، فإذا عُلِمَ أنه عِلْمٌ فقد عُلِمَ المعلوم، لأن العلْمَ بالعِلْمِ علماً هو عِلْمٌ بالمعلوم، فإذا عُلِمَ المعلوم فقد استُغني عن اكتساب العلْم به، وإن كان لا يعلم أنه علم، فإذاً لا يجب على هذا الإنسان فعل ما لا يأمن من أن يكون قبحاً.

وقال أكثر أهل العلم: إنّ المعرفة واجبة، وهي من فعل الإنسان، وإن أول المعرفة يقع متولِّداً عن النظر، ولا يجوز أن يقع مباشراً، ثم ما بعد ذلك لا يجوز أن يقع مباشراً، وأنّ كلّ من أكمل الله عقله وعرَّفَه حُسْنَ الحَسَنِ وقُبْحَ القبيح، فلا بدَّ من أن يوجب عليه المعرفة به، وأن يكلفه فعل الحَسَن وتَرْك القبيح، وبعضهم يضيف إلى هذه الجملة، وقد جعل شهوته فيما قبحه في عقله ونفور نفسه عمّا حسَّنه في عقله.

ويستدل على وجوب معرفة الله، فإنه لا يخلو من أن يكون قد كلفنا الله لحسنها، وقبح الذهاب عنها، أو لم يكلّفنا، وتركنا سدىً، فإنّ الإهمال لا يجوز عليه، ويقال أيضاً: نحن نرى على أنفسنا آثار نِعَم، ونعلم وجوب شكر المنعم، فإذاً يجب أن نعرف المنعِمَ لنشكره.

واعلم أنّ المعجز هو ما لا يُقْدَرُ عليه في صفته؛ أو في جنسه، فأمّا ما لا يُقْدَرُ عليه في جنسه فهو مثل إحياء الموتىٰ، وأمّا ما لا يُقْدَرُ عليه في صفته، فهو مثل فَلْقِ البحر، لأنّا نقدر على تفريق الأجسام المؤتلفة، ولكن على تلك الصفة وتلك الحالة لا نقدر عليه، فأمّا الخبر عن الغيوب، فليس بمعجز، ولا وقوع المُخبِرِ على ما أخبر به معجز، إذ يجوز على الخبر عن الغيب أن يكون صدقاً أو كذباً، وإذ قد ثبت أن يخبر الإنسان عن الشيء أنه يكون فيكون، وليس يعلم في حال الخبر أنّ المخبر به يقع على ما أخبر به عنه، ولا يعلم أنه معجز، وإنّما العلم بأنّ الشيء يكون قبل أن يكون يعجز، بلىٰ، من سمع النبي ﷺ يذكر أنه سيكون كذا وكذا، ويخبر عن الغيب؛ ثم يبقى إلى الحالة [التي] يكون فيها ما ذكره، فحينئذٍ يكون ذلك دلالة وحجة عليه، فأمّا من لم يبق إلى تلك الحالة؛ فهو ليس تقوم عليه الحجة في وقت الإخبار، ولا يصح الاستدلال بذلك، بل يجب أن يدلّه الله بدليل آخر.

فإن قال قائل: كيف يصح أن يكون انقضاض الكواكب رجماً للشياطين، ولا يخلو من

---

(١) سورة النمل، الآية: ١٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٢٥.

أن يكون الذي يرمى به الشيطان ليحرقه كوكب، فيجب أن يفارق مكانه، وينقص من عدد الكواكب، وقد علمنا منذ عُهِدَتِ الدنيا لم تنقص ولم تزد، أو يكون الذي يرمى به شعاعاً يحدث من احتكاك الكواكب واصطكاك بعضها ببعض، فيفصل ذلك الشعاع من الكواكب ويتصل بالجِنّي حتى يحرقه، إذ لو لم يتصل به لم يحترق، وهذا أيضاً لا يجوز، لأنّ الكواكب لا تحتَكّ.

قيل له: إنّ كلّ ما ذكرت غير ممتنع، قد يجوز أن يكون هناك كواكب لا تلحقها العين لصغرها، كما قال قوم في المجرّة إنها كلها كواكب ولا تبين، فيجوز أن يحتك بخاران عظيمان فيحدث الشعاع، ويحترق الجِنّي، وكل ذلك ليس بمستنكر، وعلى هذا جاء في القرآن[١].

وأمّا انشقاق القمر، فإنّ الجاحظ كان ينفيه ويقول: لم يتواتر الخبر به، ويقول أيضاً: لو انشقّ حتّى صار بعضه في جبل أبي قبيس، لوجب أن تختلف التقويمات بالزيجات، لأنه قد علم سيره في كلّ يوم وليلة، فلو انشق القمر لكان وقت انشقاقه لا يسير، فأمّا قوله تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١﴾ فإنّما معناه سينشق، ونحن نثبته ونقول: يكون ذلك دليلاً خُصَّ به عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، وأنّ سائر الناس لم يروه[٢]، لأن الله حال بينهم وبين رؤيته بغمامة أو غيرها، ويجوز أن يكون غير عبدالله رآه، فاقتصر في نقله على رواية عبدالله، وعلى ما نطق به القرآن من ذكره[٣].

فصل الاستدلال بالشاهد على الغائب

لأنه الأصل في معرفة التوحيد وحدوث الأجسام وصدق الرسل

قال الله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدًى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾[٤]، قيل: معناه، يؤمنون بما غاب عنهم من أمر الآخرة، وقيل:

---

(١) ليس من وظائف الكواكب والنجوم رمي مسترق السمع أو رجم الشيطان، وإنما ذلك تختص به الشهب، وقد ورد ذلك في أكثر من موضع من القرآن الكريم، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا ۝٩﴾ سورة الجن، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ ۝١٨﴾ الحجر/ ١٨، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنۡ خَطِفَ ٱلۡخَطۡفَةَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ ثَاقِبٞ ۝١٠﴾ الصافات/ ١٠، وانظر المعجم المفهرس/ شهب، وقد بسطنا القول في هذه المسألة في رسالة ماجستير وسمناها بألفاظ النوء في اللغة والقرآن الكريم، ينظر باب وظائف الكواكب والنجوم ص ٩٥، نوقشت في كلية التربية للبنات بجامعة تكريت سنة ١٩٩٥ م.

(٢) في المطبوع: لم يردوه.

(٣) سبق هذا الكلام قبل بتفصيل أزيد.

(٤) سورة البقرة، الآيات ١ - ٢ - ٣

يؤمنون بما غاب من البعث والنشور وأخبرهم به النبيّ ﷺ، وقيل: المراد، يؤمنون بالله ورسوله وما أُنزل إليه بظهر الغيب، لا كالمنافقين الذين يقولون للمؤمنين إنّا معكم ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ۝١٤﴾[1]، ومثله قوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾[2]، وقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾[3].

واعلم أنّ من لا يفعل ذلك لم يجز له أن يعرف شيئاً إلاّ من جهة المشاهدة، أو ببداهة العقل، أو بخبر ممّن شاهده، ولو كان كذلك لسقط الاستدلال والنظر، ولما جاز أن يعرف الله ولا حدوث الأجسام؛ ولا صدق الرسل فيما أتت به من عند الله، لأنه يجوز أن يعرف الله بالمشاهدة ولا ببداهة العقل، لأنه لا يشاهد، ولأنه لو عرف ببداهة العقل، لاستوى العقلاء في معرفته، فوجب بهذا أن لا يعرف الله إلاّ بدلالة المشاهدة، وكذلك حدوث الأجسام، ولسنا نريد باستشهاد الشاهد أن نستدل به على ما لم نشاهده إلاّ بالشاهد نظيره ومثله.

ألا ترى أنا لو شاهدنا في هذا البلد إنساناً، لم نعرف بذلك أنّ في غير هذا البلد إنساناً آخر، من غير أن نشاهده، ولكن هو أنّا إذا وجدنا الجسم في الشاهد إنّما كان متحركاً؛ لوجود حركته، ثم وجدنا حركته، ثم وجدنا حركته لا توجد إلاّ فيه، ومتى بطلت حركته لم يكن متحركاً، دلّنا ذلك على أنّ كلّ جسم متحرك فيما لم نشاهده لم يكن متحركاً إلاّ لوجود حركته، ولا توجد حركته إلاّ فيه، ومتى بطلت حركته لم يكن متحركاً، لأنه لو جاز أن يكون متحركاً في الغائب مع عدم حركته، لجاز في الشاهد مثله، وكذلك إذا وجد الجسم في الشاهد إنما كان جسماً لأنه طويل عريض عميق، ومتى عدم طوله أو عرضه أو عمقه؛ لم يكن جسماً لزمه أن يعلم بدلالة الشاهد أنّ الجسم الغائب إنّما كان جسماً لمثل ذلك، وكذلك إذا وجد الجسم في الشاهد، لا يكون في مكانين في وقت واحد، لأنّ وجوده في أحد المكانين ينافي وجوده في المكان الآخر، [و] كان علينا أن نجري القضية في الغائب على حَدِّه، وكذلك القول في امتناع اجتماع الضدَّينِ، والحركة والسكون، والسواد والبياض، والاجتماع والافتراق، بحسب أن يراعي حالها في الشاهد، فيحمل الغائب عليها، وإذا كان الأمر كذلك وجب أيضاً أن يكون إذا وجدنا الفعل في الشاهد لا يوجد إلاّ من فاعل، ولا يحصل موجود إلاّ بفعله له ثم وجدنا فعلاً لم نشاهد له فاعلاً أن نعلم بدلالة الشاهد أنّ له فاعلاً؛ وإن كنا لم نشاهده، ولا يجب إذا لم نجد إلاّ أجناساً من الأشياء أن لا يثبت في الغائب خلافاً لما شاهدنا، لأنّ الأعمىٰ الذي لم يشاهد الألوان قط لا يجوز له أن يثبت شيئاً إلاّ من جنس ما شاهده بسائر جوارحه، إذ قد ثبت الألوان التي هي خلاف جميع ما شاهده، وإن كان هو لم يشاهد؛ وكذلك الحياة والقدرة والعلم، ولا يشاهد؛ ولا شوهد

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٤.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٥٢.
(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٤٩.

نظائرها، ولا يجب مع ذلك أن لا نثبتها مع وضوح الأدلة عليها، فلم يجب علينا لمن أراد منّا نفي القديم، إذ كنّا نشاهد له مثلاً ولا نظيراً أن ننفيه من أجل ذلك إذ كان يجوز أن نثبت بالأدلة ما لا نظير له كما مثلناه.

وإنما يجب تكذيب من وَصَفَ الغائب لصفة الشاهد، ثم أزال عنه المعنى الذي استحق الشاهد به تلك الصفة، فأمّا متى أثبت في الغائب شيئاً مثبتاً من غير أن يكون بصفة المشاهد الذي وجبت له هذه الصفة لعلة، وقال مع ذلك أنه غير مثبت لما شوهد، لم يجز أن نبطل قوله بما شاهدنا إذ كان يجوز أن يكون ما ادّعاه خلافاً لما شاهدناه، كما لم يكن للأعمىٰ إنكار الألوان إذا أخبرناه بها من حيث كانت مخالفة لما شاهده بسائر جوارحه، ولم يكن لأحد أن ينكر الحياة والقدرة، لأنهما خلاف ما شاهده، ولكن يجب أن يطالب بالدلالة على صحة الدعوى، فإذا ثبتت ثبت مدلولها، وإلاّ سقطت الدعوى، وهذا أصل القول في استشهاد الشاهد على الغائب، فاعلمه.

فصل

في أسماء الله وصفاته وأحكامها وبيان الأصوات كيف تكون حروفاً والحروف كيف تصير كلاماً

إعلم أنّ الأصوات جنس من الأعراض، تحته أنواع تعلم، فإذا توالى حدوثها منقطعة بمخارج الفم وما يجري مجراها سميت حروفاً، لذلك قيل: الكلام مهمل ومستعمل، فالمستعمل: ما تناولته المواضعة أو ما يجري مجراها من توقيف حكيم، فجعل عبارة عن الأعيان أنفُسها[1]، وعنها بأحوالها، والمهمل: ما خالف ذلك، وإنّما قلنا هذا لأنّ جنس الصوت لا يقتضي كونه حرفاً ولا كلاماً متى لم تطرأ المواضعة عليه[2] وما جرى مجراها، والمواضعة لا تصح إلاّ مع القصد إليها، لذلك قيل: ما ينقسم إليه الكلام من الخبر والأمر والنهي والاستخبار لا يكاد يحصل مفيد إلاّ بإرادة غير القصد إلى المواضعة، لهذا متى ورد الكلام من سفيه لم يفد السامع شيئاً كما يفيد إذا ورد من الحكيم على المخاطب العارف بالمواضعات؛ لما تعذرت معرفة قصده، وصار الصدق والكذب تستوي حالاتهما، وتقام صور أنواع الكلام بعضها مقام الآخر حتى يوجب ذلك التوقف عن قبول الأخبار، وترك القطع على ما يسمع منها إلاّ مع البيّنة.

وأعلم أنّ الحاجة إلى المواضعة بالأصوات هي البيان على المراد لما كان الكلام

---

(١) في المطبوع: أنفسهما.

(٢) في المطبوع: عليها.

المستعمل تنبهاً عليه، فلذلك يستغني الحكيم فيما عرف مراده عن الخطاب، إلاّ عند كونه لطفاً في فعل المراد، ومتى أمكنه بالإشارة والإيماء بيان غرضه، عدل عن الخطاب، إلاّ أن يكون لطفاً كما ذكرناه، ولمّا كان الأمر على ذلك اختلفت العبارات لاختلاف المراد، واحتج إلى التبيّن بعد ذلك، إذ كان الكلام بنفسه لا يدلّ على ما وضع له؛ ولا بالمواضعة والتوقيف.

فإن قيل: فما الفرق بين المهمل والمستعمل حينئذٍ؟ قلت: الفرق بينهما أنّ الحكيم متى تكلم بكلام مستعمل صحَّ أن يعرف السامع لكلامه مراده بما يقارنه من الدليل غير الكلام، ومتى تكلم بكلام مهمل لم يجز أن يعلم مراده، وإن قارنه ما قارنه، وكان وجوده وعدمه بمنزلة، ولو كان الكلام دليلاً يجوز الاستطراق منه إلى ما وضع له قبلها، لأنّ الدلالة لا تحتاج في كونها دلالة يجوز الاستطراق منها إلى مدلولها إلى المواضعة، وإنما يحتاج في تسميتها دلالة إلى المواضعة، لأنهم يسمونها دلالة إذا أراد فاعلها عند فعلها الاستطراق منها إليه، ولذلك لا يجوز أن يسمّىٰ فعل اللصّ دلالة عليه، وكذلك فعل البهيمة، وإن جاز الاستطراق منها إليه، ولهذا جاز أن يعرف الله بدلائله من لا يعرف شيئاً من المواضعات.

واعلم أنّ الكلام لما وضع [وضع] للإبانة عن مراد المخاطب للمخاطب، لأنّ الغرض فيه إعلامه حدوث الشيء، إذ إعلامه أنه يريد منه إحداثه، أو إعلامه أنه يكره منه إحداثه، والحدوث لا يكون إلاّ للذوات، ولم يكن بدٌّ من إعلامه العبارات عن ذوات الأشياء، ليجوز منه أن يفرق الحدوث بها على وجه المراد، انقسم الكلام أربعة أقسام:

الأول: عبارة عن الأعيان أنفسها، وهي الأسماء.

الثاني: عبارة عن حدوث الشيء، وهو الخبر عنه.

الثالث: عبارة عن إرادة إحداثه، وهي الأمر به.

الرابع: عبارة عن كراهية إحداثه، وهي النهي عنه.

والأسماء على ضربين:

الضرب الأول: اسم وضع لتعريف المسمّىٰ به، وليكون عَلَماً له دون غيره، فيقوم مقام الإشارة إليه عند غيبته، أو لاشتمالها عليه، ويسمّىٰ هذا الضرب لَقَباً، ولا يفيد في المسمّىٰ به شيئاً، ولا يدخله الحقيقة والمجاز، إذ كان لا يتعلق بفعله، ولا بحاله، ولا بشيء ممّا يحلّه أو يحلّ بعضه، ولا يوجب الاشتراك فيها اشتراكاً في غيرها[1]، كما لا

(١) يريد الإشارة التي هي الضرب الأول.

يوجب الاشتراك في غيرها اشتراكاً فيها، وقال بعضهم: هذا القبيل ثلاثة أقسام:

القسم الأول: وضع تعريفاً لآحاد الأشخاص، كزيد وعمرو.

القسم الثاني: وضع تعريفاً لآحاد جمل الأشخاص، وليقوم مقام تعداد ذكر جميعها كقولك: إنسان وأسد وحمار وطائر، ولذلك لا يتعلق شيء من أوصافها ولا بما يحلها ويوجب الاشتراك فيها اشتراكاً في الصورة دون غيرها، وتسمية أهل اللغة الجسم جسماً من هذا، لأنه وجب له هيئته وتركيبه، ولذلك لم يجز إجراؤه على الله تعالى.

القسم الثالث: وضع تعريفاً لآحاد جمل الأجناس المختلفة المشتركة في باب التعلق بغيرها على وجه واحد، ليقوم مقام ذكر جميع الأجناس الداخلة تحتها، وهذا كاللون والكون والاعتقاد والسهو، وما يجري مجراها، وهذا النوع يسمّى جنس الفعل، ويلزم الاشتراك فيها اشتراكاً في نوعيتها.

الضرب الثاني على وجهين:

الوجه الأول: اسم [جرى] على المسمَّى به تعريفاً لجنسه[1]، وللتمييز بينه وبين ما خالفه، وإن شاركه في التسمية غيره من طريق القياس، لاشتراكهما في الفائدة، ورسم بأنه اسم جنس، لمّا كانت المسميات به أعداداً كثيرة مماثلة، وهذا كالسواد والبياض والحمرة والخضرة والحلاوة، وما جرى مجراها يوجب مماثلة الموصوفين بها، فلذلك استحال اشتراك المختلفين بالذوات في اشتقاق الوصف بها.

الوجه[2] الثاني: اسم جرى على المسمّى ليفيد فيه ما يفارق به غيره ممّا لم يشاركه فيه، من غير أن يكون افتراقهم في الوصف موجباً لمخالفتهم، كما لم يوجب اشتراكهم في ذلك مما يليهم في اللفظ بل في المعنى أوجب ذلك لكونه جواهر، ورسم بأنه صفة، وإذا قُصد به الإكرام في التعلق قيل: إنها مدح، كما إذا قصد بها الاستخفاف قيل: إنها ذم، إذ كانت لا تخلو من الحسن أو القبح، وهي على وجوه:

الوجه الأول: صفة تفيد في الموصوف معنى حَالاً فيه، وذلك كقولك: متحرك وساكن، وأسود وأبيض، وحلوٌ وحامض، ورسمت[3] هذه الصفات بصفات المعاني، لأنها علل في إجراء الوصف على محالّها من طريق الاشتقاق، فلذلك أخذ الاسم من لفظها،

---

(١) في المطبوع: لجنّه.

(٢) في المطبوع: النوع.

(٣) هكذا رسم اللفظ في المطبوع، وأحسبه وُسمت بالواو، وكذلك فيما سيأتي بعد.

والاشتراك في هذه الصفة يوجب الاشتراك فيما أفادته، ويقتضي مماثلة الموصوفين في المعنى لكونها جوهراً.

الوجه الثاني: صفة تفيد كون الموصوف فاعلاً لمقدوره، والاسم يجري عليه مشتقاً من لفظ اسم فعله، وهذا كقولك: ضارب وشاتم ومتكلم، ورسمت هذه الصفات لصفات الفعل، ولا يوجب الاشتراك في هذه الصفة تماثل الموصوفين، لا بالمعنى ولا باللفظ، كما أوجب في الأولى.

الوجه الثالث: صفة تفيد الإضافة والنسبة، وذلك كقولك: هاشمي وبصري، ودار زيد وغلام عمرو، فباتصال الياء المشدّدة بالاسم صار صفة، بعد أن كان عَلَماً، أو غير صفة.

الوجه الرابع: صفة تفيد وجود الموصوف بما تجري[1] عليه هذه الصفة، وترجع إلى غيره، وهذا كوصف الاعتقاد بأنه عِلْمٌ أو جهل أو تقليد أو ظنّ، ووصف العلم بأنه غمّ أو سرور، ووصف السهو بأنه نسيان، وكوصف الكون بأنه حركة أو سكون، أو مجاورة أو مفارقة، وكوصف الحروف بأنّها كلام، والكلام بأنه خبر أو أمر أو نهي، ووصف الإرادة بأنها عزم أو قَصد أو خَلْق، وكذلك جميع ما يجري [مجراها]، والاشتراك في هذه الصفات يوجب اشتراك الموصوفين بها فيما أفادته دون غيرها مما يجري مجرى تَمَاثُل ذواتها واختلافها.

الوجه الخامس: صفة تفيد كون الموصوف بها على حال من الأحوال، وهذا كوصف الشيء بأنه معدومٌ أو موجودٌ، أو حَيٌّ، أو قادرٌ، أو عاجزٌ، أو معتقدٌ، أو عالمٌ، أو جاهلٌ، أو ساهٍ، أو مريدٌ، أو كارهٌ، أو سميعٌ، أو بصيرٌ، وعلى الأحوال التي إذا كان عليها إدراك المدركات؛ يسمّىٰ به الشيء لتَهَيّئاً ذكره، والإخبار عنه، وهو قولهم: شيء ونفس وعين وذات، وكذلك الأسماء المضمرة والمبهمة نحو، هو وأنت وذلك وهذا، والهاء في ضربته، والياء في ضربني، وفرّقوا في بعضها بين المذكر والمؤنث، والواحد والجمع، وهذه الصفات والأسماء التي نوّعناها وأشرنا إليها مقتسمة بين الحقيقة والمجاز، وسنبين كيفية وضعها واستمرارها وانقطاعها في البابين، إن شاء الله تعالى.

فصل آخر

إعلم أنّ اللغة لا يجوز أن يكون فيها غلط، وذلك أنه إن كان الله تعالى واضعها على ما يذهب إليه أكثر العلماء، وعلى ما أخبر به عند قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾[2]،

---

(1) في المطبوع: بها يجري.
(2) سورة البقرة، الآية: ٣١.

فلا يجوز أن يكون فيها غلط، لأنّ الحكيم الذي بيّنها لعباده لا يجوز عليه الغلط، وإن كان يجوز أن يكون قد ذهب عنهم بعض ما بيّنه لآدم عليه السلام، وأحدثوا أبدالاً منه، أو زادوا عليه، على حسب الدواعي والحاجة، ولو كانوا فعلوا ذلك لما جاز أن يعلم أحد تغيّرهم لذلك إلاّ بخبر من الله ينزله على نبي من أنبيائه، لأنّ اللغات لا تعرف إلاّ من جهة السمع، ولا تعرف بدلالة العقل، ولو كانوا غيّروها بأسرها لما أنزل الله القرآن بها على لسان محمد ﷺ، وإن كان ابتداء اللغة من كلام العباد وتواضعهم على ما يقوله بعضهم، فلا يجوز أن يقع فيها أيضاً غلط، لأنهم إنّما سمّوا الأشياء بأسماء جعلوها علامات لها لتعرف بها، وليكون التباين والتمايز منها، وإذا كان أصل كلامهم ولغتهم، جروا فيه على ما بيّنّا، فلا يجوز أن يكون فيها غلط، لأنّ الحكمة تلحقه ولا تفارقه في الحالتين جميعاً، وإذا ثبت ما بيّنّاه من أمر اللغة؛ ووجدنا انقسامها إلى الحقيقة والمجاز، والحقيقة: ما وضع من الأسماء للمسميات على طريق اللزوم لها، والإطّراد فيها، لأنّها يحق لها عند التعبير عنها، وأمثلتها ما قدّمناه، والمجاز: ما أجري على الشيء وليس له في أصل الوضع تجوزاً على طريق الاستعارة، وتفاصحاً منهم وافتناناً، ويكون قاصراً عن الأصل وزائداً عليه ومماثلاً له، وكيف اتفق يكون مستفاده أبلغ من مستفاد الحقيقة، ولذلك عدل إليه نظرنا، فوجدنا طريق استحقاق الموصوفين من وجوه أربعة:

الوجه الأول: طريق الاختصاص والاستبداد، وهو المرسوم لصفات النفس، ليفيد في الموصوف أنه مستبدّ بها ومستغنٍ بكونه عليها عن غيره، وأنه مختصّ بها، من غير أن يجعل نفسه كالعلة الموجبة للمعلل، ولا قائمة مقامها، وهذا كوصف المُحدِث بأنه موجود وحيّ وقادر وعالم وسميع وبصير، وما جرى مجراها، ولذلك رسمت بصفات التوحيد، لمّا توحّد الله بطريق استحقاقها، فلم يشاركه فيها غيره، مع جواز وصفهم بها لاستحقاقهم لها من غير هذا الوجه.

الوجه الثاني: طريق المعاني الموجبة لها، وهو المرسوم بصفات العلل، ليفيد في الموصوف بها أنه مستحق بها بالعلة الموجبة له عند تعلقها به دون غيره، وهذا كوصف المُحدِث بأنه عالم وقادر وحيّ وسميع وبصير، ووصف كل موصوف بأنه مريد وكاره، وكقولهم: مشتهٍ ونافر النفس، وما شاكل ذلك.

الوجه الثالث: من طريق القادرين، وهو المرسوم بصفات الفعل، ليفيد في الموصوف بها أنه مستحقّ لها، بكون القادر قادراً عند فعله. وإيجاده إياه دون غيره، وهذا كوصف المحدث بأنه موجود لمّا كان معدوماً ومقدور القادر عليه، وليس في الأحوال ما يتعلق بالقادر غير المعدوم الموجود.

الوجه الرابع: من طريق استحالة ضدّها على الموصوف بها، ورسمت بالصفات اللازمة، لتفيد في الموصوف بها أنه مستحق لها على طريق اللزوم له؛ من غير أن يكون محتاجاً في ذلك إلى غير ما يوجبها له، كالعلة وما يجري مجراها، ومن غير أن يكون مختصاً به، كصفات النفس، وهذا كوصف الشيء بأنه معدوم، ومعنى المعدوم أنه لا يجوز أن يحصل له من أحكامه التي تخصه وصفاته الجائزة عليه شيء، كما أنّ الموجود هو الذي يكون على حاله يلزمه جميع أحكامه به، والموجبة له، فلذلك قلنا: إنّه لا يكون معدوماً بفاعل، ولا بمعنىً، ولا بنفسه، لمّا لم يكن له واسطة بين الوجود والعدم، فلذلك لزمه العدم عند استحالة الوجود عليه، فأمّا الأوصاف التي تتعلق بالأعيان مما لا تكون عبارة عن أحوالها، بل هي إخبار عنها وعن غيرها، لاختصاصها بها في باب الحلول أو التعلق، أو ما يجري مجراهما، فليس لها علّة، ولا ما يجري مجراها، ولا يجوز أن يكون شيء من ذلك بالفاعل. . .

واعلم أنّ أعمّ الأشياء قولنا: شَيءٌ، لأنه يتعلق بالمسمّى لكونه معلوماً فقط، ومستحيل أن يكون ذات غير معلومة، أو ذات على حال غير معلومة عليها، أو غير جائز أن يكونا معلومين، فإن كان العلم لا يحصل بالحال التي عليها، لأنّ العلم بالذات هو الذي منه يصل إلى العلم بالحال، ولذلك كان الذات لا يخلو من الوجود والعدم معاً، إذ لو لم تكن الذات معلومة في العدم للقديم تعالى، لم يصح منه القصد إلى اختراعها وإيجادها، وليس قولنا شيء مثل قولنا موجود، بدلالة أنك تقول: هذا شيءُ زيدٍ، فتضيفه، ويمتنع أن يقال: هذا موجود زيدٍ، وكان يجوز أن يحدَّ القديم بأنه الشيء لم يزل، والمحدث بأنه الشيء عن أوّل، كما يقال: هو الموجود لم يزل، والموجود عن أول، وإذا كان قولنا معلوم غير متعلق بفائدة فيه، وإنما تتعلق فائدته بغيره، فالواجب أن لا يكون قولنا شيء مفيداً من هذا الوجه.

ويمكن أن يقال: إنّه يفيد الذات، فكلّ ذات تسمّىٰ شيئاً، وكلّ شيء يسمّىٰ بذات، ويمكن أن يقال أيضاً: إنّه يفيد المعلوم؛ فصلاً بينه وبين ما يسمّىٰ محالاً، كاجتماع الضدّين، لأنّ مثل ذلك لا يصح علمه، قال: وليس يخرج الذات من أن يكون على حال مع كونه عليها، يجوز أن يستحق غيرها؛ ولا يجوز، فإن كان يجوز، عبّر عنها بأنّها موجودة، وإن كان لا يجوز، عبّر عنها بأنها معدومة، فلذلك يسمّى المعدوم بالشَّيء، كما يسمّى الموجود به، لمّا كانا معلومين في الحالين جميعاً لذلك.

قلنا: المراد بقولنا موجود، أفاده حال من أحواله أيضاً، وحالة له أخرى وهي العدم، وفائدة قولنا معلوم أنّ عالماً عَلِمَهُ، لذلك جاز أن يقال: مَعْلُومُ زيدٍ للشيء الذي هو مجهولُ عمروٍ، والحال واحدة، ويستحيل أن يقال للشيء أنّه موجود زيد أو معدوم عمرو على الأحوال كلها.

واعلم أن الله تعالى لمّا أوجب في حكمته عند تكليف المكلفين مداواة دائهم بالرحمة لهم؛ والعطف عليهم، والحلم عنهم، وطلب صلاحهم من حيث لا يدرون، ويألفهم من جانب لا يشعرون، رسم لهم في تعبّدهم الرجوع إليه في مهماتهم، وسوّغ لهم دعاءه في رفع مأربهم فقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾[1]، و ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾[2] الآية، ثمّ أنزل في محكم كتابه من أسمائه ما بصّرنا وهدانا، ومن صفاته ما قوّى إيماننا وإرشادنا، لولا ذلك والتأسي بالنبي ﷺ في أفعاله، وقبول أقواله التي بها إبطال الضلال، وإذا كان كذلك، فإنّ ما أثبتته التلاوة ينضاف إليه ما دوّنته الرواية عن الصحابة والتابعين، وما عدا ذلك ممّا لهج به ألسنةُ فصحاء الأمة والصالحين من أهل اللغة.

فقد روي في التفسير أن قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، أنه تسعة وتسعون إسماً، مَن أحصاها دخل الجنة، وجاء في الحديث: «أنّ اسم الله الأعظم، الله»[3]، وروى أبو هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «لله مِئَةُ اسْمٍ غَيْرُ وَاحِدٍ مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ»[4]، فيجب أن ينظر فيه فيما سَبَكه التحصيل، كما ذكرناه، ويُنَقّىٰ من دَرَن الغباوة، ويتلقّىٰ بالقبول فيما يجوز إطلاقه على القديم تعالى، والباقي بتوقف فيه، كالوصف والصفة جميعاً لا يكونان إلاّ كلاماً وقولاً، فهو كالوعد والعدَةِ.

وسمعت شيخنا أبا عليّ الفارسي يقول: أسماء الله تعالى كلها صفات في الأصل إلاّ قولنا: الله والسلام، لأنّ السلام مصدر، ولفظ الله بما أحدث من صفة، ولزوم الألف واللام له يعد من الصفات، فصار متبوعاً لا تابعاً؛ كالألقاب، يريد يتبعه بالصفات ويقدّم به، ومعناه، الذي تحقّ له العبادة، فإذا قلنا: لم يزل إلهاً الذي حقت له العبادة من خلقه إذا وجدهم، وقولنا: إله، نكرة، ويجمع على الآلهة، قال تعالى: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾[5]، واشتقّ منه، تألَّهَ الرَّجُلُ إذا تنَسَّكَ، قال[6]:

سَبَّحْــنَ وٱسْتَــرْجَعْــنَ مِــنْ تــألُّــهِ   لِلَّـــهِ دَرُّ الغَـــانِيَـــاتِ ٱلْمُـــدَّهِ

وروي عن النبي ﷺ أن عيسى عليه السلام قال له رجل: مَا الله؟ قال: الله إلَهُ الآلهة، وروي عن ابن عباس أنه ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، وروي في قوله تعالى:

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٨٠.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٦.
(٣) وفي لسان العرب نقلاً عن الليث بن المظفر: بلغنا أنّ اسم الله الأكبر هو: الله لا إله إلاّ هو وحده.
(٤) الذي في صحيح مسلم ٤/ ٢٠٦٣: إن لله تسعة وتسعين اسماً، مئة إلاّ واحدا من أحصاها دخل الجنة.
(٥) سورة ص، الآية: ٥.
(٦) بلا عزو في لسان العرب/ أله، وقد غايره هنا فجعل الشطر مكان العجز، وحرّف القافية إلى المبدرة.

﴿ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ﴾[1] أن معناه، وعبادتك، فالأصل، إلَه، حذفت الهمزة منه وجعل الألف واللام عوضاً منه لازماً، وأدغم في اللام التي هي عين الفعل، فصار الاسم بالتعويض والإدغام مختَصّاً بالقديم، حتى كأنّه ليس من الإلَه في شيء، قال سيبويه: ومثله أُناسٌ والناسُ، يريد في حذف الهمزة، لا في التعويض بدلالة قوله[2]:

إنَّ المَنَـــــايَـــــا يَطَّلِعْـــــنَ علـــىٰ الأُنَـــاسِ الآمِنِينَـــا

فجمع بين الألف واللام والهمزة، ولو كان عوضاً لما جاز الجمع بينهما، وقد قيل في قوله تعالى: ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ ﴾[3] أنّ الاسم الذي لا سَمِيّ له فيه هو قول القائل: الله، بهذه البنية الوصفية[4]، وقولهم في صفات الفعل: يا غِياثَ المستغيثين، ويا رجاء المرتجين، ويا دليل المتحيّرين، موضوع موضع الاسم، وكل ذلك مجاز وتوسع، وكذلك قولنا: قديم، إنما وجب له هذا لتقدّمه، لا إلى أوّل، فهو صفة لذاته، وليس ثبت بهذا معنى يسمّى قدماً، وقوله تعالى: ﴿ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ ﴾[5]، وفي آخر: ﴿ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾[6]، يراد به تقدم له، وإن كان القصد إلى المبالغة.

فإن قيل: فهل يوجب إجراء لفظ القديم على الله تعالى، وعلى الواحد منّا كما ذكرت تشبُّهاً به؟ قلت: لا وذلك لأن الله تعالى قَدُمَ وتقدّم لنفسه، والمُحدِث يقدم بأنّ الفاعل فعله في الأوقات المتقدِّمة، وإذا كان كذلك فقد اختلف موجب الصفتين، فلم يجب منهما تشبيه، وعلى هذا قولنا: عالم في القديم والمحدِث، وقادر، وسميع، وبصير، وحيّ، وقدير، وعزيز، ومَلَك، ومالك، ومليك، على أنه لو ساعدت العبارة، لكان تفرّد ما يستحق للذات بعبارة تلزمه، ويخالف بها غيره، وكانت الحيطة في ذلك، لكنهم استطالوا ذلك، وكان يكتفي بعلم الذات من لا يعلم حالها المختصّة بها، فاقتصدوا في العبارة، كما اقتصدوا في الأخبار في بابَي التذكير والتأنيث، فأجروا ما لا يصح وصفه بالتذكير الحقيقي، ولا التأنيث الحقيقي مجرى غيره في العبارة، وكذلك في الإخبار عن الله تعالى، وإضمار أسمائه في الاتصال والانفصال إذا قلت: هو وأنت وإياك ورأيته ورأيتك، ومثل ذلك اقتصادهم في صفات ما غاب عنّا من أمور الآخرة، وأهوال القيامة، وطيّ السماوات،

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٢٧.
(٢) لذي جدن الحميري كما في المعمرون ص ٤٣، والبيت في مجالس العلماء للزجاجي ص ٧٠، والخصائص ٣/١٥١، والجنىٰ الداني ص ٢٢١، وقول سيبويه في الكتاب ١/٣٠٩.
(٣) سورة مريم، الآية: ٦٥.
(٤) في المطبوع: الصفية.
(٥) جزء من الآية ٣٩، من سورة يس.
(٦) سورة الأحقاف، الآية: ١١.

وتبديل الأرض غير الأرض، إلى غير ذلك ممّا أخفيت حقائقه عنّا، فاقتصروا في بيانها على عبارات لا تستوفيها، وعلى كنهها لا يؤدّيها، وهو ما نستعمله إذا عبّرنا عمّا نشاهده.

فأمّا الفصل بين السامع والسميع، حتى قيل: لم يزل الله سميعاً، وامتنع لم يزل سامعاً، فهو أنّ السميع لا يقتضي مسموعاً فيعدّى إليه، والسامع لا بدّ له من مسموع، والمسموع لا يكون مسموعاً حتى يكون موجوداً، وذلك بدافع قوله: لم يزل، وهذا كما تقول: هو عالم وعليم في كلّ حال، ثم تمنع من أن تقول: لم يزل الله عالماً بأنه خَلَقَ زيداً، إذ كان ذلك يوجب وجود زيد في الأزل، وعلى ما ذكر من الاقتصاد والاختصار تركوا العبارة عن أشياء؛ وإن أدركها الفهم لقلة البلوى بها، وذلك تركهم [ما] وضع في الصناعات المستجدّة، ما أحدث من الأسماء ووضع في الشرع، أو نقل ما وضع ونقل.

وأمّا الأسماء المشتقة من الأعراض التي ليست مهيّأة، كقولهم: فاعل، ومحدث، وعادل، وجابر، وصادق، وكاذب، ومريد، وكاره، فإنّها لا توجب تشبهاً، وذلك أنّ الإنسان قد يكون فاعلاً لفعل لا يحل به، والفعل لا تختلف به هيئته عند أحد ممن يدركه، ألا ترى أنّ هيئته لا تختلف لما يفعل في غيره من الحركات والتأليف والافتراق والعدل والجور، ولا الإرادة والكراهة، ولا الأمر والنهي، فلم يجب أن تكون تسميتنا بهذه الأسماء للمُسَمَّىٰ بها إذا استحقها تشبهاً له، لأنّ التشبه في الشاهد لا يعقل إلاّ من وجهين اثنين، أحدهما اشتباه بالهيئة كالأسود، والأسود والطويل، أو يشبهان بأنفسهما وأن يكونا من جنس واحد نحو البياض والبياض، والتقدم والتقدّم، والتأخّر والتأخّر، وما جرى هذا المجرى من الأجناس المتفقة بأنفسها، فلما كانت تسميتنا بالفاعل لا يوجب جنسيته ولا هيئته لم يوجب تشبهاً، وهذا كقولهم: آمرٌ وناهٍ، وقائل ومعلوم ومذكور، فأمّا رحيم ورحمن فهما من الرحمة، وبناآن للمبالغة، وحقيقة الرحمة النعمة إذا صادفت الحاجة.

وذكر بعضهم أنّ الرحمن هو الاسم الذي لاسم القديم سبحانه فيه، وليس كذلك، لأنهم قالوا لمسيلمة: رحمن، وقالوا أيضاً فيه: رحمن اليمامة، وذكر بعضهم أنه لما سمعوا النبي ﷺ يذكر الرحمن قالت قريش: أتدرون ما الرحمن؟ هو الذي كان باليمامة، وإذا كان كذلك، فما بقي إلاّ أن يكون لفظة الله هي التي لا سميَّ فيها، فإن قيل: فقد نرى الفاعل هيئته تخالف هيئة من ليس بفاعل، والقائل منّا له هيئة تخالف هيئة الساكت، قيل له: لم تخالف هيئته هيئة الساكت بالقول، وإنّما خالفت هيئاتهما بالسكون الذي في شفتي الساكت، وبالحركات التي في لسان المتحرك، لا بالكلام، فإذا كان الله يفعل الكلام والأمر والنهي من غير أن تحلّ فيه حركة، صحّ أنه لا تكون تسميتنا إياه آمراً وناهياً، أو متكلماً تشبيهاً.

وعلى هذا قولنا: العالمُ والحيّ والقادر والسميع والبصير، لأنّ شيئاً من ذلك لا يوجب تجنيساً ولا تركيباً ولا هيئة، فإن قال: أليس العالم في الشاهد يحل العلم فيه أو في بعضه، وكذلك الحيّ، فلم زعمتم أنّ الحيّزَيْنِ لا يشتبهان لحلول الحياة فيهما، قلت: إنّ الحياة ليست بهيئة لهما فيشتبهان بها عند حلولها فيهما، ولو كانا مشتبهين بسائر هيئاتهما، فإن قال: فيلزمكم أن لا يكون من وصف الله تعالى بأنه يحلّه العلم والحياة مشتبهاً بخلقه، قيل: ليس هو بهذا القول مشبّهاً، ولكن بتجويزه حلول الأعراض فيه يكون مشبهاً، لأنّ ذلك يرجع إلى الهيئة.

واعلم أنّ الصفة قد تجري على الموصوف من وجهين، في أحدهما يجب له عن اختصاص واستبداد، فيكون للذات، ويقترن بما لم يزل، وفي الثاني تقصر غايته فتقف دون موقف الأول، وذلك كقولنا بصير ومبصر، لأنهما للذات، إلاّ أنّ مبصراً يتعدّى إلى مبصر موجود، ولذلك لم يجز أن يقال: لم يزل مبصراً، كما قيل: لم يزل بصيراً، وعلى هذا قولك: رأىٰ يتصرف على وجهين.

فإن أُريد أنه عالم قلت: لم يزل الله رائياً، وإن أُريد أنه مبصر للمبصرات امتنع منه، لأنّ المرئي المدرك لا يكون إلاّ موجوداً، وعلى هذا قولك: الصمد، إن جعلته بمعنى السيّد قلت: لم يزل الله صمداً، وإن قلت: هو من الصمد إليه من العباد والقصد امتنع أن يقال: لم يزل صمداً، ومثله كريم، يراد به العزّ فيقال: لم يزل كريماً، وهو أكرم عليّ، ويراد به الإفضال، فيكون من صفات الفعل، ومثله حكيم، يكون بمعنى عالم، فيقال: لم يزل حكيماً، وإن أُريد به أنه يحكم الفعل، لُحِق بصفات الفعل والصفات المُستحقة من طريق اللغة الحقيقية والمجازية، فإنّها تجري عليه تعالى متى لم يمنع مانع من جهة العقول والشرع، فإن التبس الحال يختار الأكرم فالأكرم، والأبعد من التشبيه فالأبعد، وذلك لمجانبتنا لأن نصفه بأنه يعقل أو يحسّ أو يفقه، ويستبصر ويتقن، أو يفطِن أو يفهم، أو يشعر لما تتضمنه هذه الألفاظ من الأحوال التي حصولها لا يليق بالله تعالى.

فإن قيل: هو شاهد، وشاهد كلّ نجوى، وقريب مجيب، ومطلع على الضمائر، قلت: أجرينا عليه هذه الألفاظ مجازاً وتوسعاً، ولأنها بكثرة دورانها في ألسنة السلف الصالح، والإشارة بها إلى ما لا يخيل ولا يلتبس من القصود السليمة انتفىٰ عنها ما يلابس غيرها من كلّ موهم، ولمثل هذا أجري قَوِيّ في صفة مجرى القادر، وامتنع في شديد ومتين وما أشبهه من أن يجري مجراه، فأمّا قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ ﴾[1]، و ﴿ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ ﴾[2]، وما جرى مجراه، فمثله في البلاغة يسمّىٰ المجانسة والمطابقة، وهو ضرب من

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥. (٢) سورة التوبة، الآية: ٧٩.

المجاز سمِّي الثاني فيه بالأول، ليعلم أنه جزاؤه، وقد أجري إلى مثله، والمعنى، يجازيهم جزاء الاستهزاء والسخرية، ونحو قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾(١)، والثاني لا يكون سيئة.

فإن قيل: فهل يجري التهاتف والتهكم مجرى السخرية فتجيزه عليه إتّساعاً؟ قلت: لا يجوز ذلك لأنّ المجاز لا ينقاس، ألا ترى أنّ أرباب اللغة مجمعون على أنه لا يجوز: سَلِ الجَبَلَ، وإن جاء: ﴿وَسۡـَٔلِ ٱلۡقَرۡيَةَ﴾(٢)، ومثل هذا قوله تعالى: ﴿۞ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾(٣)، وامتناعنا من بَعْدُ من أن نقول: الله سراج السماوات أو شمسها أو قمرها، إذ كانت المجازاة لها انتهاء تجاوزها إلى ما ورائها محظور، هذا مع توافق الصفات، فكيف إذا اختلفت، ويقارب هذا قولهم في الله: لطيف ورحيم، والمراد به الانعام، ثم امتنعوا فيه من رفيق ومشفق لرجوعهما إلى رقّة القلب واستيلاء الخوف، فأمّا الغضب والسخط، والإرادة والكراهة، والحبّ والبغض، والرضاء، والطالب، والمُدرِك، والمُهْلِك، فمن صفات الفعل، والله يحدثها، لا في مكان، إذ كان جميعها لا يوجب تصويراً ولا تهيئة ولا تركيباً، وإنما تفيد عقاباً للمكلفين، أو إثابة، أو إيجاباً لإيقاع الفعل، أو نَفْياً له، وإذا كانت كذلك انتفت عن المحال، على أنه لو أحدثها في المحال لعادت المحال الموصوفة بها.

فإن قيل: فهل يجوز أن تقع منّا إرادة لا في محل؟ قلت: لا، وذلك أنّ أفعالنا تقع مباشرة أو متولدة عن مباشرة، فلا بُدَّ لها من محل، وأفعال الله تعالى بخلافها، فإن قيل: هل يجوز أن يوصف الله بأنه راعٍ، وأنه خفير وحارس، كما وُصِف بأنّه رقيب وحافظ، قلت: قد جاء: رعاك الله، وحَرَسَك وحاطك في دعاء المسلمين، ومعانيها صحيحة، لكن بناء اسم الفاعل منها في صفاته لم يجيء، وهم يستغنون بالشيء عن شبهه في اللغة، فيذهب عن الاستعمال، ومع ذلك، فوصفه يجب أن يكون كريماً، ولفظة الحارس والراعي والحائط ليس ممّا يستكرم فيقرن بِيَا للاختصاص فيقال: يا حارس أو يا داعي، أو يا حائط، ومما ينفر منه فيترك قول القائل في الله: يا مُعَلِّم، وإن كان قد جاء: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾(٤)، لاشتهاره في صفات المحترفين به، على أنّ الفرق بين ما يجعل أخباراً؛ أو بين ما يجعل خطاباً ويصدر بحرف النداء ظاهر، وإذا كان كذلك، فلفظ الخطاب بِيَا، كالمترجم عن تواضع وفاقه، فيجب أن يختار معه من الصفات ما يؤكد الحال، ويحرر السؤال، ويشبه ما نحن فيه أنهم قالوا في صفاته: علاّم الغيوب.

ثم امتنعوا من عَلاّمةٍ، وإن كانت تاء التأنيث زائدة في المبالغة لما يحصل في اللفظ

---

(١) سورة الشورىٰ، الآية: ٤٠.

(٢) سورة يوسف، الآية: ٨٢.

(٣) سورة النور، الآية: ٣٥.

(٤) سورة الرحمٰن، الآيتان: ١، ٢.

من علامة التأنيث ولا تنحط رتبته عن رتبة التذكير، ولأنهم جعلوا اللفظ مؤنثاً لاقتران علامة التأنيث، فقالوا للبيضتين الأنثيان، ووصف بعضهم المنجنيق وهو مؤنث في اللغة فقال: كلّ انثىٰ حملت أحجاراً، فأمّا الخفير فمعناه لا يصح على الله، لأنه من الستر، ومنه خفرت المرأة، وقول القائل ثابت في صفة الله قليل الاستعمال ومعناه صحيح فيه، وهو الكائن الذي ليس بمنتفٍ، وقولهم: وِترٌ، وفردٌ، وفذّ، جميعه جائز عليه، لأنّ معناه معنىٰ التوحيد، إلاّ الفَذّ، لأنّ معناه، القلّة، وقولهم: إبراهيم خليل الله، فمعناه، الاختصاص، ولا يقال: الله خليل إبراهيم، لأنه يخص الله بشيء، ولا يقاس الصديق ولا الوامق ولا العاشق على الخليل، ولا على المحبّ، ولا يوصف الله بالكامل ولا الوافر، لأنّ معناه الذي تمت أبعاضه، وتوفرت خصاله، ولا يوصف الله بالفرح، لأنّ الفرح إنّما يجوز على من يجوز عليه الغمّ، على أنه مع ذلك متناوله مذموم، وليس كالسرور، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠﴾[1] وممّا يقل استعماله وصفه بالسّارّ، والبار وإن كان معناهما صحيحاً إذا كان تعالى يسرّ أولياءه ويبرُّهم سمعه وطَوْلُه.

فإن قيل: أفيجوز أن يقال في الله تعالى أنه يمكنه أن يفعل، ويستطيع أن يفعل، ويطيق أن يفعل، قلت: كلّ ذلك جائز إلاّ قولك: يطيق أن يفعل، لأنّ الطاقة استفراغ الجهد فيما يقصده الإنسان، وقوله تعالى: ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ﴾[2]، حسن جائز، لأنّ معنى، ذو الطول وله الطول واحد، فاعلمه.

واعلم أنّ قول القائل: ما زال زيد يفعل كذا من العبارات الداخلة على المبتدأ، والخبر يفيد الزمان دون الحدث، وإذا كان كذلك، فزيد هو الذي كان مبتدأ، وهو المخبر عنه، والخبر ما بعده، ولا يستقلّ بنفسه، كما أنّ المبتدأ لا يستقلّ بنفسه، وما زال، مثل كان وأصبح وأمسى في أنه أفاد الزمان، إلاّ أنه بدخول حرف النفي عليه عاد إلى الإثبات، لأن نفي النفي إثبات، وممّا صدر بحرف النفي من إخوانه، ما برح وما فَتِيء وما انفكّ، وقال سيبويه: تقول: زايلته مزايلة وزيالاً، والتزايل تباين الشيء، وزيّلت بينهم، فرّقت[3].

فإن قيل: فهل يجوز أن يقال: ما زال زيد يقطع الكلام به، والمراد ثبت زيد؟ قلت: إن أخرجته من جملة العبارات الداخلة على المبتدأ والخبر، وجعلته فعلاً تامّاً يستغنىٰ بفاعله، ويفارق ما لا يتمّ إلاّ بخبره، لم يمتنع ذلك فيه، وحينئذ يصير مثل كان الذي يفسر بحدث، وجاء في القرآن: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ﴾[4]، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ﴾[5]، لأنّ تقديره، لن أبرح من الأرض، لأنّ برح لا يتعدّى مثل زال، والأرض

---

(١) سورة هود، الآية: ١٠.
(٢) سورة غافر، الآية: ٣. وفي المطبوع: ذو الطَّوْلِ.
(٣) الكتاب ٤/٣٦٧.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٨٠.
(٥) سورة يوسف، الآية: ٨٠.

مخصوص لا يكون ظرفاً، وهذا غير المستعمل في قولهم: لم يزل الله واحداً سميعاً بصيراً، ومثله، أصبح الذي يُمَثِّلُ باستيقظ، وأمسى الممثّل بِنَامَ، وقد فَسَّر سيبويه ما برح بما زال، ولم يجعله من البراح إيذاناً بالفرق بين ما جعل عبارة وبين غيره، وقال تعالى: ﴿ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ ﴾[1]، وفي موضع آخر: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ ﴾[2]، والمعنىٰ، لا أزال[3] أسيرُ حتى أبلغ، ولو جُعِل من البراحِ لدافع قوله حتىٰ أبلغ، لأنَّ الثابت في موضعه لا يكون متبلّغاً، وممّا يشرح هذا الذي قلناه امتناعهم من قول القائل: ما زال زيد إلاّ كذا، حتى ردّوا على ذي الرُّمة قوله[4]:

حَـرَاجِيـجُ مـا تَنْفَـكُّ إلاّ مُنَـاخَـةً ... عَلَىٰ ٱلخَسفِ أو نَرْمِي بِهَا بَلَداً قَفْرَا

وقالوا: الاستثناء ممتنع هنا، وإنما هو، حراجيج ما تنفكّ مناخة، أي لا تزال شخوصاً مجهودة، وحُمِل إلاّ على الكثرة والجنس، ومنهم من قال: ما تنفكُّ من قولهم: فككتُه فانفكّ، كأنه يخرجه من أن يكون مما يدخل على المبتدأ والخبر، ويجعله مستقلاً بفاعله مثل كان التامة، ويكون المعنى، لا تنحَلّ قواه إلاّ في هذه الحالة، وعلى هذا، ما فَتِيءَ، وفي القرآن: ﴿ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُاْ تَذْكُرُ يُوسُفَ ﴾[5] أي لا تَفْتَؤُ ولا تزالُ.

فإن قال قائل: فهل يجوز أن يوصف الله تعالى بأنه ذخر وسند؟ قلت: هذا لا يكون إلاّ مجازاً، وما لا يجب من جهة الحقيقة لا يجوز عندنا وصف القديم به إلا إذا كثر في كلام أهل الدين؛ وأخبار أرباب اللغة، فيصير تبعاً فيه لهم، وذلك أنّ الذخر ما يذخره الإنسان ويحرزه لنفسه وليوم حاجته، ويكون في الوقت كالمستغنىٰ عنه فيقال: أذخر هذا لطوارق الزمان ونوائب الدهر والأيام، وعلى هذه الطريقة لا يجوز ذلك على الله، لأنّ الحاجة إليه دائمة، فهذا في الذخر، وكذلك السند في الحقيقة، هو ما أسند الإنسان إليه ظهره، والله متعالٍ عن هذه الصفة، فإن قيل: فهل يجوز أن يوصف الله بأنه نَجِيّ ووليّ؟ قلت: النَّجِيُّ، فَعِيل، ويراد به الذي يناجىٰ، ووصف به الجمع في قوله تعالى: ﴿ خَلَصُواْ نَجِيًّا ﴾[6]، وإن كان على لفظ الواحد كما جاء فعول في قوله تعالى: ﴿ عَدُوٌّ لِّي ﴾[7]، وإذا كان كذلك، فليس هو كالنكير والنذير لأنّهما مصدران، ولكنه بمنزلة العليّ والوليّ ونحوه مما يكون، والوالي والوليّ بمعنىً واحد، قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾[8]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾ ﴾[9]، وكذلك

---

(١) سورة طه، الآية: ٩١.
(٢) سورة الكهف، الآية: ٦٠.
(٣) في المطبوع: لا زال.
(٤) ديوانه ١٤١٩/٣.
(٥) سورة يوسف، الآية: ٨٥.
(٦) سورة يوسف، الآية: ٨٠.
(٧) سورة طه، الآية: ٣٩، وسورة الشعراء، الآية ٧٧.
(٨) سورة البقرة، الآية: ٢٥٧.
(٩) سورة الرعد، الآية: ١١.

النَّجِيُّ، ومثله، الصديق والخَلِيط، في أنّه بلفظ الواحد، ووصف به الجمع، وقوله[1]:

إنِّـي إذَا مَـا القَـوْمُ كَانُـوْا أَنْجِيَـه

فإنجية، كقولهم: كثيب وأكثبة، ورغيف وأرغفة، شبَّه الصفة بالاسم فكسرت تكسيره، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾[2]، وُصِفَ بالمصدر كما وُصِفَ بالعدل والرِّضى، وإذا كان الكلام بياناً عن المعاني، فعلى المتكلم أن يبيّن المعاني التي يخبر عنها بكلامه، وإلاّ كان بمنزلة من يلغز ويعمّى كلامه لئلا يفهم، وفاعل هذا مختار عابث، وأمّا قولنا: وكيل علينا، أي مُتَوَلّ لأمورنا، وقائم بحفظنا ونصرتنا، ولا يجوز أن يقال: وكيل لنا، لأنّ الوكيل لنا هو النائب عنّا وخليفتنا فيما يليه لنا، فأمّا قولنا: توكّلنا على الله، فليس من الوكالة في شيء، وإنّما معنى يتوكّل، يلتجىء ويعتمد، وإذا كان كذلك فإنّا نقول: الله وكيل علينا، ولا نقول: متوكّل علينا.

فإن قيل: كيف جاز مجيء تفعّل وتَفَاعَلَ في صفاته ومِمّا [هو] من أبنية التكلف، والتكلّف لا نجيزه على الله؟ قلت: قوله: المتكبِّر، والكبير، والمتعالي، في صفاته كالكبير والعالي، والمباني كما تتفرد بالمعاني، أو يكثر مجيؤها لها، فإنها قد تتداخل وتتشارك حتى لا تمايز ولا تباين [بينها]، وإذا كان كذلك فقول القائل: تعلّىٰ وتعالى وعلا بمعنى واحد، قال[3]:

تعلّىٰ الَّـذِيْ فـي مَتْنِه وَتَحَـدَّرَا

بمعنى عَلا وحدر، وقال[4]:

وَمُسْتَعْجِـبٍ مِمَّـا يَـرَىٰ مِـنْ أَنَـاتِنَـا　　　وَلَـوْ زبَنَتْـهُ الحَـرْبُ لَـمْ يَتَـرَمْـرَمِ

بمعنىٰ عجب، وقال أوس[5]:

وَقَـدْ أَكَلَـتْ أَظْفَـارُهُ الصَّخْـرَ كُلَّمَـا　　　تَعَـايَـا عَلَيْـهِ طـول مَـرْقـى تَـوَصَّـلا

بمعنىٰ أعيىٰ، وهذا كثير ظاهر فاعلمه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ﴾[6] بمعنىٰ آذن وأعلم.

---

(١) هو سحيم بن وثيل الرياحي كما في لسان العرب/ نجا ومعه شطران آخران.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٤٧.

(٣) عجز بيت لعمرو بن أحمر الباهلي كما في شعره ص ٨٤، وشطره:
كثور العداب الفرد يضربه الندىٰ

(٤) هو أوس بن حجر كما في ديوانه ص ١٢١.

(٥) ديوانه ص ٨٧.

(٦) سورة الأعراف، الآية: ١٦٧.

وقد انتهىٰ هذا الباب، وكمل بما ضمّ إليه من أخبار الرسول ﷺ، وغيرها، جامعاً إلى الوفاء بما وعدته، ومجيئه على المثال الذي خططته، [و] إني لم آل جهداً في اختيار ما كانت الحاجة إلى بيانها أَمَسُّ، والنفس إلى تبيينها أَتْوَقُ، حتى بلغ حدّاً يمكن الاستعانة به مع أدنىٰ تأمُّل على فتح كثير مما يستغلق من نظرائه، وكل ذلك بعون الله وحسن توفيقه، وأنا الآن مشتغل بالباب الثاني، والكلام في حقيقة الزمان والمكان، والردّ على من تكلّم بغير الحقّ فيهما، والله بحوله وقوّته يعين على بلوغ ما نُعرِبُ منه، وهو حسبُنا ونِعْمَ الوكيل.

الباب الثاني

في ذكر أسماء ومعانٍ للزمان والمكان، ومتى تُسمَّى ظروفاً، ومعنى قول النحويين: الزمان ظرف للأفعال، والردّ على من قال في بيانهما بغير الحق من الأوائل والأواخر، وهذا الباب يشتمل على ذكر ماهية الزمان والمكان، وحكاية أقوال الأوائل فيهما، محقِّهم ومبطلهم، وإبطال الفاسد منها، وما يتعلق بذلك، وفصوله أربعة.

فصـــل

إعلم أنَّ أسماء الزمان والمكان إنّما تسمَّىٰ ظروفاً إذا كانت محتوية لما هي ظروف لها، فإنْ لم تكن محتوية؛ فليست بظروف، بل هي أسماء تبيين ما وقعت عليه من غيره، كسائر الأسماء، كقولك: مَكَانُكُمْ طيِّبٌ، وخُلُقُكَ واسِعٌ، وأمَامَكَ الصَّحْرَاءُ، ويومُ الجُمُعَةِ مُبَارَكٌ، وشَهْرُ رَمَضَانَ شَهْرُ طاعَةٍ وَإنَابَةٍ، فإنّما هذا كقولك: عَبْدُ الله كريمٌ، وزيدٌ مُبَارَكٌ، وموضع كونها ظروفاً أن تقول: سِرْتُ يَوْمَ الجُمُعَةِ، وضربتُ زيداً يومَ السبتِ، فاليوم مفعول فيه، وسنذكر قطعة واسعة من الأزمنة تأنيساً بأسمائها، إلى أن نتمكن من شرح جملها وتفاصيلها، ونأتي على حقِّها وحقيقتها، وندرس[1] في أثنائها الكثير من مبهمات الأمكنة؛ لأنّها هي التي تكون ظروفاً دون محدوداتها، واتسع باب الأزمان لأنّ الأحداث انقسمت بانقسامها، فهي تتضمنها دون الجثث والأشخاص، ولذلك قال سيبويه: المكان أشبه بالأناسيّ، فلها صور تثبت عليها، وحدود تنتهي إليها وتتباين بها.

فمن أسماء الزمان اليوم، والليلة، والبارحة الأولى، وأمسِ، وأول من أمْسِ، وأوّلُ

(١) في المطبوع: ويندس.

من أوَّلِ من أَمْسِ، وإذْ مضافة إلى جملة؛ كالفعل والفاعل والابتداء والخبر، وقطّ، وعصر، وزمان، ودهر، ووقت في الزمان والمكان، وأسبوع، وشهر، وعام، وسنة فيما مضىٰ، وحقب، وغَد، وأبدَ في المستقبل، وإذ مضافة إلى فعل وفاعل، وذات مرَّة، وذات المرار، ولا يستعملان إلاّ ظرفاً، وذات العويم، وإبّان، وإفّان، وقبل، وبعد ولا يرفعان، وبُعَيْدات بَيْن كذلك[1]، وليس قبل وبعد، ولا بُعَيد من أسماء الزمان، ولا بُعَيْدات بين، ولا من أسماء ساعاته، وكذلك ذات مرّة، لأن قبل وبعد يفيدان التقدّم والتأخر، وبُعَيْدات جمع بَعْد مصغراً، ولذلك ضعفن، وذو صباح، وذو مساء، وحرى دَهْر، وأبنا سمير، والمَلَوَان، والجديدان، والأجدّان، ومِلْءٌ من الدهر، والمرة كقولك ضَرْبَةٌ، وما كان أسماً في الدهر للظّمأ والرعي[2]، وغير ذلك ممّا يعتاد؛ كالوجبة، والغِبّ، والرقة، والثلث، والربع، والخمس، والسدس، وما كان ممرّاً في اليوم والليلة نحو سحر، وبكر، وغدوة، وهو علم، وبكرة وهو مجهول على عدد، وغداة، وضحوة، وضحىٰ، والضحاء ممدود، ونصف النهار، وسواء النهار، والهجير، والهاجرة، والظهير والظهيرة، ودلوك الشمس، وغسق الليل، والعصر، وقصر الشيء، والأصيل، واستعمالهم إيّاه مصغراً تقريباً للوقت نحو أصيل، وأصيلال، وأصيلاناً، وكذلك، المغرب في قولك: مغيربان ومغيربات، والعتمة، والغداة، ومقصر، وظلام، ووهن، وهدء، وهدأة، وهُدؤ، وصباح، ومساء، وصباحَ مساءَ مبنيين، وسير عليه ذا صباح، وشطر الليل، ويومئذ، وهذا ممّا حذف منه وصار التنوين بدلاً من المحذوف فيه، وحينئذٍ، وساعتئذٍ، ويوم، وحين مضافة إلى متمكن وإلى غيره، والسدف والسدفة، وأي حين، ومذ، ومنذ، ومتىٰ، وأيّان، ودخول كم على متىٰ للعدد، ودخول حتّى وإلى للمنتهي على أسماء الزمن، وقولك: ربّما للتقليل، وربّما بما في ذلك من اللغات، وقد التي بمعنىٰ ربَّما، والساعات، وألقاب أيام الأسبوع، وتسمية العرب لها، وذلك قولهم للأحد أول، وللاثنين أَهْوَن، وللثلاثاء جُبَار، وللأربعاء دُبار، وللخميس مؤنس، وللجمعة العروبة، وللست شَيار، وقولهم: الوهن والموهن، وتسميتهم سير الليل لا تعريس فيه الإسآد، وسير النهار لا تعريج فيه التأويب.

وقولهم: لا أكلِّمُك السمرَ والقمرَ، واختلاف الأزمنة، كالصيف، والخريف، والشتاء، والربيع، وما ينسب إليها من نتاج أو عشب، وتسميتهم بالحرّ شهري ناجر، والشهرين الموصوفين بالبرد وشهري قماح، وما يقع من المصادر[3] حيناً نحو، مقدم الحاج، وخفوق النجم، وخلافة فلان، ووقعة فلان، والتواريخ، وتقديمهم الليلة على

---

(١) في المطبوع: وكذلك.

(٢) هكذا رسمه في المطبوع. وأحسبه والرِّيّ.

(٣) في المطبوع: وما نفع من المصاد.

اليوم، وقولهم: بعد عَنكٍ من الليل، وهزيع، والآناء، وما واحدها، وأيام الأسبوع، والفصل بينها، والأوان والآن.

وصفات الزمان كقولهم: حول كَرِيت، وقَميط، ومَجرم، وفعله، قليلاً وكثيراً، وطويلاً وقصيراً، وقولهم: النَّسيء في الأزمنة، والنسيئة في الدين، واليمين والشمال، وأعلى وأسفل، وخلف وقدّام، وأيام العجوز، وهذه تجري مجرى المقدمات، وسيأتي التفسير عليها منوّعة.

فصل في ماهيَّة الزَّمان

ذكر بعض القدماء أنّ الزمان، هو دوران الفلك، وقال أفلاطون: هو صورة العالَم متحركة بعد صورة الفلك، وقال آخر: هو مسير الشمس في البروج، حكى جميع ذلك النوبختي[1]، ووجوه هذه الأقوال تتناسب، وحكىٰ أبو القاسم عن أبي الهذيل، أنّ للزمان مدىً ما بين الأفعال وأنّ الليل والنهار هما الأوقات لا غير، وزعم قوم أنه شيء غير الليل والنهار، وغير دوران الفلك، وليس بجسم ولا عرض، ثم قالوا: لا يجوز أن يخلق الله شيئاً لا في وقت، ولا يفنىٰ الوقت، فتقع أفعال لا في أوقات، لأنّه لو فني الوقت لم يصح تقدّم بعضها على بعض، ولا تأخر بعضها عن بعض، ولم يبيّن ذلك فيها، وهذا محال.

وقال بعض المتكلمين: الزمان تقدير الحوادث بعضها ببعض، ويجب أن يكون الوقت والمؤقت جميعاً حادثين، لأنّ معتبرهما بالحدوث لا غير، ولذلك لم يصح التوقيت بالقديم تعالى، ثم مثَّلَ فقال: ألا ترى أنّك تقول: غرّد الدّيك وقت طلوع الفجر، وتقول: طلع الفجر وقت تغريد الديك، فيصير كل واحد من طلوع الفجر وتغريد الديك وقتاً للآخر ومبيناً به[2] للمخاطب حدوثه، وهذا على حسب معرفته بأحدهما وجهله بالآخر، لأنّ ذلك في التوقيت لا بدّ منه.

وقال: المحصل من النحويين: الزمان ظرف الأفعال، وإنما قيل ذلك لأنّ شيئاً من أفعالنا لا يقع إلاّ في مكان؛ وإلاّ في زمان، وهما الميقات، قال الخليل: الوقت مقدار من الزمان، وكل شيء قدّرت له حيناً فهو مُوَقَّتٌ[3]، وكذلك ما قدرت له غاية فهو مُوَقَّتٌ، قال

---

(١) النوبختي: هو الحسن بن موسى بن الحسن، أبو محمد، فلكي عارف بالفلسفة، من أهل بغداد، توفي سنة ٣١٠ هـ، له مصنفات منها: اختصار الكون والفساد لأرسطاطاليس، والرد على أصحاب التناسخ، والمرايا وجهة الرؤيا منها، والردّ على المنجمين وغيرها. انظر عنه: لسان الميزان ٢/٢٥٨، واللباب ٣/٢٤٠، عن الأعلام ٢/٢٣٩.

(٢) في المطبوع: ومبينا به.

(٣) هو في العين ٥/١٩٩، ونصه فيه: الوقت مقدار من الزمان، وكل ما قدّرت له غاية، أو حيناً فهو مؤقت.

تعالى: ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ ﴾[1]، والميقات، مصدر الوقت[2]، قال تعالى: ﴿ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾[3]، والآخرة ميقات الخلق، ومواضع الإحرام مواقيت الحج، وفي التنزيل: ﴿ ۞ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ﴾[4]، والإهلال، ميقات الشهر، وفي القرآن: ﴿ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ ﴾[5]، وإنما هي، وُقِّتَتْ، ويقال: وقتٌ مَوْقُوْتٌ ومُوْقَتٌ.

والزمان قد يعلم باسمه، وقد يبيَّن بصفاته، فالأول، كالسبت والأحد، ورمضان وشوال، والثاني كقولك: الخميس الأدنىٰ، والجمعة الآتية، وقد يبيَّن بقرينة تضاف إليه كقولك: عام الفيل، ووقت ولاية فلان، وقد يقصد المتكلم بيان قدر الوقت، أو صورته، أو اتصاله، أو انقطاعه، بما يكون نكرة كقولك: فعلته ليلاً، وثابرت عليه حولاً، وأقمت عنده شهراً.

وفي الاتصال والانقطاع يقولون: فعلته ليلاً ونهاراً، وغُدُوّاً وعشِيّاً، وزرته ذات مرّةٍ، وبُعَيْداتِ بَيْنٍ، فأمّا من قال: هو الفلك بعينه، فقد أخطأ، لأنّ الأفلاك كبيرة في الحال، وليست الأزمنة كبيرة في الحال، لأنّ الزمان ماض ومستقبل وحاضر، والفلك ليس كذلك، وهذا ظاهر، وذلك قول من قال: حركات الفَلَك هي الزمان، لأنّ أجزاء الزمان إذا تُوُهِّمَت كانت زماناً، وأجزاء الحركة المستديرة إذا تُوُهِّمَتْ لم تكن حركة مستديرة، ولأنَّ الحركة في المتحرك وفي المكان الذي يتحرك إليه المتحرك، والزمان ليس هو في المتحرك؛ ولا في المكان الذي يتحرك إليه المتحرك، بل هو في كلّ مكان، ثم قد تكون حركة أسرع من حركة، ألا ترى أنّ حركة الفلك الأعلى أسرع من حركة زحل، والبُطْءُ والسرعة لا يكونان في الزمان، لأنّ الحركة السريعة هي التي تكون في زمان يسير، والبطيئة هي التي تكون في زمان كثير.

وحكى حنين بن إسحق عن الإسكندر أنه قال في حَدِّ الزمان أنه، مُدَّةٌ تعدّها حركة الفلك بالمتقدّم والمتأخر، قال: والعدد على ضربين، عدد يَعُدُّ غيرَه، وهو ما في النفس، وعدد يُعَدُّ بغيره، والزمان ممَّا يُعَدُّ بغيره، وهو الحركة، لأنه على حسبها وهيئتها وكثرتها وثباتها، وإنّما صار عدداً من أجل الأول والآخر الموجودين في الحركة، والعدد فيه أول وآخر، فإذا توهَّمنا الحركة؛ توهّمنا الزمان، وإذا توهَّمنا الزمان؛ توهَّمنا الحركة، وإنما صار

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٣٨.

(٢) في المطبوع: مصير الوقت. والتصحيح عن كتاب العين ٥/١٩٩، والكلام فيه.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٤٢.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٨٩.

(٥) سورة المرسلات، الآيتان: ١١ و ١٢.

عدد حركة الفلك دون غيرها لأنه لا حركة أسرع منها، وإنّما يُعَدُّ الشيء ويُذرع ويكال بما هو أصغر منه.

قال: والزمان عدد؛ وإن كان واحداً، لأنّه بالتوهم كثير، فيكون أزمنة بالقوّة والوهم، لا بالوجود والعمل، وهذا يقارِب ما حكاه أبو القاسم عن أبي الهذيل في حدّ الزمان، لأنّ قوله: مدىً ما بين الأفعال، وأنّ الليل والنهار هما الأوقات، إذا حصل يرجع إلى معنى قوله مُدَّة بعدها حركة الفلك بالمتقدم والمتأخر، وإن كان لفظ أبي الهذيل أجزل وأغرب، ألا ترى أنّ الإسكندر قال: والبرهان على أنّ الزمان ليس بذي كون ولا ابتداء ولا انتهاء، والفرقة التي زعمت أنّ الزمان شيء غير الليل، والنهار، وغير دوران الفلك، وليس بجسم ولا عرض، إلى آخر الفصل، فإنّا سنتكلم به على الملاحدة والخارجين من التوحيد إلى وراء التشبيه إن شاء الله تعالى.

إعلم أنّ العبارة عن الوقت قد حصلت من القديم تعالى، ولا فلك يدور، ولا شمس في البروج تسير، وعبَّر أيضاً عن أوقات القيامة، فمرّة قال تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۝٤﴾[1]، ومرّة قال تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾[2]، وقال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[3]، وقال تعالى في صفة أهل الجنة: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ۝٦٢﴾[4]، ولا بُكْرَةَ ثمَّ ولا عَشيّة، فجميع ذلك أجري لأوقات مؤقتة لمعاني قدّرها الله تعالى على أحوال، ورتبها مراتب صورها، فمنها ما هو أطول، ومنها ما هو أقصر، على حسب آماد الأمور المقدورة فيها، فَمَثَّلَ كُلًّا بما تقرر به النفوس غايته وأمده ومقداره وموقعه، ممّا كنّا نعرفه ونألفه ونشاهده ونتصرف فيه، وإذا كان الأمر على ما ذكرنا، وحصل من الحكيم التوقيت على ما بيّنا، ظهر كثير من عاداتهم فيه، وأنهم تخيَّروا ما كان في الاستعمال أبْيَن، وفي العرف أمتن، وعلى المراد أدَل[5]، وفي التمثيل أنبه وأجلّ.

واعلم أنّ الحادث متى حصل، فقد حصل في وقت، والمراد، أنه يصح أن يقال فيه إنه سابق لِمَا تأخّر عنه، وأنّ وقته قبل وقته، أو متأخر عمّا تقدّمه، وأنّ وقته بعد وقته أو مصاحب لما حدث معه، وأنّ وقته هذا هو المراد فقط، ولسنا نريد أنه حدث معه شيء سمّي زماناً له؛ أو سَبَقَه، أو احتاج في الوجود إليه، فلو تصوّرنا أول الحوادث وقد اخترعه الله مقدّماً على المحدثات كلها، لصلح أن يقال فيه: إنه سابق لها، وإنّه أوّل لها، وهذا

---

(١) سورة المعارج، الآية: ٤.

(٢) سورة السجدة، الآية: ٥.

(٣) سورة يونس، الآية: ٣. وانظر المعجم المفهرس/ ستة.

(٤) سورة مريم، الآية: ٦٢.

(٥) في المطبوع: أول.

توقيت، ولو تصوّرنا أنه بقي مفرداً بعد حدوثه لم يتبع بغيره، لكان يصحّ تقدير هذا القول فيه؛ وتوهمه إذ كان الله تعالى قادراً على الإتيان بأمثاله وأغياره؛ معه وقبله وبعده.

وهذا معنى قول النحويّ: الفعل ينقسم بانقسام الزمان ماضٍ ومستقبل وحاضر، وإذا كان الأمر على هذا فقد سقط مؤونة القول في أنّ الوقت حادث لا في وقت، وأنه لو ٱحتاج الوقت إلى وقت لأدّى إلى إثبات حوادث لا نهاية لها، وأمّا من قال: إنّ الزمان تقدير الحوادث بعضها ببعض، وتمثيله بأنّ القائل يقول: غرّد الديك وقت طلوع الفجر، وطلع الفجر وقت تغريد الديك، فإنّ كلّ واحد من التغريد صار وقتاً للآخر، فإنّه جاء إلى فعلين وَقَعَا في وقت واحد؛ فعرف الوقت مرّة بالإضافة إلى هذا، وجعل ذلك الآخر مؤَقّتاً به، ومرّة بالإضافة إلى ذلك، وجعل هذا مؤقتاً به، ولم يتعرض للزمان وكشف حدّه وضبطه، وهذا كما يقال: حَجَجْتُ عامَ حَجَّ زَيْد، وحجّ زيد عام حججت.

ومن الظاهر أنّ العام غير الحَجَّين، وأنهما إنّما وقعا فيه، وهذا بَيِّنٌ، على أنّ ما أتى به واشتغل بتمثيله هو من قبيل ما يكون زماناً، وهو ما يصلح أن يكون واقِعاً في جواب متى، ولم يستوفه أيضاً، وترك ما يخرج في جواب كم رأساً، وذلك كقولهم: يصومُ زيدٌ النهارَ ويقومُ الليلَ، ومَا فعلتُه قطّ ولا أفعله أبداً، وأقمت بالبلد شهراً، وهجرت زيداً يوماً، إلى كثير مما ستراه في أبواب هذا الكتاب وفصوله.

واعلم أنّ الزمان وإن كان حقيقة ما ذكرنا فإنّ الأمم على اختلافها أولعوا في التوقيت بذي الليالي والأيام والشهور والأعوام، لما يتعلق به من وجوه المعاملات والآجال المضروبة في التجارات، ومن تقرير العدّات، وإدراك الزراعات، وآماد العمارات، ومن تنقّل[1] أهل الوبر في المحاضر والمزالف والمناجع والمجامع، وإقامة الأسواق، وتوجيه المعاش، ومن اشتغال أرباب النحل بما افترض عليه عندهم، من تقرّب وعبادة، ودُعُوا إلى الأخذ به في دينهم من فرض ونافلة، وأُمِروا بالتوجّه إليه من سمت وقبلة ولما أجرى الله تعالى العادة به فيه من حدوث حرٍّ وبَرِدٍ، وجَزْرٍ ومَدٍّ، وتبدّل خصب وجَدْب، ورخاء عيش وبؤس، ومن ظهور نبات، وأوان لقاح أو ولاد، وصبوب أمطار، وهبوب أرواح، لذلك قال النبي ﷺ: «تَعَلَّمُوا مِنَ النُّجُوْمِ مَا تَعْرِفُوْنَ بِهِ سَاعَاتِ اللَّيْلِ والنَّهارِ وهِدَايَةِ الطُّرُقِ والسُّبُلِ»، فقدّر أكثر الناس أنّ الزمان لا يكون غيرها ولا يعدوها إلى ما سواها، ولهذا الذي تبيّنته أو أشرتُ إليه ذكر أبو الهذيل بعد تحديد الزمان الليلَ والنهارَ هُما الأوقات لا غير.

واعلم أنّ الذين زعموا أنّ الزمان شيء غير الليل والنهار، وغير دوران الفلك، وليس بجسم ولا عرض، ثم قالوا: لا يجوز أن يخلق الله شيئاً إلا في وقت، ولا يفنى الوقت فيقع

---

(١) في المطبوع: تفعل.

أفعال لا في أوقات لأنه لو فني الوقت لم يصحّ تقدُّمُ بعضها على بعض ولا تأخُّرُ بعضها عن بعض، ولم يتبيَّن ذلك فيها، وهذا محال، [و] قولهم داخل في أقوال الذين يقولون: إنّ الزمان والمكان المُطْلَقَيْنِ ـ ويعرب عنهما عند التحقيق بالدهر والخلاء ـ جوهران قائمان بأنفسهما، والكلام عليهم يجيء بعد تنويع فرقهم، وبيان طرفهم، فنقول: [و] بالله الحول والقوة، من زعم أنّ الأزلي أكثر من واحد أربع فِرَق.

الأولى: الذين يقولون: هما اثنان، الفاعل والمادّة فقط، ويعني بالمادة، الهيولى(١).

الثانية: الذين يدَّعون أنّ الأزلي ثلاثة، الفاعل والمادّة والخلاء.

الثالثة: الذين يدّعون أنّه، الفاعل والمادة والخلاء والمُدَّة.

الرابعة: الفرقة التي زعيمهم محمد بن زكريا المتطبب(٢)، لأنه زاد عليهم النفس الناطقة، فبلغ عدد الأزلي خمسة بهذيانه.

وشرح مذهبهم أنه، لم يزل خمسة أشياء، اثنان منها حَيّان فاعلان، وهما الباري والنفس، وواحد منفعل غير حيّ؛ وهو الهيولى الذي منه كونت جميع الأجسام الموجودة، واثنان لا حيّان ولا فاعلان ولا منفعلان وهما الخلاء والمادة، إلى خرافات لا تطيق اليد بيانها بالخط، ولا للسان تحصيلها باللفظ، ولا للقلب تمثيلها بالوهم، فممّا يزعمه أنّ الباري تام الحكمة، لا يلحقه سهو ولا غفلة، وتفيض منه الحياة كفيض النور عن قرصة الشمس، وهو العقل التام المحض، والنفس تفيض منه الحياة كفيض النور، وهي مترجحة بين الجهل والعقل، كالرجل يسهو تارة ويصحو أخرى، وذلك لأنها إذا نظرت نحو الباري الذي هو عقل محض غفلت وأَفَقَت(٣)، وإذا نظرت نحو الهيولى التي هي جهل محض غفلت وسهت، وأقول متعجباً: لولا الكرى لم يحلم، وهذا كما قال غيري: أليس من العجائب هذيانه في القدماء الخمسة، وما يعتقده من وجود العالم لحدوث العلية، وما يدّعيه من وجود الجوهرين الأزليين، أعني الخلاء والمدّة، لا فعل لهما ولا انفعال، فلولا خذلان الله إياه وإلاّ فماذا يعمل بجوهر لا فاعل ولا منفعل، ولم يضع الأرواح المقدّسة قبالة الأرواح الفاسدة، ولم يحدث العلة من غير نقص ولا آفة، ولم يذكر شيئاً ليس فيه جدوى

---

(١) ورد في لسان العرب/ هيل: الهيول: الهباء المنبث، وهو ما تراه في البيت من ضوء الشمس، يدخل في الكوة. عبرانية أو رومية معربة.

(٢) لعله محمد بن زكريا الرازي، أبو بكر، فيلسوف من الأئمة في صناعة الطب، من أهل الري، سافر إلى بغداد بعد سن الثلاثين واشتغل بالسيمياء والكيمياء، ثم عكف على الطب، توفي ببغداد سنة ٣١١ هـ، وقيل غير ذلك. له كثير من المصنفات. انظر عنه: الفهرست ١/ ٢٩٩، وطبقات الأطباء ١/ ٣٠٩، ونكت الهميان ص ٢٤٩، ووفيات الأعيان ٢/ ٧٨. عن الاعلام ٦/ ٣٦٤.

(٣) قوله: أفقت، هكذا ورد في المطبوع، والأفق؛ الغلبة، لسان العرب/ أفق.

ولا ثمرة، وهذا الفصل إذا أعطي مستحقه من التأمّل، ظهر منه ما يسقط به سخيف كلامهم، وإن لم يكن مورده مورد الحجاج عليهم.

ألا ترى أنّ من لم يثبت القديم تعالى فيما لم يزل واحداً لا ثاني له، وعالماً بالأشياء قبل كونها وبعده، وقادراً على كلّ ما يصحُ أن يكون مقدوراً وحيّاً لا آفة به، وغنيّاً لا حاجة به إلى غيره في شيء من إرادته، وحكيماً لا يبدو له في كلّ ما يأتيه ويفعله، فنُقِلَ إلى ما هو أعلى منه، بل لا يفعل إلاّ ما هو حسن وواجب في الحكمة وصواب، فقد جعله قاصراً ناقصاً، تعالى الله وجلّ عن صفات المخلوقين، وهذا كما أنّ من الواجب أن يعلم أنّ القديم لو لم يبدع العالم أصلاً لاستحال أن يتوقف على وجوده، أو يتوصل إلى إثباته، لأنّ ذاته لم تكن ظاهرة للعيان، ولا مستدركاً بالحواس، وأنّ الشيء قد يصحّ إثباته من طريق أفعاله، كما يصحّ إثباته من جهة ذاته، والأسباب وإن كانت متقدّمة لمسبباتها بالوجود، فلا يمتنع أن يكون في العقول أسبق إلى الوضوح.

وإذا كان كذلك، فالعالم بثبات هذا العالم المحسوس موصول إليه من طريق الإدراك والمشاهدة، والعلم بصانعه من طريق النظر والمباحثة، وقد تكلّم الناس في المعرفة بالله تعالى؛ واختلفوا، فزعم قوم أنّ المعرفة لا تجب على القادر العاقل، وأنها تحدث بإلهام الله، فكلّ من لم يلهمه الله المعرفة فلا حجة عليه، ولا يجب عليه عقاب، لأنّ عذر من ترك الشيء لأنه لم يعلم، كعذر من ترك الشيء لأنه لا يقدر عليه، والذي يدلّ على أنّ المعرفة لا تكون ضرورة لأنّا يمكننا التشكك فيه، ألا ترى أنه كلّما اعتقدنا الشيء بدليل فاعترضت شبهة في أصل الدليل يخرج من العلم بذلك الشيء، حتى تثبت حجة بمحل تلك الشبهة، ولو كانت بالضرورة لم يكن التشكك، وكان العقلاء كلهم شرعاً واحداً في العلم، كما صاروا شرعاً واحداً في أخبار البلدان المتواترة عليهم، فبان بذلك أنها ليست بضرورة، وأكثر الناس على أنها واجبة، وهي من فعل الإنسان، وإنما يقع أولها متولداً عن النظر.

وقال البغداديون مستدلين: لا يخلو من أن يكون قد كَلَّفَنَا الله معرفته أو لا يكون كَلَّفنا، وتركنا مهملين، وتركنا سدىً، وإهمالنا لا يجوز عليه، ويقال لهم في ذلك: إنّ الإهمال هو تضييع ما يلزم حفظه، وترك مراعاة ما يجب مراعاته، ألا ترون أنّ من لم يحفظ مال غيره لا يقال أهمله، لما كان لا يلزمه حفظه، فثبتوا أولاً أنّ المعرفة بالله واجبة، ثم ادّعوا الإهمال إذا لم يكلفناها، وقالوا أيضاً: نحن نرى على أنفسنا آثار نِعَمٍ، ونعلم وجوب شكر المنعم، فإذاً، يجب أن يعرف المنعم لشكره.

فإن قال قائل: فهل يجوز أن نعلم القديم تعالى من طريق الخبر؟ قلت: لا، لأنّ الخبر على قسمين، فمنه ما يضطر السامع إلى العلم بالمخبر به، كالخبر عن البلدان والأمصار،

وقد علمنا أنه لا يجوز أن نعلم الله من هذه الجهة، لأنّا وجدنا العقلاء يشكّون في أنّ لهم صانعاً مع أخبار المخبرين به، ولو كان يعلم من طريق الخبر لكان لا فرق بين خبر من زعم أنّ الصانع واحد، وبين من قال: اثنان أو ثلاثة، على أنّ الخبر إنما يضطر[1] إذا كان المخبر يخبر عن مشاهدة، لأنه لا يجوز أن يكون حال المخبر يعلم ضرورة.

ومن الخبر ما يعلم من طريق الاستدلال؛ كخبر النبي ﷺ، ولا يجوز أن يُعْلَم الله من هذه الجهة، لأنّ القائل بهذا القول أحد رجلين، إمّا أنْ يقول: لا يعلم الله إلاّ من جهة الخبر، فيلزمه أن يكون النبي لا يعرف الله إلاّ بنبي آخر، وذلك يوجب التسلسل إلى ما لا نهاية، وإمّا أن يقول: إنّه يعلم من جهة النبي ومن جهة أخرى أيضاً، وهذا فاسد، لأنّه ليس في النبي أكثر من إظهار المعجزات، والمعجزات لا تدل على حكمة فاعلها، فكيف يكون خبر النبيّ طريقاً إلى العلم بالله؟ وإذ قد ذكرنا وجوب معرفة الله تعالى والطريق إليه ها هنا، وفيما تقدم، فإنا نكرر الكلام[2] على الملحدة والمتحيرين.

فصـــل

إعلم أنّ أنواع الضلال ثلاثة، المعاندة، والحيرة، والجهالة.

فالمعاندة على الإطلاق؛ ينبغي أن لا يحصل لأحد منا علم حقيقي ولا معرفة تفضي إلى يقين، وإنما هي ظنون وخواطر لا تسكن النفس إليها، وتسميتنا لها ولأمثالها بالعلوم توسع ومجاز، والوجه في مدافعتهم أن يقال لهم: أتقولون ما ذكرتم عن خلوص علم، أو تسلط ظنّ، فإن ادّعوا العلم فقد ناقضوا، وإلاّ حصلوا على عناد، وقد ذكر أبو عثمان الجاحظ في الكفار الذين قتلهم النبيّ ﷺ أنهم كانوا عارفين بالله معاندين.

واعترض عليه فقيل: إنّ العناد يجوز على العدد اليسير، فأمّا الجماعة الكثيرة؛ فلا يصحّ عليها ذلك، ونحن نعلم من أنفسنا، وقد كنّا على مذاهب فتركناها لفسادها، أنّا لم نكن في حال اعتقادنا معاندين، ولا كاذبين لأنفسنا، وإنّما تركنا الاستدلال، فكذلك أولئك الكفار، قد علموا فيما أظهره النبي ﷺ أنّها معجزات، لكنهم تركوا الاستدلال بها على نبوّته وصدقه.

والمُتَحَيِّرون هم الذين يزعمون أنّ العلم بالمحسوسات قد يصحّ، ولكن ما عداها ممّا يحال فيه على العقل نحن شاكّون فيه ومتوقفون، والكلام عليهم طريقه أن تقلب عليهم نفس ما أوردوه، فيقال: تدفعون مقتضيات العقول بالمشاهدات؛ أو بحجج العقول، ولا فلاح لهم أي الطريقين سلكوا.

---

(١) يضطر، هكذا رسمه في المطبوع، وأظنه يضطرد.

(٢) في المطبوع: فإنا نكر على الكلام على.

والجاهلون الملاحدة؛ والخارجون من نور التوحيد والاستقامة إلى ظلمة الشرك وفرق الضلالة، في عددهم ازدياد[1] ووفور، و [في] إفسادهم وجوه وفنون، وقد فُسِّرَت فقيل: ربما كانت من الحضانة والتربية وقلة الخواطر، وغباوة الخليط، وجهد المجاورة، وربّما كان من تعظيم الأسلاف، أو من وجه الألاّف أو من غباوة الداعية ونسل صاحب المقالة، وكونه صاحب سِنّ وسمت وإخبات وطول صمت، ولله تعالى الحجة البالغة عليهم وعلى طوائف المبتدعة من أهل الصلاة على اختلاف أهوائهم، وسيعلم الجافي[2] على نفسه كيف ينقلب وقد فاته الأمر.

ذكر بعضهم حاكياً عن قوم من الأوائل، أنّ الدهر والخلاء قائمان في فطر العقول بلا استدلال، وذاك أنه ليس من عاقل إلاّ وهو يجد ويتصور في عقله وجود شيء للأجسام بمنزلة الوعاء والقراب، ووجود شيء يعلم التقدّم والتأخر، وأنّ وقتنا ليس هو وقتنا الذي مضى، ولا الذي يكون من بعد، بل هو شيء بينهما، وأنّ هذا الشيء هو ذو بعد وامتداد، وقال: قد توهم قوم أنّ الخلاء هو المكان، وأنّ الدهر هو الزمان، وليس الأمر كذلك بإطلاق، بل الخلاء هو البعد الذي خلا منه الجسم، ويمكن أن يكون فيه الجسم، وأمّا المكان، فالسطح المشترك بين الحاوي والمَحْوِي، وأمّا الزمان فهو ما قدرته الحركة من الزمان الذي هو المدّة غير المقدَّرة، فصرفوا معنى الزمان والمكان المضافَين إلى المطلقين، وظنّوا أنهما هما، والبَونُ بينهما بعيد جداً؛ لأنّ المكان المضاف هو مكان هذا المتمكن، وإن لم يكن متِمكناً لم يكن مكاناً، والزمان المقدّر بالحركة يبطل أيضاً ببطلان المتحرك، ويوجد بوجوده، إذ هو مقدّر حركته، فأمّا المكان بإطلاق، فهو المكان الذي يكون فيه الجسم؛ وإن لم يكن، والزمان المطلق هو المدة قُدِّرت أو لم تقدّر، وليس الحركة فاعلة المدَّة، بل مقدرتها، ولا المتمكن فاعل المكان، بل الحالّ فيه، قال: فقد بان أنهما ليسا عرضين بل جوهران[3]، لأنّ الخلاء ليس قائماً بالجسم، لأنه لو كان قائماً به لبطل ببطلانه، كما يبطل التربيع ببطلان المربع.

فإن قال قائل: إنّ المكان يبطل ببطلان المتمكن، قيل له: أمّا المضاف فإنه كذلك، لأنه إنّما كان مكان هذا المتمكن، فأمّا المطلق فَلا، ألا ترى أنّا لو توهمنا الفلك معدوماً، لم يمكنّا أن نتوهم المكان الذي هو فيه معدوماً بِعَدَمِه، كذلك لو أنّ مقدِّراً قدّر مدّة سبت كان، ولم يقدر مدّة يوم آخر، لم يكن في ترك التقدير بطلان مدّة ذلك اليوم الذي لم يقدّر، بل التقدير نفسه، فكذلك ليس في بطلان الفلك أو في سكونه ما يبطل الزمان الحقيقي الذي

(١) في المطبوع: في عددهم في ازدياد، ووفور وإفسادهم وجوه وفنون. وهي عبارة مضطربة.
(٢) الجافي. هكذا في المطبوع، ولعله الجاني.
(٣) في المطبوع: جوهرين.

هو المدّة والدهر، فقد ينبغي أنهما جوهران لا عرضان، إذ كانا ليسا بمحتاجين إلى مكان ولا إلى حامل، فليسا إذاً بجسم ولا عرض، فبقي أن يكونا جوهرين.

وزاد على هذا الوجه الذي حكيناه بعضهم فقال: طبيعة الزمان من تأكيد الوجود في ذاتها، وقوّة الثبات في جوهرها، بحيث لا يجوز عدمها رأساً، ولم تكن قط معدومة أصلاً، فلا بدء لها ولا انتهاء، بل هي قارّة أزلية.

ألا ترى أنّ المتوهم لعدم الزمان لم يخلص له وهمه إلاّ إذا ثبت مدّة لا زمان منها، والمدّة هي الزمان نفسه، فكيف يوهم عدم ما تأكد لزوم جوهره، ويغني العقل الصحيح تصوّر عدمه وتلاشيه؟ أو كيف يسوغ إلحاق عدمه بالممكنات، ووجوده من الواجبات الأزليّات، فهذا ما حُكِيَ عن الأوائل، وابن زكريا المتطبب يحوم في هذيانه عند حجاجه حول ما ذكرناه عنهم، ولم يبيّن بيانهم، ولا بلغ غايتهم، فلذلك جعل تابعاً لهم، وإذ قد أتينا على مآلهم بأتمّ استقصاد، فإنا نشتغل بالكلام عليهم، وإن كان فيما قدّمناه قد صوَّرنا خَطَأهم تصويراً يغني عن مقابستهم ومحاجتهم.

وذكر بعض المنطقيين أنّ الزمان في الحقيقة معدوم الذات، واحتج بأنّ الوجود للشيء إمّا أن يكون بعامة أجزائه كالخط والسطح، أو بجزء من أجزائه كالعدد والقول، وليس يخفىٰ علينا أنّ الزمان ليس يوجد بعامة أجزائه، إذ الماضي منه قد تلاشىٰ واضمحلّ، والغابر منه لم يتم حصوله بعد، وليس يصح أيضاً أن يكون وجوده بجزء من أجزائه، إذ الآن في الحقيقة هو حدّ الزمانين، وليس بجزء من الزمان، وكيف يجوز أن يعدَّ جزءاً، ولسنا نشك أنّ حقيقة الجزء هو أن يكون مقداراً له نسبة إلى كله، كأن يكون جزءاً من مئة جزء أو أقلّ أو أكثر، فأمّا أن يتوهم جزء على الإطلاق غير مناسب لكلّه فممتنع محال، وليس الآن في ذاته بذي قدر مناسب لما يفوض من الزمان الآتي والماضي، ولو وجد له قدرٌ ما لصلح أن يجعل قدره عياراً يمسح به الكلّ حسب جواز ذلك على كافة ما يُعَدُّ جزءاً من الشيء، وإذ لم يكن الآن في جوهره ذا مقدار أصلاً، والجزء من الشيء لا يجوز أن يعرّى من المقدار، فليس الآن بجزء من الزمان، وإذا كان الأمر على ذلك، فالزمان إذاً ليس يصح وجوده لا بعامة أجزائه ولا ببعض أجزائه، وأنّ شيئاً يكوِّن طباعه بحيث لا يوجد بأجزائه كلها، ولا ببعض منها، فمن المحال أن يلحق بجملة الموجودات، وإذا كان ذات الزمان غير موجود أصلاً، فليس بجائز أن نعدّه في الكميات، فإنّ ما لا وجود له؛ لا آنِيَّة له، والذي لا آنِيَّةَ له لا يوصف بوقوعه تحت شيء من المقولات.

وقولهم في الزمان هو المدّة التي تفهم قبل وبعد أجلها، فإن كان المراد أنّ قول القائل: قبل وبعد يفيد أن تقدّم المذكور وتأخره من غير أن يثبت بهما جوهران، ليسا

بجسم، ولا يفنيان، ولا يجوز أن يخلق الله شيئاً من دونهما فهو صحيح، ويكون سبيلهما سبيل لفظ مع إفادتهما معنى الصحبة إذا قلت: زيد مع عمرو، وكما تقول للأعيان أحوال، ثم لا تصفها بأكثر من تميّز بعضها عن بعض بها، وإن أريد بقبل وبعد غير ذلك، فقد تقدّم القول في بطلانه وبطلان ما قالوه في الخلاء والمكان.

على أنّا نقول معيدين عليهم: إن أردتم أنّ المكان يكون المتمكن وإن لم يوجد الجسم لم يوجد المكان لأنه قائم بالجسم، وليس بشيء ذي وجود في نفسه، فهو صحيح، وإن أردتم للمكان جوهراً يبقىٰ إذا ارتفع المتمكن؛ وأنّ الذي بطل بارتفاعه هو النسبة إليه والإضافة، ويبقى المكان المطلق مكاناً كما كان وهو الخلاء الفارغ، وليس فيه جسم، فهذا إحالة على شيء لا الإدراك يثبته، ولا الوهم يتصوّره.

فإن قالوا: المكان حينئذٍ يكون مكان ما يمكن أن يكون فيه كالزقّ الخالي من الشراب، فإنه مكان الشراب الذي يمكن أن يكون فيه، قلنا: صُوِّر في وهمنا من الخلاء مثل ما نتصوره إذا توهمنا الزقّ والشراب، وذلك ممّا لا يقدرون عليه، لأنّ كلامهم فارغ لا يفضي إلى معنى محصل، وأيضاً فإن الإجسام لا تخلو من أن تكون ثقيلة فترسب، أو خفيفة فتطفو، والخلاء عندهم ليس بثقيل ولا خفيف، فيلزمهم أن تكون النقطة هي الخلاء، لأنها ليست بثقيلة ولا خفيفة، ويلزمهم على قولهم بأنّ المتحرك لا يتحرك إلاّ في الخلاء أن يتحرّك أبداً، ولا يستقر إذا لم يوجد شيء يضادّه أو يسكن دائماً فلا يتحرك، إذ لا سبب هناك يوجب تحركه، أو إذا تحرّك في الخلاء أن يتحرك إلى جميع الجهات، ولا يختص بجهة دون جهة، لأنّ الخلاء كذلك، فإن قالوا: إنّ الذي نسميه خلاءً هو الهواء، أسقط قولهم بأنّ الهواء يقبل اللون ويؤدي الصوت، والخلاء ليس كذلك، وهذا بيِّنٌ.

وأعجب من هذا أنّ الباري مخترع لجميع ما خلقه، وأنه لا يعجزه مطلوب، ولا يَتَكأّده[1] معلوم، ثمَّ أقاموا معه في الأزل الهيولى، وهو المادة، ورتَّبوا معه الصورة ليكون جميع ذلك، كالنجار والخشب والنجارة، والله تعالى يقول: ﴿قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ١٢﴾[2]، ولم يقل ذلك إلاّ وأهل العلم إذا فكّروا فيه أدركوا منه الآية البيِّنَة؛ والحجة الواضحة، وبيّنوا أنّه ليس في العالَم شيء إلاّ وهو منتقص غير كامل، وذلك هو الدليل على أنه مقهور لا يستغنىٰ به، ولا بدّ له من قاهر لا يشبهه ولا يوصف بصفاته على حدِّها، لأنّ ذلك آية الخلق، وآية الخلق لا تكون في الخالـق.

---

(١) تكأّد الشيء؛ كابده وتكلفه، القاموس المحيط/ كأد.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٩.

فصل آخر

يزداد الناظر فيه، والعارف به استبصاراً فيما وضع الباب له

إعلم أنّ الاستدلال بالشاهد على الغائب هو الأصل في المعرفة بالتوحيد، وحدوث الأجسام لا يعرف ببداهة العقل؛ ولا بالمشاهدة، لأنه لو عرف ذلك، لاستوى العقلاء في معرفته، كما استووا فيما شاهدوه وإنمّا يتهيّأ أن يعرف بما علم من تعاقب الأعراض المتضادّة عليها، وإنما لا تنفك منها على حدوثها لا بمشاهدة الأجسام، وإذا ثبت حدوث الأجسام فلا بدّ لها من محدث لا يشبهها، وإذا ثبت ذلك صحّ أنّ الفاعل للأجسام لا تحله الحوادث، وأنه سابق لها، غير مشبه لها، والحوادث غير مشبهة له.

ثم دلّ خلقه للأجسام أنه قادر حيّ كما دلّت أفعال الأجسام في الشاهد أنها حيّة قادرة لا أفعالها، إذ كانت حياتها وقدرتها لا تشاهد، دلّتنا أفعال الله تعالى أيضاً على أنه حيّ قادر، ووجب أن يكون عالماً لوجود أفعال محكمة، إذ كانت أفعال الأجسام في الشاهد إذ كانت محكمة دلّت على أنّها عالمة، ولا يدل على علمها غير أفعالها، إذكان العلم لا يدرك ولا يشاهد.

ولمّا دلّنا جواز الموت على الأجسام في الشاهد والعجز والجهل، دلّنا ذلك على أنهم كانوا أحياء قادرين بحياة وقدرة، وعالمين بعلم، وهذه الأشياء هي غيرهم، فلهذا جاز زوالها عنهم، وحدوث أضدادها بدلاً منها فيهم، ولمّا كان القديم تعالى لا يجوز شيء من ذلك عليه، وجب بدلالة الشاهد أنّه حي بنفسه عالم، ولما كان الجسم في الشاهد بالتأليف تصيَّرَ جسماً، ونعلمه جسماً، لم يجز أن يكون جسماً، فصحّ بهذا أنَّ التوحيد لا يعرف إلاّ بدلالة الشاهد، وكذلك طريق صدق الرسل، لأنه لا يعرف بالمشاهدة ولا ببداهة العقل، ولو عرف بذلك لاستوى الناس جميعاً فيه، وإذا كان كذلك فإنما يعرف بالآيات المعجزات، ولا يعرف ذلك إلاّ باعتبار أمر الشاهد، وحمل الغائب عليه، فاعلمه.

واستدلّ أبو القاسم البلخي على أنّ القديم واحد بأن قال: قد ثبت أنّ المحدثات لا بدّ لها من محدث، فمن هذا الطريق قد بان أنّ ها هنا صانعاً لا بدَّ منه، ولا أقلّ من واحد، فلذلك نعلمه يقيناً، وأنه واحد، وأمّا ما عداه مشكوك فيه فلا يتخطّاه إلاّ بدليل، وهذا قريب صحيح.

انتهىٰ الباب، والله محمود على ما سهّله ووفّقنا له من تحقيق ما أردنا تحقيقه من شرح فضائحهم وإثارة مقابحهم، والردّ عليهم في أصول دعاواهم[1] وفروعها، ومسؤول إيزاعنا شِكر نعمته، وصلة سعينا بمرضاته.

---

(١) في المطبوع: دعاويهم.

الباب الثالث

ويشتمل على بيان الليل والنهار، وعلى فصول من الإعراب يتعلّق بهما، وهي ظروف.

الفصل الأول

قال الأصمعي: أتيتُه ليلاً، وفعَلْتُه نهاراً، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ۝ وَبِالَّيْلِ﴾[1]، فقوله: بالليل، خلاف الإصباح، واعلم أنّ قوله: وبالليل موضعه نصب على الحال، كأنّه قال: تمرّون عليهم مُصْبِحِيْنَ ومُظْلِمِينَ، أي داخلين في الظلام، فأوقع الليل على الجزء الذي فيه الظلام من الليل، وإن كان في الحقيقة للجنس.

واليوم بإزاء الليلة، يقال: جئتك اليوم، وأجيئكَ الليلة، ويقال: أتيته ظلاماً، أي ليلاً، ومع الظلام، وقال يعقوب[2]: الظلام أول الليل وإن كان مقمراً، وحكىٰ بعضهم: أتيتُه ظلاماً، أي عند غيبوبة الشمس إلى صلاة المغرب، وهو دخول الليل، وهذا يؤيد ما حكاه يعقوب، وكأنه جعله الوقت الذي من شأنه أن يظلم، ويقولون: عِمْ ظلاماً، كما يقولون: عِمْ صباحاً، ويقال: نَهَارٌ أَنْهَرٌ، ولَيْلٌ أَلْيَلٌ، وليلةٌ ليلاءُ، وقال الفرزدق[3]:

والليْـــلُ مُخْتَلِـــطُ الغَيَـــاطِـــلِ أَلْيَـــلُ

وأنشد المفضّل[4]:

مَـــرْوَانُ مَـــرْوَانُ أَخُـــو اَلْيَـــوْمِ اَلْيَمِـــي

(١) سورة الصافات، الآية: ١٣٧.

(٢) هو ابن السكّيت.

(٣) شرح ديوان الفرزدق ٢/ ٧٢٤ وشطره: قالوا وخاثِرُه يُرَدُّ عَليهمُ.

(٤) بلا عزو في لسان العرب/ يوم، وفسره فقال: أراد أخو اليوم السهل اليومُ الصعبُ.

قال سيبويه: أراد اليوم فقلب وقدّم الميم، وقيل: بل حذف العين تخفيفاً، وأطلق الميم إطلاقاً.

وقال شيخنا أبو علي الفارسي وقت قراءتي عليه هذا الموضع من الكتاب، وفي حاشية نسختي: أخي اليومِ اليوم، فاستغربه وقال: يريد أنه بطل يبارز أقرانه، ويقول لهم: اليومَ اليومَ، أو هو صاحب هذا اللفظ في ذلك الوقت، وفي هذا الوجه قلب أيضاً، وقولهم: يوم في أبنية الأسماء غريب نادر، لأنّ فاءه ياء وعينه واو، ومثله في المباني، يوح، اسم للشمس، وباب أليون بالشام، وقد ذكره ابن الرقيّات في قصيدة يمدح بها عبد العزيز بن مروان[1]:

أَغنِي ابنَ لَيْلَى عَبْدَ العزيزِ بِبَابِ ... أَلْيُـونَ تَغْـدُو جِفَـانُـهُ رُدُمَـا

وقال هميان بن قحافة[2]:

فَصَـدَّقَـتْ تَحْسَـبُ لَيْـلاً لايِـلاً

فقال: لايل، وإنما يصفون بما يشتقّ من لفظ الموصوف بياناً للمبالغة وتنبُّهاً عليها، [و] على ذلك قولهم: ظِلٌّ ظَلِيلٌ، وداهِيَةٌ دَهْيَاءُ، وما أشبهها، ويقال: اَسْتَأْجَرْتُهُ مُيَاوَمَةً ومُلاَيَلَةً، إذا قدَّر أجرته يوماً يوماً وليلةً ليلةً.

وحكى أبو عبيدة أنّ العرب لا تقول إلاّ مشاهرةً، فأمّا مُعَاومة ومُيَاوَمَةً وما أشبههما، فليست من كلام العرب، وإنما هي قياس على المسموع منهم، ويقال: يوم وأيّام، والأصل: أيوام، لكنَّ الواو والياء إذا اجتمعا، فأيهما سبق الآخر بالسكون يقلب الواو ياء ويدغم الأول في الثاني، إلاّ أن يمنع مانع، على ذلك قولهم: سَيِّدٌ وميِّتٌ لأنّهما فَيْعِلٌ من سادَ وماتَ، والأصل: سَيْوِدٌ ومَيْوِتٌ، هذا فيما السابق فيه ياء، وممّا السابق فيه واو قالوا: كَوَيْتُهُ كيّاً، ولَوَيْتُهُ لَيّاً، لأنّ الأصل: كَوَىْ ولَوَىْ، وكذلك قولهم: أُمْنِيَةٌ وأُزْبِيَةٌ، وقولي: إلاّ أن يمنع مانع، احتراز من مثل قولهم: ديوان، لأنّ أصله دوّان، فَفَرّوا من التضعيف مثل ما فرُّوا منه، ومثله، سُوِيرَ وبُويِعَ، ومثله، نُؤْيٌ ورُؤْيَه[3] إذا خفف همزتهما، لأنّ الواو في جميعها لا يلزم، فلم يعتدّوا بها واواً.

ألا ترى أنَّ سوير وبويع منقلبة عن الألف في سائر وبائع، وفي رُؤْية ونُؤْيٌ مبدلتان من همزة، وتلك الهمزة ثابتة في النيّة، وإذا كان كذلك، فحكم الواو فيها حكم الألف والهمزة،

(١) ديوانه ص ١٥٢.
(٢) هو في الأزمنة وتلبية الجاهلية لقطرب ص ١٣٧، وروايته فيه تصدَّرت.
(٣) في المطبوع: لوى وروبه.

فأمّاضيون وحيوة فشاذتان عن الاستعمال ومنبهتان على أصل بالباب المرفوض على عادتهم في أمثالها.

والنهار والليل لا يجمعان إلا أن يذهب إلى بياض كلّ يوم وسواد كلّ ليلة، فتصورت بينهما خلافاً لأنّك حينئذٍ تجمع للاختلاف الداخل في الجنس، فيقال: ليالٍ وأَلْيُل، وأنهِرَة ونُهُر، وعلى هذا قول الشاعر(١):

لَـوْلاَ الثَّـرِيْـدانِ هَلَكْنَـا بـالضُّمُـرْ ... ثَـرِيـدُ لَيْـلٍ وثَـرِيْـدٌ بـاَلنُّهُـرْ

والذي يكشف لك أنّ الليل والنهارَ لا يجمعان، أنّ سيبويه قال: لا يجوز أن يقول القائل: إذا كان الليل فَأْتِني، ولا أن يقول: إذا كان النهار فأْتِني، لأنهما لا يكونان ظرفين؛ إلا أن يعنى بهما كلّ الليل والنهار، وإذا كانا كذلك؛ فسبيلهما سبيل الدهر، فكما لا تقول: إذا كان الدهر فَأْتِني، كذلك يمتنع في الليل والنهار، ويقال: رَجُلٌ لَيْلِيٌّ، ورَجُلٌ نَهارِيٌّ، إذا نسبت، ونهريّ أيضاً، وهذا كما بَنَوا للنسبة فاعِلٌ وفِعَّالٌ مثل تاجِرٌ ولابِنٌ، وبَزّاز وتَمّار، وأنشد(٢):

لَسْـــتُ بِلَيْلِـــيٍّ ولكِنِّـــي نَهِـــرْ ... مَتَـىٰ أَتَـىٰ الصُّبْـحُ فَـإِنِّـي مُنْتَشِـرْ

لا أُدْلُـــجُ اللَّيْـــلَ ولكـــن أَبْتَكِـــرْ

ويقال: ليلة وليالٍ، فكأنها جمعت على ليلاة، وإن لم يستعمل، ومثله، أهالٍ في جمع أهل، وإنّما هو في تقدير أهليّ، وعلى هذا قالوا في التصغير لُيَيْلَةٌ(٣)، والقياس في جمع ليلة ليلاء، ليالٍ لُيْلٌ، والأصل، لُوْلٌ، لأنّه فُعْلٌ مثل، حمراء حُمْرٌ، لكنهم حاموا على الياء لئلاّ يلتبس بنات الياء ببنات الواو، ومثله قولهم: بِيضٌ وعِينٌ في جمع بيضاء وعيناء، وما أنشده الكسائي من قول الكميت(٤):

وَلَـدْتُـكَ وٱلْبَـدْرَ بـن عَـائِشَـةَ ٱلَّـذِي ... أَضَـاءَ ٱبْنُهـا مُسْتَحْلِكَـاتِ اللَّيَـايِـلِ

فإنه أراد الليالي، فقلب وقدّم الياء، فلمّا وليت الألف هُمِزَتْ، كما قيل: صحايف، ومثله فيما قلبوه تُرْقُوَةٌ وتَرائِق، والأصل، تراقي.

واعلم أنهم يتوسعون في ذكرهم اليوم والليلة، ألا تراهم يقولون: فلانٌ اليَوْمَ يُعَدُّ مِنَ الرُّؤَساء، وكان في الدهر الأول على كذا، واليوم هو خلافه، وإنما يعنون الزمان،

---

(١) من غير عزو في لسان العرب/ نهر، وفيه لَمُتْنَا في موضع هلكنا، وانظر مادة/ ليل أيضاً.

(٢) الكتاب ٣/ ٣٨٤، ونوادر أبي زيد ص ٢٤٩، والمخصص ٩/ ٥١، ولسان العرب/ ليل، نهر.

(٣) في المطبوع: ليلية.

(٤) ليس في شعر الكميت المنثور، وهو في لسان العرب/ ليل، وفاتحته فيه جمعتك، ومسحتككات بدل مستحلكات.

وكما قال تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾[1]، يعني، القيامة، وليس ما أشار إليه من صورة ما نعدّه في شيء، وقال الشاعر[2]:

يَـوْمَـانِ يَـوْمُ مُقَـامَـاتٍ وأَنْـدِيَـةٍ ... ويَـوْمُ سَيْـرٍ إلـىٰ الأَعْـدَاءِ تَـأْوِيْـبِ

فقسّم دهره يومين، ويقال: النَّاسُ أغراضُ الليالي، ويراد، الأحداث، ومثله، مَن الَّذي يَسْلَمُ على اللَّيَالِي والأَيَّام، فأمّا قوله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا﴾[3]، فاليوم يعمّ أجزاء الليل والنهار، والزجر به حاصل في كلّ جزء من أجزاء الزمان، وعلى هذا قوله[4]:

يـا حَبَّـذَا العَـرَصَـاتُ يَـوْ ... مـاً فِـي لَيَـالٍ مُقْمِـراتِ

يريد وقتاً وزماناً في ليالٍ، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾[5]، أي نجعل الدُّوَل في الأزمان، فتَحَوَّل وتُنَقل بين الناس على حسب استحقاقهم، أو سَبَباً لامتحانهم، وقد سمَّت العرب وقعاتها أيّاماً، فيقولون: لنا يوم كذا ويوم كذا، وساغ ذلك لوقوعها فيها.

فصل آخر

يقال: الليلةُ لِلَيْلَتِكَ التي أنت فيها، والبارحةُ لليلة يومك الذي أنت فيه وقد مضت، وهي من بَرِحَتْ، أي انقضت، ومنه، ما بَرِحْتُ أفعلُ كذا، وأصله البَرَاحُ من المكان، وقال الفرّاء: بَرَحت، بالفتح مَضَتْ، ويقال: بَرَحَ الخفاءُ، أي زالَ، ومنه، البارحة، وقال قطرب: لا يقال بارحة الأولى، لأنّ الشّيء لا يضاف إلى نفسه، ولا إلى نعته، والجمع، البوارح[6].

وذكر بعض شيوخنا أنّ قوله: لا أبرحُ بمعنىٰ لا أنالُ، ولا يجوز أن يكون أصله من البراح من المكان، بدلالة قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾[7]، ألا ترى أنه محالٌ أن يبلغ مجمع البحرين، وهو لم يبرح من مكانه! قال: وإذا

---

(١) سورة السجدة، الآية: ٥.

(٢) هو سلامة بن جندل كما في ديوانه ص ٩٤.

(٣) سورة الأنفال، الآية: ١٦.

(٤) من غير نسبة في لسان العرب/ قمر.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ١٤٠.

(٦) الذي في أزمنة قطرب ص ١٠٧، على خلاف ما ها هنا، فقد ورد فيه، والبارحة الأولى للتي كانت قبل البارحة، وكأنها سميت البارحة من برحت، أي مضت وذهبت... وإذا جمعت البارحة قلت: البوارح، وفي البارحة الأولى البوارح الأوَل.

(٧) سورة الكهف، الآية: ٦٠.

لم يستعمل أبرح إلاّ على أحد هذين الوجهين وبطل أحدهما، ثبت الآخر، ويمكن أن يقال في جوابه، معنى لا أبرح حتى أبلغ، أي لا أتجاوز هذا الطريق؛ ولا أعدل عن سلوكه وسَمْتِه حتى أبلغ هذا المكان، فحذف الطريق، وهذا كما يقال: لم أبرح بلد كذا حتى فعلت كذا، وإن كان ينقل في البلد، لأنّ المعنى، لم أتغيّب، ويشهد لهذا أنّه لا يُسْتَعْمَل ما بَرِحَ في الله تعالى، لأنه لا يقال: لم يبرح الله قادراً، فلو كان لم يبرح بمعنىً لم يزل حتى لا فرق بينهما لَمَا امتنع ممّا دخله، وإذ قد امتنع، فلأنّه لا يجيء إلاّ وأصله البراح من المكان، ذُكِرَ أو لم يُذْكَر، وذلك لا يجوز على القديم تعالى.

واعلم أن هذه الكلمة في اللغة مدارها الأكثر على التجاوز من ذلك، قال الأعشى[1]:

أَبْـــرَحْـــتَ رَبّـــاً وأَبْـــرَحْـــتَ جَـــاراً

أي جاوزت ما عليه أمثالك في الخلال المرضية.

والبارحة الأولى، التي قبل البارحة، وجمع البارحة، البوارح، ولم يتجاوزوا ذلك، وأمّا القابلة[2] فما يستقبل بعد ليلتك التي أنت فيها، وكأنّها مأخوذة من الاستقبال، ويقال: قَبِلْتُ الوادي أَقْبَلُهُ إذا استقبلته، ويقال: آتيك القابلة والمقبلة، كما يقال: عام قابل ومقبل، وأنشد[3]:

أَقْبَلْتُهَا الخَلَّ مِنْ حَوْرانَ مُجْتَهِداً إِنِّـي لأُزْرِي عَلَيْهَـا وَهِـيَ تَنْطَلِـقُ

ويقال: فَعَلْتُهُ ليلاً ونهاراً، أي ضِيَاءً وظَلاماً غير مخصوص بوقت معلوم، وفَعَلْتُه يوماً ولَيْلَةً، يريد أنّ من جملة الزمان ما تنحصر بهذا القدر، وربّما جعل بعض أجزاء الليلة ليلاً، وجعل الليل لليلة واحدة، قال:

وَوَدَّ اللَّيْـــلُ زِيْـــدَ إِلَيْـــهِ لَيْـــلٌ وَلَـــمْ يُخْلَـــقْ لَـــهُ أَبَـــداً نهـــارُ

ولم يرد الجنس، لأنّ الجنس يستوعب الأوقات، فلا يزاد للأمثلة، وكذلك قوله:

إِنِّـــي إذا مـــا الليـــل كـــانَ لَيْلَتَيْـــنِ[4]

---

(١) ديوانه ص ٤٩. وشطره: تقول ابنتي حين جدّ الرحيل.

(٢) تحرفت القابلة في المطبوع إلى القائدة، والتصحيح عن أزمنة قطرب ص ١٠٧، والكلام فيه.

(٣) بلا عزو في لسان العرب/ خلل، وفيه شوران بدل حوران، والخلّ: الطريق النافذ بين الرمال المتراكمة.

(٤) هكذا هو في المطبوع، وبهذه الرواية يضطرب عروضه، وصواب ليلتين على ما أظن ليلين، وهو مثنىً ليل.

أراد كل واحد من الشاعرين ليلة واحدة، وأنها في طولها كانت أوقاتها وساعاتها لتطاولها وامتدادها ومقاساة ما يعاني منها كليلتين، وغرض الشاعر أن يصف طول ليلته، أي كأنّها في طولها مضاعفة متزايدة، وإذا جعل الليل جنساً فسد المعنى أيضاً، لأنّ الليل المستوعب لأجزاء جنس الليل إذا قيل فيه: كان ليلتين، وحصر بما يقع فيه التنبيه من أجزائه عاد نقصاناً لا تضعيفاً، وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾﴾[١] المراد به أجزاء ليلة طويلة من الليل، لأنه لو أريد الجنس لَمَا صحّ فيه ذكر الطول، ولَلَزِمَ التسبيح ليلة طويلة دون ليلة قصيرة، وإذا أريد الجزء من الليل في كلّ ليلة، فهو أمرٌ بالتسبيح جزءاً طويلاً، وأجزاءَ طوالاً.

وقال بعضهم في قوله تعالى: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّامِ اللَّهِ﴾[٢]، أي بنعَمِه، والكوفيون رَووا، الليل ليلك، واليوم يومك، ويراد به، الوقت وقتك، ويقال: الليل ليلك واليوم يومك، فيجعلون الأولى ظرفاً للثانية، وجعلوا الثاني جزءاً منه، لأنّ الظرف وعاء مستوعب، فيجب أن يكون أوسعَ من ذي الظرف ليوعبه ويشتمل عليه، كما يحوي الوعاء ما ضمنه، وأمّا قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا﴾[٣]، وقد علمنا أنّ السرى لا يكون إلاّ ليلاً، فالمراد، في جوف الليل، ولو قال: فاسرِ بعبادي، ولم يقل: ليلاً، لكان مطلقاً في أول الليل وآخره وما بينهما، ألا ترى أنك تقول: جاءني فلان البارحة بليل، فيكون المعنىٰ، في استحكام الليل، وقد يجيء ما لا يحتاج فيه إلى تأكيد، تقول: أدْلَجْتُ، فيكون المعنى، سرت في أول الليل، ولو قال: أَدْلَجْتُ في أول الليل لساغ، فيكون تأكيداً كتكرير الاسم أو الفعل، قال زهير[٤]:

بَكَـرْنَ بُكُـوراً وٱسْتَحَـرْنَ بِسَحْـرَةٍ   فَهُـنَّ لِـوَادِي الـرَّسِّ كـالـيَـدِ لِلْفَـمِ

فقوله: بسحرةٍ يكون على وجهين، أحدهما، أن يكون الإدلاج لآخر الليل، وبكرن للسحر وغيره، فإذا قال: بسحرَةٍ فقد بَيّن أيَّ الوقت من آخر الليل، ويكون توكيداً محضاً، قال تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ اللَّيْلِ﴾[٥] على هذا، والعرب تقول: أتيتُكَ بِقِطْعٍ من الليلِ، وبعد وَهْنٍ من الليلِ، إذا دخلت في استحكامه، فأمّا قول ضمرة[٦]:

(١) سورة الإنسان، الآية: ٢٦.
(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٥.
(٣) سورة الدخان، الآية: ٢٣.
(٤) شرح القصائد التسع ٣١٣/١.
(٥) سورة هود، الآية: ٨١، وسورة الحجر، الآية: ٦٥.
(٦) أحسبه ضمرة بن أبي ضمرة النهشلي، والبيت غُفل في لسان العرب/ بكر، وفيه بَسْلٌ بدل سهل.

بَكَرَتْ تَلُوْمُكَ بَعْدَ وَهْنٍ في النَّدَىٰ   سَهْـلٌ عَلَيْـكِ مَـلاَمَتِـي وعِتَـابِـي

فقال: بكرت، ثم قال: بعد وهن، والوهن لا يكون إلاّ ليلاً، فالمعنى، أول ذلك الوقت، وقولهم: بكر عليه، إذا لم يُهَمِّ الوقت، فإنّما يعني، جاء في أوّله ليلاً كان أو نهاراً، وبها سمِّيت الباكورة من الثمر؛ وإن لم تذكر وقتاً وقلتَ: أتانا بُكْرَةً، فإنما تأويل ذلك أول النهار لا غير، هذا المستعمل بلا شرط، وما تقدّم فإن تذكر ما يدل عليه، وكذلك اليوم إذا كان مطلقاً؛ إنّما تعني به النهار دون الليل، والألف واللام يدل على يومك إلاّ أن تصله بغيره فتقول: رأيته اليوم الذي مضى.

فصل آخر

قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾﴾[١] يريد، على ما اعتادوا في الدنيا، والبُكْرَةُ، ما اتّصل بما قبله من الليل، والعَشِيّ، ما يتصل به الليل، ولا ليلَ في الجنة، ولكن على ما أَلِفوا في الدنيا وتعوّدوه من الأوقات، ومثله: ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾﴾[٢]، ولا خَبْوَ لنار المعاد، ولكن عندما علم من خَبْوِ نارِ الدنيا، وانقضاء تصرّمها، يجدد لأولئك العذاب، فأمّا قولهم: المبكر، فهو ما جاء في أول الوقت، وليس هو من بكور الغداة، ومنه قوله عليه السلام: «بَكِّرُوْا بصَلاَةِ المَغْرِبِ»، والتبكير، أول أوقات الصلاة، ومنه قوله عليه السلام: «مَنْ بكَرَ وابْتَكَرَ»، فبكَرَ يكون لأول ساعات النهار، ويكون لأول وقت من الزوال، وابتكَرَ، لا يكون لأول ساعات النهار.

قال أبو العباس ثعلب: يجوز في قوله: ابتكر، أسرع إلى الخطبة، حتى يكون أوّل دانٍ وسامع، كما تقول: ابتكرت الخطبة والقصيدة، أي اقتضيتها وارتجلتها ابتداءً لم أرد فيه، وقول الفرزدق[٣]:

أبكـــــارُ كَـــــرْمٍ تُقْطَـــــفُ

فالمراد: حملت أول حملها، وأنشدني شيخنا أبو علي قال: أنشدني أبو بكر السراج لعنترة العَبسيّ[٤]:

إنْ كُنْـتِ أزْمَعْـتِ الفِـرَاقَ فَـإنَّمَـا   زُمَّـتْ جِمَـالُكُـمُ بِلَيْـلٍ مُظْلِـمِ

---

(١) سورة مريم، الآية: ٦٢.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ٩٧.

(٣) ديوانه ٢/٢٣، والبيت بتمامه:

إذا هُـنَّ سـاقطـن الحـديـث كـأنّـه   جنىٰ النحلِ أو أبكـار كـرمٍ تقطَّفُ

(٤) شرح القصائد التسع ٢/٤٦٧ وفيه ركابكم بدل جمالكم.

قال: يقول: إنّك ابنة ملك، فلا يُرْحَلْ بك إلاّ ليلاً، فلذلك خَفَىٰ، قال: ويجوز أن يكون المعنى، إن كنت أظهرت رحلتك الآن، فإنّما وقع العزم عليه ليلاً، كما قال الحارث بن حلّزة[1]:

أَجْمَعُـوا أَمْـرَهُـمْ بلَيْـلٍ فَلَمَّـا أَصْبَحُـوا أَصْبَحَـتْ لَهُـمْ ضَـوْضَـاءُ

كان المراد، أَمْرُهُمْ في الارتحال دُبِّرَ بِلَيْل، ولم يكن فلتةً، وقول الشاعر عمرو بن كلثوم[2]:

وأيّـام لَنَـا غـرٌ طِـوَال عَصَيْنَـا المُلْـكَ فِيْهـا أنْ نَـدِيْنَـا

أراد، الأوقات، لأنّ معصيتهم للملك كانت في الليل والنهار، فإن قلت: كيف تكون الليالي غرّاً، إلاّ ما يذكر من ليالي الشهر، يقال: ثلاث غرر، وذلك لبياضها بدوام القمر فيها، قيل: لم يرد بالغرّ بياض الوقت ووضوحه بضياء شمس أو قمر، إنّما أرادَ إسفاره وإشراقه واشتهاره في مواطن الشرف والمجد والسنا والافتخار وحميد البلاء، وحسن الآثار، ولقاح الغرة، وامتناع الجانب على من يأتيهم، وكذلك قول القائل:

وَأَيَّـامُنَـا مَشْهُـورةٌ فِـي عَـدُوِّنَـا لَهَـا غُـرَرٌ مَعْلُـوْمَـةٌ وحُجُـوْلُ

ويجوز أن يريد في الأول بالغُرّ أيضاً بياض المقاديم، كغرة الفرس، فأمّا قولهم: أيّامنا طابت ببلد كذا، والمراد لياليها؛ فهو من هذا، ولذلك قيل: لو أنّ إنساناً قال: عبدي حرٌّ لوجه الله يوم يقدم علينا فلان، إنه يعتق وإن قدم ليلاً، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[3]، قيل: أراد يوماً بعينه، وقيل: أراد زمناً ووقتاً.

قال الدريدي: والعرب تقول: كيف أصبحت من نصف الليل الآخر إلى نصف النهار، وكيف أمسيتَ من الزوال إلى نصف الليل، ويقولون: في يومك كان الليلة كذا إلى الزوال، فإذا زالت الشمس قالوا: كان البارحة[4]، وحدّث الجمحي قال: تقول العرب: صبحتك الأنعمة بطيبات الأطعمة، وحدَّث أبو العباس المبرد قال: أنشدني المازني عن أبي زيد:

كَيْفَ أَصْبَحْتَ كَيْفَ أَمْسَيْتَ مِمَّا يثبِتُ الـودَّ فـي ودادِ الكـريـمِ

---

(١) شرح القصائد التسع ٢/٥٦٢.
(٢) شرح القصائد التسع ٢/٦٢٩، وفيه ولهم بدل غرّ.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٣.
(٤) جمهرة اللغة/ ليل.

قال: المعنى، وكيف أمسيت؟ قال: وتقول العرب في مثله: ضَرَبْتُ زيداً عمراً، لا يريدون بدل الغلط ولكن يريدون الواو، قال: ولو طال الكلام لكان أحسن، مثل، ضربت زيداً وأحسنت في ذاك عمراً، ومعنى البيت، أن كل واحدة من هاتين اللفظتين والتحيتين تغرس الود للمُحَيِّي بهما في قلب المحيي، وممّا استعمل من هذا الباب ظرفاً ولم يستعمل اسماً قولهم: إنَّه لَيُسَارُ عليه صباحَ ومساءَ، معناه، صباحاً ومساءً، وهذا عكس قولهم: الليلُ، إذا أرادوا به، ليل ليلة، لأنّ الليل أَوقعَ فيه اسم الجنس على الواحد منه، وهذا أوقع فيه الواحد موقع الجنس والكثرة.

الباب الرابع

في ذكر ابتداء الزمان وأقسامه، والتنبيه على مبادىء السنة في المذاهب كلها، وما يشاكل ذلك من تقسيمها على البروج.

يقال: إنّ الله تعالى خلق الخلق كله، والشمس برأس الحَمَل، والزمان معتدل، والليل والنهار مستويان، فأول الأزمنة فصل الصيف، وهو الذي يدعوه الناس الربيع، ومنه ابتداء سنة الفُرس، فكلّما حلّت الشمس برأس الحمل، فقد مضت للعالم سنة عندهم، قال ابن قتيبة: ولذلك قال أبو نؤاس[1]:

أَمَا تَرَىٰ الشَّمْسَ حَلَّتِ الحَمَلاَ وَقَامَ وَزْنُ الزَّمَانِ فَٱعْتَدَلاَ

وغَنَّتِ الطَّيْرُ بَعْدَ عُجْمَتِهَا وٱسْتَوْفَتِ ٱلخمرُ حَوْلَهَا كَمَلا

لأنّ مراده، استوفت الخمر حول الشمس كملاً، فالهاء في قوله: حولها كناية عن الشمس[2]، [و] قد مضى ذكرها، قال ثعلب: حولها تقلبها من حال إلى حال.

وقال المبرد: من ابتداء إيراق الكرم إلى استحكام العنب ستة أشهر، ومن استحكام العنب إلى استحكام الخمر ستة أشهر، وذلك عند حلول الشمس برأس الحمل، فلذلك حول، وقال بعضهم: حول الخمر ستة أشهر، والضمير لها، فهذا ما في هذا، وقد قال أبو نُؤاس في قصيدة أخرى أولها[3]:

أَعْطَتْكَ رَيْحَانَهَا ٱلعُقَارُ وَحَانَ مِنْ لَيْلِكَ السَّفَارُ

ثم قال:

تَخَيَّرَتْ والنُّجُومُ وَقْفٌ لَمْ يَتَمَكَّنْ لَهَا ٱلمَدَارُ

---

(١) ديوانه ص ٦٣.

(٢) انظر: الأنواء في مواسم العرب ص ٢٣.

(٣) ديوانه ص ١٤٣، وقافيته فيه انسفار، وهي رواية أجود.

وفي هذا البيت معنى لطيف مليح، وذلك أنّ أصحاب النجوم والحساب يقولون: إنّ الله تعالى حين خلق النجوم جعلها واقعة في برج، ثمّ سيّرها من هناك، فيريد، أن هذه الخمرة تخَيَّرت في وقت خلق الله تعالى الأفلاك.

والروم تجعل ابتداء سنتها من الخريف، وهو زمان الاعتدال والاستواء أيضاً، فكلّما حلّت الشمس برأس الميزان فقد مضت سنة للعالم عندهم.

والعرب تجعل السنة نصفين، شتاءً وصيفاً، وتبدأ بالشتاء فتقدّمه على الصيف، كأنها تعمد على أنّ مبادىء الأقوات فيه وأوائل النماء في العالم منه، ثم أول الصيف داخل عليه واصل، وما بعده مزلق منه، وفيه يستقبل الأمور، ويفتح لأنواع الخلق التدبير، وتزدوج الأسباب[1]، وتلقح السحاب، ويحيي الأرض بعد موتها، وينشر النبات غِبَّ اندفائها، وإلى هذا أشار أبو تمّام في قوله[2]:

لَوْ لَمْ يَكُنْ غرس الشِّتَاءَ بِكَفِّهِ ... لاقىٰ المَصِيفَ هَشَايِماً لا تُثْمِرُ

ويشهد لذلك تقديم الله تعالى الشتاء على الصيف حين ذكر رحلتي قريش للتجارة، وامتَنَّ عليهم بما مكّنَ لهم في النفوس من الإجلال والمهابة، لكونهم قطّان الحرم وأرباب الأشهر الحرم، حتّى أمنوا الزمان، وكانت العرب مَنْ غَلَبَ سَلَبَ، فقال: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢﴾[3] فابتداء الشتاء وهو النصف الأول من السنة من حين ابتداء النهار في الزيادة[4]، وذلك لحلول الشمس برأس الجدي وفي برجه إلى انتهائه في الطول؛ وذلك لحلول الشمس في برج السرطان، وابتداء الصيف؛ وهو النصف الثاني من السنة من حين ابتداء النهار في النقصان، وذلك لحلول الشمس في برج السرطان إلى حين انتهائه في القصر وذلك لحلول الشمس في برج الجدي، ويقسمون الشتاء نصفين، والصَّيف أيضاً نصفين، ومنتصف كلّ واحد منهما استواء الليل والنهار، والاستواء الذي يكون في نصف الشتاء يسمّىٰ الاستواء الربيعي، وهو لحلول الشمس في برج الحَمَل، لأنّ الشتاء كله ربيع عندهم من أجل الندى، ولذلك تسمية الربيعين، الأول ربيع الماء، والثاني ربيع النبات، والاستواء الذي يكون في نصف الصيف يسمّىٰ الاستواء الخريفي، وذلك

---

(١) في المطبوع: والأسباب.

(٢) شرح ديوان أبي تمام ١/٥٣٦.

(٣) فاتحة سورة قريش.

(٤) في الثاني والعشرين من آذار يعتدل الليل والنهار، ثم يزيد النهار ويقصر الليل إلى الثاني والعشرين من حزيران ويسمى الاعتدال الربيعي. ثم يبدأ النهار بالنقصان والليل في زيادة إلى الثالث والعشرين من أيلول، وسيمر هذا الكلام مفصلاً.

لحلول الشمس في الميزان، فهذه أرباع السنة، وفصولها، الشتاء، والربيع، والصيف، والخريف، ولكل فصل من فصول السنة ثلاثة أبراج من البروج الإثني عشر، لأنّها ثلاثة أشهر[(١)].

فبروج الشتاء، الجدي والدلو والحوت، وبروج الربيع، الحَمَلُ والثَّوْرُ والجوزاء، وبروج الصيف، السرطان والأسد والسنبلة، وبروج الخريف، الميزان والعقرب والقوس، وأوائل بروج هذه الفصول تسمّىٰ منقلبة وهي، الجدي والحمل والسرطان والميزان، لأنّ في أوائل هذه الفصول ينقلب الزمان من طبيعة إلى طبيعة، وأوساطها وهي: الدلو والثور والأسد والعقرب، تسمّى ثابتة، لأنّ في أوساط الفصول تثبت طبائع الزمان على حدّها، وأواخرها وهي، الحوت والجوزاء والسنبلة والقوس تسمّىٰ ذوات جسدين، لامتزاج طبيعة كل فصل بطبيعة الفصل الذي يليه، وذكر بعضهم أنّ أهل الحجاز يجعلـ[ـون] للسنة ستة فصول، وَسْمِيّاً وشتاءً وربيعاً، فهذه أزمنة الشتاء، وصيفاً وحميماً وخريفاً، فهذه أزمنة الصيف[(٢)].

واعلم أنهم يبتدؤون من الأوقات بالليل؛ كما يبتدؤون من الزمان بالشتاء، ولذلك صار التاريخ به من دون النهار، وإنما كان عندهم كذلك لأن الظلمة الأول، والضياء داخل فيه، وكان معتبرهم بمسير القمر، فمستهله جنح العشاء، وطلوعه تحت البيات، فلولا أنّ نوره ونور الشمس يجلوان الهواء لكان الظلام راكداً، فهو أقدم ميلاداً، وأسبق أواناً، وألذّ استمتاعاً، وأوثر مهاداً، وأغزر مطراً، وأروىٰ سحاباً، وأندى ظلّاً، وأهول جناناً، وأطيب نسيماً، وأفضل أعمالاً، ولذلك قدّمه الله تعالى في رتبة الذكر ورتبة الوصف فقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾﴾[(٣)]، فرتبة الذكر ظاهرة من التلاوة كما ترى، ورتبة الوصف أنّ السكن واللباس مقدّمان على السيح[(٤)] والمعاش في متصرفات الأنام، ثمّ بعد ذلك هما أخوا الهدوء والقرار اللذين منهما يبتدىء النَّشَاءُ والنماء، وقال تعالى عند الإقسام بالزمان: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾﴾[(٥)] و ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾[(٦)] فلا موضع أجرى ذكرهما إلاّ والليل مقدّم، ثمّ فضل تبتيل المجتهد، وترتيل القارىء، وابتهال المستغفر فيه على ما يكون منّا في غيره، فقال تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾[(٧)]، وفي موضع آخر: ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾[(٨)]، ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾﴾[(٩)]، كلّ ذلك لأنه الأول المقدّم، والأصل الموصل، والأوانُ الممهّد للراحة، والوقت الموجه للرفاهية، وكذلك قالوا عند المدح: ما أمرُهُ عليه

---

(١) ينظر الأنواء والأزمنة ومعرفة أعيان الكواكب في النجوم ص ٥٦ ـ ٥٧ فإن القول مبسوط فيه.
(٢) المصدر السابق ص ٦٤.
(٣) سورة النبأ، الآية: ١٠ و ١١.
(٤) في المطبوع: السبح بالباء الموحدة.
(٥) سورة الليل، الآية: ١ و ٢.
(٦) سورة الإسراء، الآية: ١٢.
(٧) سورة آل عمران، الآية: ١٧.
(٨) سورة الذاريات، الآية: ١٨.
(٩) سورة المزمل، الآية: ٦.

بِغُمَّةٍ وَلاَ لَيْلُهُ عليه بسرمد، وقال النابغة[1]:

فَإِنَّكَ كَالَّلَيْلِ الَّذِيْ هُوَ مُدْرِكِيْ   وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ المُنْتَأَىٰ عَنْكَ وَاسِعُ

فقال: كالليل، ولم يقل: كالصبح، وإن كان المفرّ من كلٍّ لا يطاق[2]، وقال بعضهم: إنّما قال كالليل؛ لأنه كان عليه غضبان، وقد قيل: الليل أخفىٰ للويل، وأخذ الفرزدق قول النابغة هذا [فقال][3]:

وَلَـوْ حَمَلَتْنِـي الـرِّيْـحُ ثُـمَّ طَلَبْتَنِـيْ   لَكُنْـتُ كَشَـيءٍ أَدْرَكَتْـهُ مَقَـادِرُه

جعل الريح بإزاء الليل، والليل أعمّ، والمستحسن قول النبي ﷺ: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَلَيَدْخُلَنَّ هَذَا الدِّيْنُ عَلَىٰ مَا دَخَلَ عَلَيْهِ اللَّيْلُ»[4] يعني الإسلام، وكما ندب المتعبد إلى التقرب فيه إليه، وقال الله للنبي ﷺ: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾ ﴾[5] أنبأ عن نفسه تعالى بمثله فيما يبرمه ويقضيه فقال تعالى: ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾[6] يعني في ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر.

ثم قال الناس: هذا أمرٌ دُبِّرَ بِلَيْلٍ، وثبت الرأي، وهذا رأي مُبَيَّت، وليس القصد تفضيل الليل على النهار، وإنّما المراد التنبيه على سبقه، وعلى إصابة العرب في تقديمه، وقد تكلمنا في تصحيح طريقة العرب فيما قدّمناه من الآي التي شرحناها عند قوله تعالى: ﴿ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾[7]، وما تقتضيه لفظة السلخ بكلام بيِّن.

وذكر أبو حنيفة الدينوري عن غير واحد من علماء الرواية: أنّ العرب تبدأ فتقسم السنة نصفين، شتاءً وصيفاً، وتُقَدم الشتاء على الصيف، وتجعله أول القسمين، وهذا ضد صنيع الجمهور من أهل القرار وعلماء الحساب، لأنهم يُقَدّمون الصيف على الشتاء.

وقد كان بين أهل العلم اختلاف قديم[8] في أنه، أيُّ أرباع السنة أولى بالتقديم؟ حتّى رأوا أنّ ربع الربيع الذي أوّله حلول الشمس برأس برج الحَمَل أولى بالتقديم، فأطبقوا على تقديمه باتّفاق، ولذلك أجمعوا في عدّ البروج على الابتداء ببرج الحَمَل، وفي عَدِّ المنازل على الابتداء بالشَّرَطَيْنِ، حتى لا تجد في ذلك مخالفاً، هذا صنيعهم في الأزمنة، فأمّا إذا

---

(١) ديوانه ص ٣٨.
(٢) في المطبوع: والكان في المغر من كل لا يطاق.
(٣) ديوانه ١/ ٢٥١.
(٤) اختلفت رواية الحديث بين زيادة ونقصان، ينظر صحيح مسلم ١/ ٣٧١ ـ ٣٧٢.
(٥) سورة الإسراء، الآية: ٧٩.
(٦) سورة الدخان، الآية: ٤.
(٧) سورة يس، الآية: ٣٧.
(٨) في المطبوع: قديماً.

صرتَ إلى سِنِيّ الأمم وجدتهم فيها مختلفين، فمنهم من يفتتح السنة في ربع الشتاء، ومنهم من يفتتحها في ربع الخريف، ومنهم من يفتتحها في ربع الربيع[1]، كل ذلك قد فعلوا.

وممّن افتتحها في الخريف أهل الشام من السريانيين، ألا ترى أول سنتهم تشرين الأول، وأنه صدر الخريف، وابتداء الوسمي، ولعل العرب أيضاً كانت قد ابتدأت السنة في بدء الأمر على مثل ذلك فجعلوا مفتتحها في أول الوسمي، كما أنه يقدمه في قسمة الأزمان والأنواء، فثبتوا على أمرهم الأول في تقديم الوسمي، وانتقل مدخل السنة عن موضعه الأول بما بين[2] عدد أيام سنة القمر وسنة الشمس من التفاوت، والفصول إنّما تتفضل بمسير الشمس لا بمسير القمر.

وإنما توهمت هذا من صنيع العرب من أجل أنّ كثيراً من علماء الرواة يزعمون أنّ شهري ربيع إنّما سمّيَا للربيع، وأنّ جماديين إنّما سمّيتا للشتاء ووجود الماء، وأنّ شعبان إنّما سمّي شعبان لاشتعاب الظعن إياهم عن المرابع للمحاضر، وأنّ شهر رمضان إنّما سمّي رمضان لشدّة الحرّ والرمض، وأنّ صفراً نُسِب إلى الزمان الذي يسمّى الصفريّ، وهذا الذي ذكروا أمر قريب لا يبعد في الوهم، لأنّا على هذا الترتيب نجد أزمان السنة عندهم، وممّا يقوي هذا القول ما حُكِيَ عن الغنوي الأعرابي وعن غيره، فإنه قال: جمادى عند العرب الشتاء كله، قال: ويقال للحرّ كله شهر ناجر، كما يقال للشتاء كله جمادى، وكان ينشد بيت لبيد في الجزء[3]:

حتّــىٰ إذَا سَلَخَـا جُمـادَىٰ سِتَّـةٍ جـزءاً فطـالَ صيامُـهُ وصِيَامُهـا

بخفض ستة على إضافة جمادى إليها، وقال: أراد ستة أشهر الشتاء، وهي أشهر الندى والجزء، وكذلك كان ينشده أبو عمرو الشيباني خفضاً ويقول: أراد جمادى ستة أشهر فعرّف جمادى.

قال أبو حنيفة: ويشهد للغنوي كثرة ذكر العرب جمادى إمّا ببرد الزمان، وإمّا بكثرة الأنداء والأمطار، وهذا كله من أوصاف الشتاء، ولو كان قصدهم إلى ذكر الشهر لمّا تطاول لسرعة انتقال الشهر، ألا ترى أنه يكون مرّة في صبارة الشتاء، ومرّة في حمارّة القيظ، وإنما حاله في ذلك كحال سائر الشهور، وأنت لا تجد جمادى موصوفة بالحرّ كما تجدها موصوفة بالبرد، قال الشاعر[4]:

---

(١) في المطبوع: ربيع الربع.
(٢) في المطبوع: ثمانين، تحريف.
(٣) شرح القصائد التسع ١/ ٣٨٨. وقد وردت ستة فيها بالنصب، وانظر شرح البيت فيه.
(٤) هو مرّة بن محكان كما في الصحاح ولسان العرب/ ندي.

فِي لَيْلَةٍ مِنْ جُمَادَىٰ ذاتِ أَنْدِيَةٍ لا يُبْصِرُ الكَلْبُ مِنْ ظَلْمَائِها الطُّنُبا

قال أبو حنيفة: وزعم بعضهم أنهم إنّما قدّموا الشتاء على الصيف لأنّه ذكر، وأنّ الصيف أنثىٰ، ولم يذكروا علة تذكير الشتاء وتأنيث الصيف، ولا أظنه إلاّ لقسوة الشتاء وشدّته؛ ولين الصيف وهونه، ألا ترى أنّ من عادتهم أن يذكروا كلّ صعب من الأمور قاسٍ شديد حتى قالوا: داهية مذكار؛ وإن كانت أنثىٰ، فصعبوها بأن تكون تنتج ذكوراً، وحتّى قالوا: أرض مذكار إذا كانت ذات مخاوف وأفزاع، وقالوا: يوم باسلَ ذكَر في شرّه وشدّته[1]، حتى قال الشاعر[2]:

فـإنَّـكَ قَـدْ بَعَثْـتَ عَلَيْـكَ نَحْسَـاً شُقِيْـتَ بِـهِ كَـواكِبُـهُ ذُكُـورُ

فجعلها مع نحوستها ذكوراً ليكون شرّها أفظع وأصعب، والصيف وإن تلظّىٰ قيظه وحمىٰ صلاه فهو هَيِّنٌ عندهم إلى جنب الشتاء، والشتاء يبرح بالقوم، ولذلك قالت بنت الخُسّ[3] وقد سئلت عنهما أيُّهما أشدّ فقالت: وما جعل البئيسُ من الأذيّة، تقول: مَنْ يقيسُ البؤسَ والصر إلى أذىً فقط؟ أي الشتاء أشدّ، والبئيس والبؤس واحد، قال الفرزدق في نعت امرأةٍ بيضاء من أهل المدينة[4]:

لـــم تَـــذُق بَئِيساً وَلَمْ تَتْبَعْ حَمولَةَ مُجْحِدِ

ولذلك لا تجدهم يشتكون الضرّ وسوء الحال والهزال في الصيف، ولا يَعْدون أن يصفوا أواره وصخده وعطشه، وإذا صاروا إلى الشتاء عجّوا من وطئه، ونوّهوا باسم من آسى فيه واحتمل الكَلّ وأطعم المصرور.

قال الشيخ: الذي قاله أبو حنيفة في تعليل تذكير الشتاء حسن، وأقرب منه أن يقال: لما كان إدراك الثمار في الربيعين، ووضع الأحمال منَ الملاقيح ونتائج الخير في أصناف المعاش من الزرع والضرع في الصيف، وإن كانت مبادئها في أوائل الشتاء، ثمّ تَمَّت حالاً بعد حال، فكانت تنتظر في آجالها وقتاً بعد وقت انتظار ما في بطون الحاملات، فجعلوا الشتاء ذكراً والصيف أنثىٰ، وهذا شرح ما رماه الشاعر في قوله[5]:

لَـوْلاَ الَّـذِي غَـرَسَ الشِّتَـاءَ بِكَفِّـه لاقَـىٰ الشتـاءَ هَشَـائمـاً لا تثمِـرُ

---

(١) قول أبي حنيفة في الأنواء والأزمنة ص ٦٤.

(٢) من غير نسبة في أنواء ابن قتيبة ص ٢٠.

(٣) في المطبوع: بنت الحسن.

(٤) ديوانه ١/١٥٣ وأول البيت: وبيضاء من أهل المدينة لم تذق.

(٥) هو أبو تمام الطائي كما في شرح ديوانه ١/٥٣٦ وقد سبق البيت في مقدمة هذا الباب، غير أن روايته اختلفت هنا عمّا هناك. وفي عجزه المصيف بدل الشتاء أقعد للرواية.

وذكر أنّ منهم من يجعل الشتاء نصفين، الشتاء أوّله والربيع آخره، وكذلك يجعل الصيف نصفين، الصيف أوله والقيظ آخره.

وذكر ابن كناسة أبو يحيٰ أنّ العرب تسمّي الشتاء الربيع الأول، والصيف الربيع الآخر، وأنّ أحداً منهم لم يذكر الخريف في الأزمنة، لأنّ الخريف عند العرب اسم لأمطار آخر القيظ، وهذا إذا توّمل أسفر عن أنهم يجعلون الربيع اسماً للندى والجزء، لكنهم فصلوه بالشتاء لشدّة برده، ثم اشتهر الربيع أسما لما لان من طرفي الوقت.

حكىٰ ابن الأعرابي عن الغنوي أنه قال: يلقىٰ الراعي صاحبه فيقول: أين تربعت العام؟ إذا سقطت الصَّرْفَة، وسقوطه عند انصرام نصف السنة الشتوية، وقال الفرّاء: ربعية القوم ميرتهم في أول الشتاء، وأَبْيَنُ من جميع ما ذكرنا أنهم يسمون الفرغ المؤخر فرغ الربيع، وهو من الشتاء، وقال النابغة وقد جعل الحرب كالميرة[1]:

وَكَـانَـتْ لَهُـمْ رِبْعِيَّـةٌ يَحْـذَرُونَهـا إذَا خَضْخَضَتْ مَاءَ السَّمَاءِ القبائِلُ

(١) ديوانه ص ١١٨، وقافيته في المطبوع. القنابل، والثبت من الديوان.

الباب الخامس

في قسمة الأزمنة ودورانها واختلاف الأمم فيها

إعلم أنَّ الشمس تدور في الفَلَك دوراً طبيعياً، وهي لازمة له، وعليه طريقها، والقمر والكواكب الخمسة وهي، عطارد، والزُّهَرَة، والمرّيخ، والمشتري، وزحل، ربّما كانت على هذا الفلك، وربّما مالت إلى الشمال والجنوب، ويسمّى هذا الميل، عرض الكواكب، ويسمّى هذا الفلك؛ فلك البروج، وهي اثنا عشر، الحَمَل، والثور، والجوزاء، والسرطان، والأسد، والسنبلة، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والدَّلْوُ، والحوت، وإنما انقسم هذا الانقسام لأنَّ الشمس متىٰ انتقلت في دورانها من نقطة بعينها؛ عادت إلى تلك النقطة بعد ثلثمئة وخمسة وستين يوماً وربع يوم، وفي دورها تستوفي فصول السنة التي هي، الربيع، والصيف، والخريف، والشتاء.

ولهذه العلة سمّيت هذه الأيام سنة الشمس، والقمر يجتمع مع الشمس في مدة هذه الأيام اثنتي عشرة مرَّة، فجعلت الشمس اثني عشر شهراً، وسمِّيت الشهور القمرية، كما جعل الفلك اثني عشر برجاً، ليكون لكل شهر برج.

وأسماء شهور العرب، المحرّم، وصَفَر، والربيع الأول، والربيع الآخر، وجمادى الأولى، وجمادى الأُخرى، ورَجَب، وشَعبان، ورَمَضَان، وشَوال، وذو القعدة، وذو الحجة.

قال الشيخ: اختلف الناس في أعداد أيام سنيّهم، وهم متّفقون في عدة الشهور، واعتماد العرب فيها خاصَّة على الأَهِلَّة، فكل اثني عشر هلالاً عندهم سنة، فتكون عدد أيامها ثلاث مئة وأربعة وخمسين يوماً، قال أبو الحسين المعروف بالصوفي: بين أصحاب الحساب من الروم والهند خلاف يسير في مقدار هذا الكسر، فكان الأوائل من أهل الروم متفقين في القديم على ربع يوم فقط، ثم استدركوا فيه شيئاً حقيراً.

وقال أبو حنيفة: ليس في الأمم أحفظ للفصول وأوقات الأنواء والطلوع من الروم،

ولذلك مَن حلَّ من العرب في شقّ الشام أعلم بهذا من غيرهم، ثم أنشد لعدي بن الرقاع[1]:

فَلاَهُنَّ بالبَهْمَى وإيّاه مُذْ نَشَا   جنوب لِرَاشٍ فاللهالِه فالعُجُبِ
شِباطاً وكانُونَيْنِ حَتَّىٰ تَعَذَّرَتْ   عَلَيْهِنَّ فِي نَيْسَانَ باقِيَةُ الشّربِ

وإنّما وصف[2] عيراً وأتناً رعين البقل في إبّانه إلى أن هاج ونضبت المياه.

وهم يبدأون فيجعلون أول السنة تشرين الأول، ويجعلونه أحداً وثلاثين يوماً، ثمّ تشرين الثاني ثلاثين يوماً، ثمّ كانون الأول أحداً وثلاثين يوماً، ثمّ كانون الثاني أحداً وثلاثين يوماً وربع [اليوم]، ثم شباطاً ثمانية وعشرين يوماً، غير أنّهم يجعلونه ثلاث سنين، كل سنة منها ثمانية وعشرين يوماً، وفي سنة الرابعة تسعة وعشرين يوماً، وتلك السنة تكون في عددهم ثلاث مئة وستة وستين يوماً، ويسمونها الكبيسة، وقال الخليل: يكون في شباط فيما تزعمه الروم تمام اليوم الذي كسوره في السنين، فإذا تَمَّ ذلك اليوم في ذلك الشهر سمّى أهل الشام تلك السنة عام الكبيس[3]، قال: وهو يُتَيَمَّنُ به إذا ولد في تلك السنة، أو قدم فيه إنسان، ثم آذار أحداً وثلاثين يوماً، ثم نيسان ثلاثين يوماً، ثم أيار أحداً وثلاثين يوماً، ثم حزيران ثلاثين يوماً، ثم تموز أحداً وثلاثين يوماً، ثم آب أحداً وثلاثين يوماً، فتكون الزيادات من الأيام خمسة أيّام على ثلاث مئة وستين يوماً[4].

ثم أحبّوا أن لا تُغَيِّر أحوال فصول سنتهم على السنين الكثيرة والدهور المتابعة، فزادوا في آخر شباط ربع يوم، لتصير أيام سنتهم موافقة لأيّام سنة الشمس، وهي ثلاث مئة وخمسة وستون يوماً وربع يوم، ويكون ثلاث سنين متوالية كذلك، فإذا تمت الأرباع في أربع سنين تصير سنتهم في السنة الرابعة التي تليه ثلاث مئة وستة وستين يوماً، ويصير شباط في تلك السنة تسعة وعشرين يوماً، وتسمى تلك السنة الرابعة سنة الكبيسة، فكرهت الفرس أن يزيد في سنتهم ربع اليوم، لأنهم لو فعلوا ذلك لاضطروا إلى الكبيسة في كلّ أربع سنين، ولم يمكنهم ذلك لأنهم سمّوا أيام الشهر بأسامٍ، زعموا أنها أسامي الملائكة الذين يدبرون أيام الشهر، وأسامي الأيام، هرمز، بهمن، اردى بهشت، شهرير، اسفندار، مذخرداذ، مرداذ، بيا، ذر، آذر، أبان، خوزماه، تير، جوش، ديبمهر، مهر، سروش، رشن، فروردين، لوهرام، رام باذ، دنبدين، دين أرذ، اشتاذ، أسمان، زامياذ، ماراسفند، أنيران، وأسماء الشهور اعتقدوا فيها مثل ذلك وهي، فروردين ماه، اردبهشت ماه، خرداذماه، نيرماه، مرداذماه، شهرير ماه، مهرماه، أبان ماه، آذرماه، دي ماه، بهمن ماه، اسفنديار مذماه،

---

(١) ديوانه ص ٢٤٥، وقافيته مرفوعة في الديوان.
(٢) في المطبوع: نصف.
(٣) كتاب العين ٥/٣١٦.
(٤) الأنواء والأزمنة ص ٥٦.

وزعموا أنّ هرمز هو اسم المَلَك الذي يدبّر أول يوم من الشهر، وبهمن اسم المَلَك الذي يدبّر اليوم الثاني، وكذلك الأسامي كلها، وسمّوا أيضاً الأيام اللواحق بأسماء الملائكة الذين زعموا أنهم يدبّرونها، وهي، خونوذكاه، واستوذكاه، واسفيذكاه، ومشتحزكاه، وشتكاه، وقالوا: إن كبسنا في كل أربع سنين يوماً، فجعلنا اللواحق ستة أيام، بقي هذا اليوم بلا مدبّر، وسقط أول يوم من آذرماه، واستوحش هرمز؛ وقدر أنهم يقصدونه، ثم كانوا يكبسون في كل مئة وعشرين سنة شهراً واحداً لِيُسَوُّوا بين الملائكة، ولا يستوحش أحد منهم، وتصير سنتهم في تلك السنة ثلاث مئة وخمسة وتسعين يوماً، وكانوا على ذلك إلى أن انقضت دولة الفرس، ولم يكن فيهم من يمكنه فعل ذلك إلى أن كبس المعتضد مقدار ما كان قد مضىٰ من سنة الكبيسة، لكل أربع سنين يوماً واحداً، وجعل النيروز اليوم الحادي عشر من حزيران، وفيه يقول الشاعر مادحاً له:

يَـــوْمُ نَيْـــرُوْزِكَ يَـــوْمٌ   واحِـــدٌ لا يَتَـــأخَّـــرْ
مِـــن حُـــزَيْـــرانَ يُـــوَافِـــىٰ   أَبَـــداً فـــي إحْـــدَ عَشَّـــرْ

وَوَضَعَ الكبيسة على رسم الروم، ولا يعمل ذلك إلاّ ببغداد، فإنهم يجعلون أول سنتهم في التقويم يوم النيروز المعتضدي، ويستعمل في سائر البلدان النيروز القديم.

وذكر هذا الإنسان وهو أبو الحسين الصوفي أنّ العرب كانت تكبس أيضاً، ثم ذكر النسيء من قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِىٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾، وقد تقدم القول على ما قاله فيما مضىٰ، وَبَيَّنَا من تفسير الآية والأخبار المروية ما أغنىٰ.

وأعلم أنّ العرب لا تذهب في تحديد أوقات الأزمنة إلى ما تذهب إليه سائر الأمم، وتجعل أول عدد الأزمنة في تحديد أوقاتها إلى ما تعرف في أوطانها من إقبال الحرّ والبرد وإدبارهما، وطلوع النبات واكتهاله، وهيج الكلأ ويبسه، وتذهب في عدد الأزمنة إلى الابتداء بفصل الخريف، وتسميه الربيع، لأنّ أول الربيع وهو المطر يكون فيه، ثم يكون بعده فصل الشتاء، ثم يكون بعده فصل الصيف، وهو الذي يسميه الناس الربيع، ويأتي فيه بالأنوار[1]، وإنما سمّـوه صيفاً لأن المياه عندهم تقل[2] فيه؛ والكلأ يهيـج، وقد يسمّيه بعضهم الربيع الثاني، ثم يكون بعد فصل الصيف فصل القيظ، وهو الذي يسميه الناس الصيف، فأول وقت الربيع الأول عندهم وهو الخريف ثلاثة أيام تخلو من أيلول، وأول الشتاء عندهم ثلاثة أيام تخلو من كانون الأول، وأوّل الصيف عندهم وهو الربيع الثاني خمسة أيام من آذار، وأول القيظ عندهم أربعة أيام تخلو من حزيران، والخريف، المطر الذي يأتي في آخر القيظ، ولا يكادون يجعلونه اسماً للزمان وقال عدي بن زيد

(١) الأنوار جمع نَور بفتح النون وهو الزهر. (٢) في المطبوع: تغل.

فجعله اسماً للزمان[1]:

فِي خَرِيفٍ سَقَاهُ نَوْءٌ من الدَّلْـ ـوِ تَدَلَّىٰ وَلَمْ تُوَارَ العَرَاقِي

وسمّاه خريفاً لاختراف الثمار فيه، والحطيئة ممن يجعله المطر، وذكر أمرأة فقال[2]:

وتَبْدُو مُصَابَ ٱلْخَرِيفِ ٱلْحِبَالا

يريد أنها تنقل إلى البدو لمصاب هذه المطرة، فهذه حدود الأزمنة عندهم.

ثم يجعلون لكلّ زمان صميماً يخلص فيه طبعه، فيذكرون منه شهرين، ويدعون شهراً، لأنّ نصف شهر من أوله مقارب لطبع الزمان الذي قبله، ونصف شهر من آخره مقارب لطبع الزمان الذي بعده، فالخالص منه شهران، فيسمّون شهري الشتاء بالخالص، شهري قِمَاح[3]، قال الهذلي[4]:

فتىً ما ابنُ الأغَرِّ إذَا شَتَوْنَا وحُبَّ الزَّادُ في شهري قِمَاحِ

وسمّيا بذلك لأن الإبل فيهما ترفع رؤوسها عن الماء لشدّة برده، والإبل القماح هي التي ترفع رؤوسها، وقال بشر يصف سفينة[5]:

وَنحنُ على جَوَانِبِهَا قُعُودٌ نَغُضُّ الطَّرْفَ كالإبلِ القُمَاحِ

والإبل إذا رفعت رؤوسها عن الماء غضّت أبصارها، ويدعون هذين الشهرين مِلْحَانَ وشَيْبَانَ لبياض الأرض بالصقيع والجليد، وقال الكميت[6]:

إذَا أَمْسَتِ الآفاقُ حُمْراً جُلُودُها لِمِلْحَانَ أو شَيْبَان وٱلْيَوْمُ أَشْهَبُ

فهذان شهرا الشتاء، فشيبان من الشيب، وملحان من الملحة وهي البياض، وقيل كبش أملح منه.

وقال قطرب: يقال لجمادى الأولى والآخرة، شَيبان ومِلْحَانَ من أجل بياض الثلج، وقولهم: مات الجندب وقرب الأشيب[7]، أي الثلج، ويسمون شهري القيظ اللذين يخلص

---

(١) ديوان عدي بن زيد العبادي ص ١٥٢، ورواية عجزه في المطبوع: ولم يوليني العراقي.
(٢) ديوانه ص ٢٤٨، وشطره: تصيّف ذروة مكنونةٍ، وقد تصحفت قافيته في المطبوع فصارت الجيالا.
(٣) أنواء ابن قتيبة ص ١٠٩.
(٤) هو مالك بن خالد الخناعي كما في ديوان الهذليين ٣/ ٤.
(٥) هو بشر بن أبي خازم، والبيت ليس في ديوانه المنشور.
(٦) ليس في شعر الكميت المنشور، وهو في أنواء ابن قتيبة ص ٧٦.
(٧) هو جزء من سجع يتعلق بنوء العقرب، وهو: إذا طلع العقرب، جمس المذنب، وقرب الأشيب، ومات=

فيهما حرّه، شهري ناجر، وسميًا بذلك لأنّ الإبل تشرب فلا تكاد تروى لشدة الحرّ، والنجر والبغر متقاربان، وهو أن يشرب فلا يروى من الماء، يقال: نَجِر من الماء إذا امتلأ منه فكظمه وهو على ذلك يشتهيه، قال ذو الرُّمة يصف ماءً[1]:

صَرًىٰ آجِنٌ يَزْوِي لَهُ ٱلمَرْءُ وَجْهَهُ وَلَـوْ ذَاقَـهُ ظَمْـآنُ فِـي شَهْـرِ نَـاجِـرِ

وقال الشَّمَّاخ[2]:

طَوَىٰ ظِمْأَهَا فِي بَيْضَةِ القَيْظِ بَعْدَمَا جَرَتْ فِي عِنَانِ الشِّعْرَيَيْنِ الأماعِزُ

فهذان شهرا القيظ، ولا أَعْلَمُ أنّهم سمّوا شهري ربيع الثاني باسم، إلاّ أنهم يقولون: حللنا ببلد كذا في حدّ الربيع، يريدون شهريه[3]، وقال أبو ذؤيب[4]:

بِهَـا أَبَلَـتْ شَهْـرَي رَبِيـعٍ كِلَيْهِمَـا فَقَـدْ مـارَ فِيهـا نَسْـؤُهـا وٱقْتِـرارُهـا

النَّسْؤُ، بدو السمن، والاقترار، أن يخثر بولها، وهو من علامات السمن، قال رؤبة[5]:

شَهْـرَانِ مَـرْعَـاهَـا بِقِيعَـانِ الصَّلَـقْ مَـرْعَـىٰ أَنِيـقُ النَّبْـتِ مَجَـاجُ ٱلغَـدَقْ

وقال ابن مقبل[6]:

أَقَـامَـتْ بِـهِ حَـدَّ الـرَّبِيْـعِ وَحَـازَهَـا أَخُـو سَلْـوَةٍ مَسَّـىٰ بـهِ اللَّيْـلُ أَمْلَـحُ

يريد بأخي السلوة، الندى، لأنهم في رُخاء وسكون ما دام الندى عندهم، وقوله[7] مسَّىٰ به الليل، أي جاء عند مجيء الليل، والأملح، الأبيض، ربما ذكروا استيفاءها شهور الربيع الثاني كلها، قال حميد[8]:

رَعَيْنَ المُرَارَ الجَوْنَ مِنْ كُلِّ مِذْنَبٍ شُهُـوْرَ جُمَـادَىٰ كُلَّهـا وٱلمُحَـرَّمـا

قال: شهور جمادى كلها، وهما شهران، كما قال تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾[9]،

= الجندب، ولم يصرّ الأخطب. ينظر: أنواء ابن قتيبة ص ٧٦، والمخصص ٩/ ١٦، وشرحه فيهما.

(١) ديوانه ٣/ ١٦٧٨.

(٢) ديوانه ص ١٧٥، ورواية عجزه في المطبوع: جرت في عنان الشعر بينَ الأماعز.

(٣) هذا قول ابن قتيبة، وهو في الأنواء في مواسم العرب ص ١١١.

(٤) ديوان الهذليين ١/ ٢٣.

(٥) ديوانه ص ١٠٥.

(٦) البيت في ذيل ديوان ابن مقبل، إذ جعله المحقق من المنسوب، وهو لابن مقبل أيضاً في أنواء ابن قتيبة ص ١١٢، وهو للراعي النميري كما في مجموع شعره ص ٩٢.

(٧) في المطبوع: وقولهم.

(٨) هو حميد بن ثور الهلالي كما في ديوانه ص ٩. وهو في أنواء ابن قتيبة ص ١١٣.

(٩) سورة النساء، الآية: ١١.

يريد أخوين وصاعداً، ولم يفعلوا ذلك في زمن الخريف فيذكروا منه شهرين فيما علمت، ولا أحسب ذلك إلاّ لأنه لم يَدْعُهُمْ إلى ذكره شيء؛ كما دعا إليه شدّة البرد في الشتاء، وشدّة الحرّ في الصيف والقيظ، ووقت الجز في الربيع[١].

قال أبو حنيفة: الناس مجمعون من تقديم البروج على برج الحَمَل، ومن تقديم المنازل على الشرطين، وفي ذلك دلالة على تقديم فصل الربيع، وذكره قبل سائر الفصول، وهو لحلول الشمس برأس الحمل، قال: والفصل إسم جرى في كلام العرب، وجاءت به أشعارهم، قال الشاعر يصف حمير وحش:

نَظَائِرُ جُونٌ يَعْتَلِجْنَ بِرَوْضَةٍ لِفَصْلِ الرَّبِيْعِ إذْ تَوَلَّتْ صَبَائِبُه

وسمّي فصلاً لانفصال الحر من البرد، وانقلاب الزمن الذي قبله، ويقال للفصول أيضاً: الفَصيَان، والواحد فَصْيَة[٢]، وهي الخروج من حَرٍّ إلى برد، ومن برد إلى حرّ، والفَصْيَة تصلح في كلّ أوقات السنة؛ متى خرجت من أذًى إلى رُخاء فتلك فَصْيَة، ولا يستعمل الفصل إلاّ في حينه، فأمّا الأصمعي فإنّه قال: الفَصْيَةُ أن تخرج من برد إلى حرّ، ويقال: أفصىٰ القوم، وهم مفصون، ويقال: لو أفصينا لخرجت معك.

والشمس تحلّ برأس الحمل لعشرين ليلة تخلو من آذار، وعند ذلك يعتدل الليل والنهار، ويسمى الاستواء الربيعي، ثم لا يزال النهار زائداً والليل ناقصاً؛ إلى أن يمضي من حزيران اثنتان وعشرون ليلة، وذلك أربع وتسعون ليلة، فعند ذلك ينتهي طول النهار وقصر الليل، وينصرم ربع الربيع، ويدخل الربع الذي يليه، وهو الصيف، وذلك لحلول الشمس برأس السرطان، ويبتدىء الليل بالزيادة والنهار بالنقصان إلى ثلاث وعشرين ليلة تخلو من أيلول، وذلك ثلاث وتسعون ليلة، وعند ذلك يعتدل الليل والنهار ثانية، ويسمّى الاستواء الخريفي، وينصرم ربع الصيف، ويدخل ربع الخريف، وذلك لحلول الشمس برأس الميزان، ويأخذ الليل في الزيادة، والنهار في النقصان، إلى أن يمضي من كانون الأول إحدى وعشرون ليلة، وذلك تسع وثمانون ليلة، وعند ذلك ينتهي طول الليل وقصر النهار، وينصرم فصل الخريف، ويدخل فصل الشتاء، ويبتدىء النهار في الزيادة، وذلك لحلول الشمس برأس الجدي إلى مصيرها إلى رأس الحمل، وذلك تسع وثمانون ليلة وربع، فعندها ينصرم ربع الشتاء، ويدخل فصل الربيع، فعلى هذا دور الزمان، فاعلمه[٣].

---

(١) هذا الكلام كله في أنواء ابن قتيبة ص ١١١ ـ ١١٣.

(٢) لسان العرب/ فصى قال: فصية ما بين الحرّ والبرد، سكتة بينهما، وقال أيضاً: أفصىٰ الحرّ؛ خرج، ولا يقال في البرد، إلا أنه نقل عن أبي عمرو بن العلاء، كانت العرب تقول: اتّقوا الفَصية، وهو خروج من برد إلى حرّ ومن حرّ إلى برد.

(٣) ينظر: أنواء ابن قتيبة ص ٥٧ وما بعدها.

الباب السادس

في ذكر الأنواء، واختلاف العرب فيها، ومنازل القمر، مقسّمة الفصول على السَّنَة، وأعداد كواكبها، وتصوير مآخذها ضارّة ونافعة.

إعلم أنّا نذكر من أمر الأنواء ومذهب جهال العرب فيها، ومن صفة المنازل والبروج ما يحتاج إليه هذا الكتاب، والداعي إليه أنهم كانوا ينسبون الأوقات إليها كثيراً، وكذلك ما نذكره من أحوال الشمس والقمر، وكان في العرب من يسرف في الإيمان بها، ونسبة الحوادث إليها، حتى أوهم كلامهم وإفراطهم أنّ السقيا؛ وجميع ما يحمد منها أو يذم، إلى جميع ما تنقل فيه الأيام من خير وشر، ونفع وضر، وكلّ ذلك من الأنواء وبها، وهذا كإضافتهم إلى الكواكب أفعال صانعها، وتطابقهم في التيمّن والتشاؤم بها، لذلك قال رسول الله ﷺ: «مَنْ آمَنَ بِشَيْءٍ من ذَلِكَ فَقَدَ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيَّ»[1].

وقد مَرَّ فيما تقدّم من الكتاب فصل كثير، بُيِّنَ فيه فساد طريقتهم، وأنّ من عدل عنها وجعلها آيات يقيمها الله تعالى على حكمته فيها، ليعتبر المعتبرون بها؛ ويشكروا نِعَمه فيها، فقد برئت من الذم ساحته، وتباعد عن الإثم منهجه، على مثل ذلك يحمد قول عمر بن الخطاب حين خرج إلى الاستسقاء، فصعد المنبر ولم يزد على الاستغفار، ثم نزل، فقيل: إنّك لم تَسْتَسْقِ، فقال: لقد استسقيت بمجاديح السماء[2].

قال أبو عمرو: والمجاديح، واحدها مجدح، وهو نجم من النجوم، كانت العرب تقول: إنّه يمطر به لقولهم في الأنواء، قال أبو عبيد: فسألت عنه الأصمعي فلم يقل فيه شيئاً، وكره أن يتأول على عمر مذهب الأنواء، وقال الأموي: يقال فيه أيضاً: المُجْدَح

(١) سبق تفصيل هذا الحديث وغيره في الباب الثاني من هذا الكتاب.

(٢) ينظر تفصيله في مادة/ جدح من لسان العرب. وقال أراد قوله تعالى: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾﴾ سورة نوح، الآيتان: ١٠ و ١١. قلت: كأنّه جعل الاستغفار هو المجاديح.

بالضم، وأنشد فيه قوله[١]:

وأَطْعُــنُ بــالْقَــوْمِ شَطْــرَ المُلُــوْ ــــكِ حتَّــىٰ إذَا خَفَــقَ المُجْــدَحُ

قال أبو عبيد: والذي يراد من هذا الحديث أنه جعل الاستغفار استسقاء، يتأوّل قوله تعالى: ﴿ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ ﴾[٢]، وإنما نرى أنّ عمر تكلم بهذا على أنها كلمة جارية على ألسنة العرب، [و] ليس على تحقيق الأنواء ولا التصديق بها، وهذا شبيه بقول ابن عباس في رجل جعل أمرَ امرأته بيدها فطلّقته ثلاثاً، فقال: خَطَّأَ الله نوءها ألاّ طلقت نفسها ثلاثاً![٣] ليس هذا منه دعاء عليها أن لا تمطر، إنّما هو على الكلام المنقول، وممّا بيَّن لك أنّ عمر أراد إبطال الأنواء والتكذيب بها بقوله: لقد استسقيت بمجاديح السماء التي يستنزل بها الغيث، فجعل الاستغفار هو المجاديح لا الأنواء.

وهذا القدر إذا ضم إليه ما تقدّم في فصل يشتمل على تأويل الأخبار المروية عن رسول الله ﷺ، وبيان معتقدات العرب في الأنواء والبوارح، أغنى وكفىٰ في عذر من يعذر، وذمّ من يُذَمّ منهم، والسلام.

قال أبو حنيفة: يقال: ناء الكوكب ينوءُ نَوْءَاً، ونؤؤه أول سقوط يدركه في الأفق بالغداة، قبل انمحاق الكواكب بضوء الصبح، والكوكب إذا وافاه الصبح وهو مرتفع عن أفق المغرب؛ لا يزال الصبح يوافيه كلّ غداة، وهو إلى الأفق أقرب حتى يوافق موافاته الأفق انمحاق الكوكب لضوء الصبح، ثمّ يكون سقوطه بعد ذلك والكواكب ظاهرة، فلا يزال سقوطه يتأخر كل ليلة، إلى أن يكون في أول الليل فتراه على الأفق غارباً مع ظهوره للأبصار، ثم يستمر فلا يرى مقداراً من الليالي، ثم تكون أول رؤيته غامضاً في ضياء الصبح حين يبدو للأبصار[٤]، فالواجب أن يفرق ما بين الغروب الذي هو أفول[٥]، وبين الغروب الذي له النوء، لأنّ الذي له النوء سقوط النجم بالغداة في المغرب بعد الفجر وقبل طلوع الشمس، وطلوع رقيبه في المشرق في ذلك الوقت، ولا يكون هذا إلاّ

---

(١) بلا عزو في أنواء ابن قتيبة ص ٤١، والمخصص ١١/٩، وهو لدرهم بن زيد الأنصاري في لسان العرب/ جدح، وخفق.

(٢) سورة نوح، الآيتان: ١٠ و ١١.

(٣) هي امرأة قال لها زوجها: طلقي نفسك، فقالت له: طلّقتك، ومثل هذا الطلاق لا يقع، لأن الطلاق يقع إذا قالت: طلقت نفسي، والعصمة بيدها، فليس لها أن تقول طلقتك، وإنما تقول: طلقت نفسي، عندها يقع الطلاق. لتفصيل أزيد ارجع إلى مادة/ نوء في لسان العرب.

(٤) هذا النوع من السقوط يسميه أهل الأنواء سقوط الأفول، وهو غير السقوط الذي له النوء، فالذي له النوء مختص بمنازل القمر حصراً. ينظر أنواء ابن قتيبة ص ١٠ و ١٦.

(٥) في المطبوع: أول، تحريف.

في غداة واحدة من السنة للكوكب الواحد.

وأمّا السقوط الذي هو أفول واستسرار، فإنه يكون من أول الليل، وذلك أنَّ هذا النجم الساقط بالغداة في أفق السماء، يرى بعد اليوم الذي يسقط فيه متأخر السقوط عن ذلك الوقت، فيسقط قبله، ولا يزال يتأخر في كلّ يوم حتى يكون سقوطه في [آخر] الليل، ثم يتأخر في الليل إلى أن يسقط في أول الليل في المغرب، ثم يستسر بعد ذلك؛ فلا يرى ليالي كثيرة، ثم يرى بالغداة طالعاً في المشرق خفياً، فهذا سقوط الأفول(١)، وقد أحسن الشاعر في تحديد ذلك حين قال(٢):

وَأَبْصَـرَ النَّـاظِـرُ الشِّعْـرَىٰ مُبَيَّنَـةً ... لَمَّا دَنَا مِنْ صَلَاةِ الصُّبْحِ يَنْصَرِفُ
فِي حُمْرَةٍ لا بَيَاضُ الصُّبْحِ أَغْرَقَهَا ... وَقَدْ عَلَا اللَّيْلُ عَنْها فَهْوَ مُنْكَشِفُ
تَهَلْهَـلَ اللَّيْـلُ لَـمْ يَلْحَـقْ بِظُلْمَتـهِ ... فَـوْتَ النَّهَـارِ قَلِيْلاً فَهْـيَ تَـزْدَلِـفُ
لا يـيـأسُ اللَّيْـلُ مِنْهَـا حِيْـنَ تَتْبَعُـهُ ... وَلاَ النَّهَــارُ بِهَــا لِلَّيْــلِ يَعْتَــرِفُ

فهذا وقت الطلوع والسقوط، ومعنى قوله: تهلهل الليل، أي تَصَيَّر في مشرقه حيث امتزج سواده ببياض الصبح، فهي فوت النهار لأنّه لم يطمسها بضوئه، ولم يلحق بظلمة الليل الخالصة، فهي بينهما، والليل لا ييأس منها لأنّها في بقيّة منه، ولا النهار يسلمها لليل لأنّها في ابتداء منه، ومراد الشاعر بهذا الوصف أنّ الأمر الذي وقّته كان في حمارة القيظ، لأنّ الشعرى تطلع بالغداة في معمعان الحرّ.

قال الشيخ: أظنّ هذا الشاعر سلك في تحديده للاستسرار طريقة زهير حين قال يصف شاهيناً وحمامة(٣):

دُوْنَ السَّمَاءِ وَفَوْقَ الأَرْضِ قَدْرُهُمَا ... فِيمَـا تَـرَاهُ فَـلاَ فَـوْتٌ وَلاَ دَرَكُ

فقوله: لا فوت ولا درك كقول ذاك: لا ييأسُ الليل منها، ولا النهار يعترف لليل بها، وقال الكميت في تحديد وقت الطلوع(٤):

حتَّـى إذَا أَلْهُبَـانُ الصَّيْـفِ هَـبَّ لَـهُ ... وأَفْغَـرَ الكَـالِئِيـنَ النَّجْـمُ أَوْ كَـرَبُـوا
وَسَاقَتِ الشِّعْرَيَانِ الفَجْرَ بَعْضُهُما ... فِيْـهِ وَبَعْضُهُمَـا بِـاللَّيْـلِ مُحْتَجِـبُ

فجعل طلوعها بين الليل والنهار، كما جعله الأول، ومعنى أفغر النجم، يريد إذا

---

(١) الأنواء في مواسم العرب ص ١٦.

(٢) هو عدي بن الرقاع العاملي، وقد أخلّ بالأبيات ديوانه المنشور، وفي أنواء ابن قتيبة ص ١٧، والآثار الباقية ص ٣٣٩.

(٣) ديوانه ص ١٧٤.

(٤) شعر الكميت ١٠٨/١.

صارت الثريا في وسط السماء، فمن نظر إليها أفغر فاه، أي فَتَحَهُ، ومعنى كربوا، قَرُبوا، وطعن قوم على الكميت في هذا البيت وحسبوا أنه أراد أنّ إحداهما طلعت قبل الفجر فهي في الليل، وإن الأخرى طلعت مع الفجر فهي فيه، فقالوا: لا يجوز ذلك إلاّ في ثلاثة فصاعداً، قال أبو حنيفة: والذي قالوا كما قالوا، غير أنهم ذهبوا إلى غير مذهب الكميت، ولو أراد الكميت ما توهموا لكان قد أخطأ في المعنى أيضاً مثل ما أخطأ في اللفظ، وذلك أنه قال: وساقت الشعريان الفجر، فأعلَمَ أنّ الفجر طلع قبلهما؛ فكيف يعود فيجعل إحداهما طالعة قبله، هذا بتعجيل، وبَعْدُ، فإنّ الشعريين تطلعان معاً، وإنما أراد أنّ بعضهما كلتيهما في الليل، وبعضهما كلتيهما في النهار، إذا كانتا بين الليل والنهار.

وقال الشيخ: الأكشف في نصرة[1] الكميت أن يقال: أراد أن بعضَيْهما في الليل وبعْضَيْهِما في النهار، فيخرج البعض بالثنية من أن يكون بمعنىٰ أحد، ويستفاد منها أنّ الشعريين تطلعان معاً، وأنّ القصد في ذكرهما للتحديد إلى أن تكونا بين الليل والنهار، ومع ذلك فقد ضيّق على نفسه تضييقاً شديداً، فأفرط في التحديد إفراطاً بعيداً.

فإذا سمعتهم ينسبون إلى الطلوع والسقوط مرسلاً غير مضاف إلى وقت، فاعلم أنهم إنّما يريدون الطلوع والسقوط اللذين يكونان بالغداة، وذلك مثل قولهم: إذا طلعت العقرب، جَمَسَ المِذْنَبُ، ومثل قولهم: إذا طلعت الشعرى جعل صاحب النخل يرى، ومثل قول الشاعر[2]:

فَلَمَّـا مَضَـىٰ نَـوْءُ الثُّـرَيَّـا وأَخْلَفَـتْ هَوَادٍ مِنَ الجَوْزَاءِ وانْغَمَسَ الغُفْرُ

ومثل قوله[3]:

هَنَأنَـاهُـمُ حتَّـىٰ أَعَـانَ عَلَيْهِـمُ عَزَالِي سَحابٍ في اغتماسَةِ كَوْكَبِ

فهذا السقوط وما أشبهه هو بالغداة، وإذا ذكر ذلك من نجوم الأخذ خاصة فهو النوء، ألا ترى أنّهم لمّا أرادوا الطلوع بالغداة قالوا: إذا طلع النجم فالحرُّ في حدم؛ فجاء مرسلاً غير مضاف، ولما أرادوا طلوعه لغير الغداة قالوا: إذا طلع النجم عِشَاءَ ابتغىٰ الراعي كِسَاءَ[4]

(١) في المطبوع: بصرة.
(٢) هو ذو الرمة: ينظر ديوانه ١/ ٥٦٤، وفيه الزبانىٰ بدل الثريا.
(٣) هذا البيت حصل فيه خلط في المطبوع، فالبيت ها هنا شطر وعجز لبيتين مختلفين، فالعجز من بيت للراعي النميري وهو:

بقايا الذرىٰ حتى تعود عليهم عزائي سحاب في اغتماسة كوكب

والشطر من بيت رواه ابن قتيبة في أنوائه ص ٦٨ هكذا:

هنأناهم حتى أعانَ عليهم سوافي السماك ذي السلاح السواجم

(٤) السجع في أنواء ابن قتيبة ص ٣١، والمخصص ٩/ ١٥، وعجائب المخلوقات ص ٤٣.

فجاء مضافاً إلى الوقت، وأمّا قول القائل: جئت البارحة حين غاب النجم، وذهبن ليلة كذا حين طلع السماك، فإنما المراد بذلك؛ وقت المجيء والذهاب من تلك الليلة بعينها، وليس من الأول في شيء، ومنه قول الشاعر:

حتَّىٰ إذَا خَفَقَ السِّمَاكُ وأَسْحَرَا ... ونَبَا لهَا في الشَّدِّ أيَّ نِبَالِ

ومثل قول الآخر:

فَعَرَّسْنَ والشِّعْرَىٰ تَغُورُ كَأَنَّهَا ... شِهابُ غَضا يُرمىٰ بهِ الرَّجَوانِ

وإذا جاء ذكر المغيب مرسلاً، فالمراد حينئذ الغيبوبة التي هي ابتداء الاستسرار، وذلك قولهم: غرب الثريا أعوه من شرقها[1]، وكقولهم: مطر الثريا صيف كلّه، وهذا الغرب غير السقوط الذي هو النوء، ومطر نوء الثريا وسمي، ومن هذا الجنس قول الشاعر:

فَيَمَّمْتُ سَيْراً سَرِيعَ الرَّجَا ... ءِ مائلَ مِن رَاجِلٍ يَرْكَبُ
مَغِيبَ سُهَيْلٍ صُدُوْرَ الرِّكَا ... بِ سَيْراً يَشُقُّ على المُعْتِبِ

فهذا كلّه غيبوبة الاستسرار، ولا يكون إلاّ بالعشيات على أثر مغيب الشمس، ثم لا تراه بعد ذلك حتى يتمّ استسراره، ثم يكون أول ظهوره بالغدوات.

وقد اختلف الناس في معنى النوء، فبعضهم يجعله النهوض، قال: وإنما[2] سمّي نوء لطلوع الرقيب لا لسقوط الساقط، وهذا ليس بمنكر في اللغة، لأنّ هذه اللفظة تعدّ في الأضداد[3]، قال أبو حنيفة: هو النهوض، ولكنه نهوض الذي كأنه يميله شيء فيجذبه إلى أسفل، وزعم الفرّاء أنّ النوءَ السقوطُ والمَيَلان، وأنّ أبا ثِروان أنشده في صفة راع نزع في قوس[4]:

حتَّىٰ إذَا مَا التأَمَتْ مَفَاصِلُهْ ... وَنَاءَ في شِقِّ الشِّمَالِ كاهِلُه

قال: يريد أنه لمّا نزع مال إليها، وقوله: التأمت مفاصله فإنه يعني أنه لزم بعضه بعضاً لشدّة النزع، قال: ونرى أنّ قول العرب: ما سَاءَك وناءَكَ من هذا، ومعناه، أناءك، فألقى الألف للاتباع كقولهم: هَنَأني الطعام ومَرَأني، وكان ينبغي أن يكون أمراني.

قال أبو حنيفة: فأمّا من ذهب إلى أنّ الكوكب ينوء ثم يسقط، وإذا سقط فقد تقضّىٰ

---

(١) في أنواء ابن قتيبة ص ٣٥ قال أعيه، وهو من العاهة. وقال: ما طلعت الثريا ولا ناءت إلاّ بعاهة في الناس والإبل، وغربها أعيه من شرقها.

(٢) في المطبوع: لأنّه.

(٣) أضداد الأصمعي ص ٤٨، وأضداد السجستاني ص ١٢٩، وأضداد ابن السكيت ص ٢٠١. نشرها أوغست هفنر ضمن ثلاثة كتب في الأضداد.

(٤) البيت في أنواء ابن قتيبة ص ١١، ولسان العرب/ نوء.

نوؤهُ ودخل نوء الكوكب الذي بعده، فتأويله أنّ الكوكب إذا سقط النجم الذي بين يديه أطلّ هو على السقوط، وكان أشبه شيء حالاً بحال الناهض، ولا نهوض به حتى يسقط، لأن الفلك يجرّه الغور فكأنه متحامل عليه، يعني قد غلبه.

ويجمع النوء أنواء ونوآن، قال حسان بن ثابت رضي الله عنه[1]:

وَيَثْــرِبُ تَعْلَــمُ أَنَّــا بِهَــا إذَا قَحَــطَ القَطْــرُ نُــوآنُهــا

وقال بعضهم: الحقّ في ذلك مذهب الخليل الذي حكاه عنه مؤرج، وهو أنّ النوء اسم المطر الذي يكون مع سقوط النجم، لأنّ المطر نهض مع سقوط الكوكب، واسم الكوكب الساقط النوء أيضاً، فالشيء إذا مال في السقوط يقال: ناء، وإذا نهض في تثاقل يقال: ناء به، قال ذو الرّمة في وصف القطا وفراخها[2]:

يَنُــؤْنَ وَلَــمْ يُكْسَيْــنَ إلاَّ قَنَـازِعـاً مِنَ الرِّيشِ تَنْواءَ الفِصَالِ الهَزَائِلِ

ينوء الحمل الثقيل إذا مال بالبعير، ويقال: المرأة تنوء بها عجيزتها، قال الشاعر[3]:

لَهَــا حُضُــوزٌ وأَعْجَــازٌ تَنُـوءُ بِهَــا إذَا تَقُــوْمُ يَكَــادُ الخَصْــرُ يَنْخَــزِلُ

وفي القرآن: ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلۡعُصۡبَةِ أُوْلِي ٱلۡقُوَّةِ﴾[4].

فصــل

في ذكر أسماء المنازل وصفاتها، وهي نجوم الأخذ

قال الله تعالى: ﴿وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ۝٣٩﴾[5]، وهي ثمانية وعشرون منزلاً، لا اختلاف في ذلك، وتسمّىٰ نجوماً، وإن كان منها ما هو كوكب واحد؛ وكان منها ما هو أكثر، وقد قيل للثريّا: النجم، وهو كالعَلَم لها، وهي ستة كواكب، والنجم وإن كان كالعَلَم وقد شُهِرت به؛ فقد يقولون في النسبة: هذا النجم الثريا؛ إذا جعلوه اسماً لجماعة كواكبها، ويقولون: هذه نجوم الثريا، إذا جعلوا كلّ كوكب منها نجماً، ثم جمعوها، قال ذو الرمة[6]:

---

(١) ديوانه ص ٢٥٢.

(٢) ديوانه ٢/١٣٤٧، وفي المطبوع: قال ذو الرمة في وصف الرياك. والتصحيح عن لسان العرب/ قنزع.

(٣) هو الأعشىٰ كما في ديوانه ص ٥٥. ورواية الديوان:

صفر الوشاح وملء الدرع بهكنة إذا تأتّىٰ يكادُ الخصرُ ينخزلُ

(٤) سورة القصص، الآية: ٧٦.

(٥) سورة يس، الآية: ٣٩.

(٦) ديوانه ٢١٩/١، وفي المطبوع: لعاليه.

تَعـالِيْـهِ فِـي الأُدْحِـيِّ بَيْضـاً بِقَفْـرَةٍ　　كَنَجْـمِ الثُّـرَيَّـا لاَحَ بَيْـنَ السَّحَـائِـبِ

وقال الأعشىٰ فجعله جمعاً[1]:

يُـرَاقِبْـنَ مِـنْ جُـوْعٍ جِـلاَءَ مَخَـافَـةٍ　　نُجُوْمَ الثُّرَيَا الطَّالِعَاتِ الشَّواخِصَا

قال أبو عبيدة: يقال النجم فيفرد اللفظ، والمعنىٰ للجميع، وأنشد قول الراعي[2]:

فَبَـاتَـتْ تَعُـدُّ النَّجْـمَ فِـي مُسْتَحِيـرَةٍ　　سَـرِيْـعٍ بـأَيْـدِي الآكِلِيْـنَ جُمُـوْدُهَـا

يعني، ضيفة قَراها جفنة قد استحار فيها الدسم[3]، فهي ترى نجوم الليل فيها، وأمّا الكوكب فلا نعلمه يقع إلاّ على واحد فقط، وقال الآخر في منازل القمر، فسمّاها نجوماً[4]:

وأَخْـوَتْ نُجُـوْمُ الأَخْـذِ إلاَّ أَنِضَّـةً　　أَنِضَّـةَ مَحْـلٍ لَيْـسَ قَـاطِـرُهَـا يُثْـرِي

قال أبو عبيدة: نجوم الأخذ منازل القمر، سميت نجوم الأخذ لأخذه كل ليلة في منزل، وقال أبو عمرو الشيباني: الأخذ نزول القمر منازله، يقال: أخذ القمر نجم كذا إذا نزل به، وأنشد أبو عمرو:

وأَمْسَـتْ نُجُـوْمُ الأَخْـذِ غُبْـراً كـأَنَّـهـا　　مُقَطَّـرَةٌ مِـنْ شِـدَّةِ البَـرْدِ كُسَّـفُ

وقال مقطّرة، من القطار، أراد تناسقها، ومراد الشاعر، كسوفها، لأنها متناسقة في الخصب والجدب وكان على كلّ حال، وكسوفها، ذهاب نورها، لشدّة الزمان، وذلك لما يعرض في الهواء من الكدر ولا يجلوه، قال أبو الطمحان القيني[5] يذكر حميراً وردت عيوناً[6]:

تَرَاهَا نُجُوْمَ الأَخْذِ فِي حُجُراتِها　　وتَنْهَـقُ فِـي أَعْنَـاقِهَـا بـالْجَـدَاوِلِ

قال أبو حنيفة: أول ما يبتدؤن به من المنازل، الشرطان، ولما كانت العرب تقدّم الشتاء، كان أول أنوائها مؤخر الدلو، وهو الفرغ المؤخر، ونوءه محمود الوقت؛ عزيز الفقد، وهو أول الوسمي، ثمّ بطن الحوت؛ وهو الرِّشاء، ولا يذكر نوؤه لغلبة ما قبله عليه.

---

(١) ديوانه ص ١٤٩. ورواية المطبوع: خلاء بدل جلاء، وقافيته الشواحضا.

(٢) شعر الراعي النميري ص ١٩٤. وفي المطبوع: مستجيرة. والمستحيرة؛ جفنة تحيَّرَ فيها الدسم.

(٣) في المطبوع: الدهم.

(٤) بلا عزو في أنواء ابن قتيبة ص ٩، والمخصص ٩/٩، ١٤، ٢٣٦. وفاتحة البيت في المطبوع: وأخوات.

(٥) في المطبوع: القتبي.

(٦) كنت نشرت شعر أبي الطمحان القيني في مجلة المورد سنة ١٩٨٨، العدد الثالث، ولم أجد هذا البيت، ووقفت على روايته المضطربة في هذا الكتاب بعد إذّاك، فحذفت من فاتحته الواو إذ رواه وتراها، ليستقيم عروض البيت حسب.

واعلم أنّ المنازل تبدو للعين منها في السماء أبداً نصفها، وهو أربعة عشر، وكذا البروج، يبدو نصفها؛ وهو ستة، لأنّه كلّما غاب [في المغرب] واحد منها طلع من المشرق رقيبه، وسقوط كل منزل فيه ثلاثة عشر يوماً سوى الجبهة؛ فإنّ لها أربعة عشر يوماً، لأنّها خُصَّت بالليلة الباقية من أيام السنة الثلاث مئة والخمسة والستين، وفُضِّلت بذلك على سائرها لغزارة نوئها، وكثرة الانتفاع بها، ويكون انقضاء الثمانية والعشرين، وانقضاء الاثني عشر مع انقضاء السنة(١).

ولما كانت السنة أربعة أجزاء، صار لكل ربع منها سبعة منازل، وهي الأنواء، وأسماؤها: الشَّرْطان، البُطَين، الثُّريا، الدَّبَران، الهَقْعَة، الهَنْعَة، الذِّراع، النَّثْرَة، الطَّرْفُ، الجَبْهَة، الزُّبْرَة، الصرفة، العَوَّاء، السِّماكُ الأعزلُ، الغُفْرُ، الزّبَانَىٰ، الإكليلُ، القَلْبُ، الشَّوْلَةُ، النَّعَائِمُ، البَلْدَةُ، سَعْدُ الذَّابِحُ، سَعْدُ بُلَع، سَعْدُ السُّعُودِ، سَعْدُ الأَخْبِيَةِ، الفَرْغُ الأَوَّل، الفَرْغ الثَّاني، الرِّشاء، فهذه ثمانية وعشرون نجماً هنَّ أمّهات المنازل.

قال أبو حنيفة: وقد يعدون معها نجوماً أخر إذا قصّر القمر أحياناً عن هذه المنازل نزل ببعض تلك، وذلك لأنّ القمر لا يستوي سيره فيها، لأنك تراه بالمنزل، ثم تراه وقد حل به في الشهر الآخر، فتجد مَكانَيْهِ مختلفين فيه إذا أنعمت حفظه وضبطه، ولهذه العلة يخلطونها بالمنازل، حتى ربما جُعِلَ لبعضها في الأنواء حَظّاً.

أمّا الشرطان، فهما كوكبان على أثر الحوت مفترقان، شمالي وجنوبي، بينهما في رأي العين قدر ذراع، وإلى جانب الشمالي منهما كوكب صغير؛ ذُكِرَ أنهما به سميت الأشراط، والواحد منهما: شَرَط متحرك، وقد ذُكِرَ عن العرب شَرْط بالإسكان، قال كُثَيِّر في جمعهما(٢):

عَـوَادِ مِـنَ الأَشْـرَاطِ وُطْـفٌ تَقُلُّهـا ... رَوَايِـحُ أَنْـوَاءِ الثُّـرَيَّـا الهَـوَاطِـلُ

وقال الكميت في الإفراد(٣):

وَمِـنْ شَـرَطِـيٍّ مُـرْثَعِـنٍّ تَجَلَّلَـتْ ... عَـزَالٌ بِهَـا مِنْـهُ بِثَجَّـاجَـةٍ سَجْـلِ

وليس يمنع تحريكه في النسبة من أن يكون الواحد شرطاً بإسكان، وإذا نسب إليها لم ينسب إلا بالجمع أو الإفراد، فأمّا مثنًى فلم نجدهم قالوا: شرطاي، قال العجاج في الجمع(٤):

---

(١) أنواء ابن قتيبة ص ١٠، وقوله في المطبوع: وانقضاء الاثني عشر مع انقضاء السنة، يريد البروج.
(٢) ديوانه ص ٤٥٥، وهو في لسان العرب/ شرط أيضاً.
(٣) شعر الكميت ٢/ ٩٧.
(٤) ديوانه ص ٣٢٢.

مِــــنْ بَــــاكِــــرِ الأَشْــــرَاطِ أَشْــــرَاطِــــيُّ

وهذا قليل.

قال الشيخ: الجمع قد نسب إليه إذا جُعِلَ علماً، أو أجري مُجْرىٰ العَلَم، فالعَلَم كقولهم: كِلابيٌّ أَنماريٌّ ومَدَائِنِيٌّ، وَمَا أُجري مُجْرَى العَلَم، أَشْرَاطِيٌّ، قال: ويقولون: الشرطان، قُرنا الحَمَل. ويسمونها، النطح أو الناطح، وبين يدي الشرطين كوكبان شبيهان بالشرطين، يقال لهما: الأنيسان[1]، قال أبو حنيفة: ذكر الرواة أن العرب تجعلهما ممّا يقصر القمر فينزل بهما[2]، ويجعلون لهما في الأنواء حَظّاً.

وأمّا البُطَيْن فثلاثة[3] كواكب خفية، كأنها نقط الشاء، وهو على أثر الشرطين بين يدي الثريا، وقد يتكلمون به مكبَّراً فيقولون: البطن، ويزعمون أنه بطن الحَمَل.

وأمّا الثُّرَيّا: فهي النجم، لا يتكلمون بها مكبَّرة، وهي تصغير ثروى، مشتّقاً من الثروة، وكأنَّه تأنيث ثَرْوان، والنجم كالعَلَم له، يقال: طلع النجم، وغاب النجم، وأنشد للمرّار[4]:

وَيَــوْمٍ مِــنَ النَّجْــمِ مُسْتَــوْقِــدٍ ... يَسُــوقُ إلــىٰ ٱلمَــوْتِ نَــوْرَ الظِّبَــاءِ

وقال[5]:

إِذَا النَّجْمُ أَمْسىٰ مَغْرِبَ الشَّمْسِ طَالَعَاً ... وَلَـمْ يَـكُ فِـي الآفَـاقِ بَـرْقٌ يُنِيـرُهـا

قال الشيخ: هذا كما اشتهر عبد الله بابن عباس، وصار كالعَلَم له، وكان له إخوة، قثم وغيره، فلم يشتهروا به، ويقولون: الثريا إلية الحَمَل.

وأمّا الدَّبَران: فالكوكب الأحمر الذي على أثر الثُّرَيّا، بين يديه كواكب كثيرة مجتمعة، من أدناها إليه كوكبان صغيران يكادان يلتصقان، يقول الأعراب: هما كلباه، والبواقي غنمه، ويقولون: قِلاصُهُ، قال ذو الرمّة[6]:

وردْتُ ٱعْتِسَــافــاً وَٱلثُّــرَيّــا كــأَنَّهــا ... عَلَىٰ قِمَّـةِ الـرَّأْسِ ٱبـن مَـاءٍ مُحَلِّـقُ

---

(١) في المطبوع: الأنثيان، وفي المخصص ٩/ ١٢ قال: أبيات، وفي تكملة المعاجم العربية ١/ ٢٠٢، قال: الانيسان، نجمان من نجوم كوكبة الجنوبي.

(٢) في المطبوع: به.

(٣) في المطبوع: فتلقه. تحريف.

(٤) هو المرار بن سعيد الفقعسي، والبيت في مجموع أشعاره ضمن كتاب شعراء أمويون ١/ ٤٣٥.

(٥) هو حاتم الطائي كما في ديوانه ص ٩٣، وهو أيضاً في أنواء ابن قتيبة ص ٣٠، باختلاف قليل.

(٦) ديوانه ١/ ٢٥١.

يَـدُبُّ عَلَـىٰ آثَـارِهَـا دَبَـرانُهـا فَـلا هُـوَ مَسْبُـوقٌ وَلاَ هُـوَ يَلْحَـقُ

بِعشرِينَ مِن صُغْرىٰ النُّجُوم كأَنَّها وَإِيَّاهُ فِي ٱلْخَضْرَاءِ لَوْ كانَ يَنْطِقُ

قِـلاَصٌ حَـدَاهَـا رَاكِـبٌ مُتَعَمِّـمٌ [هجائنُ قد كادَتْ عَلَيهِ تَفَرَّقُ][١]

[قُـرَانَـىٰ وأَشْتَـاتـاً وَحَـادٍ يَسُـوقُهـا] إلى المَاءِ مِنْ قُرْنِ التَّنُوفَةِ مُطْلِقُ

قرن التنوفة، أعلاها، والمُطْلِقُ، الذي يطلب ليلة الماء، وبَعْدَه، القَرَبُ، للوِرْد، ويسمّىٰ دَبَراناً لدُبُورِ الثريا كما قيل أُبياناً ونُعمَان، وسمِّي، تالي النجم، وتابع النجم، وقد يطلق فيقال: التابع، ويقال أيضاً: حادي النجم، ومن أسمائه، المِجْدَح بالضمّ والكسر، فالضمّ حكاه الشيباني، والكسر حكاه الأموي، والمنجمون يسمونه، قلب الثور، وقولهم: الدبران، ممّا اختُصّ وجرى مجرىٰ العلم.

وأمّا الهَقْعَةُ: فهي رأسُ الجوزاء، ثلاثة كواكب صغار مُثَفَّاة، وتسمى الأثافي تشبّهاً بها، حُكِي عن ابن عباس أنه قال لرجل طَلَّقَ عدد نجوم السماء: يُجْزِئُكَ منها هقعة الجوزاء[٢]، وقد يقال للدائرة تكون في شقِّ[٣] الفرس، الهَقْعَة، وهي تكره، يقال: فرس مهقوع.

وأمّا الهَنْعَة: فكوكبان بينهما قيد سوط، وهما على أثر الهقعة، ولتقاصرها عنها سميت الهنعة، والذراع المبسوطة بينهما منحطة عنهما، ويقال: أكمة هنعاء إذا كانت قصيرة، وتَهانَعَ الطائر إذا كان طويل العنق فقصّرها، وقال ابن كناسة: يقال للهَنْعَة: الزِّرُّ والمَيسان[٤]، وإنما ينزل القمر بالتَّحايي[٥]، وهو كواكب ثلاثة بازاء الهنعة، الواحدة تِحياه[٦].

وأمّا الذراع: فهي ذراع الأسد المقبوضة، وللأسد ذراعان، مقبوضة ومبسوطة، فالمقبوضة منهما هي اليسرى، وهي الجنوبية، وبها ينزل القمر، وسميت مقبوضة لتقدّم الأخرى عليها، والمبسوطة منها هي اليمنىٰ، وهي الشمالية، وكلّ صورة من نظم الكواكب فميامنها مما يلي الشام، ومياسرها مما يلي الجنوب، لأنها تطلع بصدورها ناظرة إلى

---

(١) حدث في المطبوع خلط بين بعض صدور الأبيات وأعجازها فَصَحَّحناه من الديوان، بما حصرناه بين معقوفين.

(٢) لأنها ثلاثة كواكب، والطلاق يقع بعددها، وقول ابن عباس في لسان العرب/ هقع.

(٣) في المطبوع: للدابرة يكون الشق الفرس.

(٤) في المطبوع: الزرق الميسان، ينظر: أنواء ابن قتيبة ص ٤٦، وفي المخصص ٩/ ١١ قال: الذرّ، وهو وهم، وانظر أيضاً: الأنواء والأزمنة ومعرفة أعيان الكواكب في النجوم ص ٩١.

(٥) في المطبوع: التخاي.

(٦) في المطبوع: تخياه.

المغارب، فالشمال على أيمانها، والجنوب على أيسارها[1]، وقد فهم ذلك القائل: والنجوم التي تتّابع بالليل وفيها ذات اليمين، ازورارها على أيمانها إطافة منها بالقطب، وقال أبو حنيفة: أنت ترى الكوكب يَدْراً من مطلعه من الأفق الشرقيّ، فلا يَسْتَقيم مُضِيئُه إلى مقابل مطلعه من الأفق الغربي في المنظر، ولكن تراه يتجانف إلى القطب، ولذلك قال الشاعر[2]:

وَعَـانَـدَتْ الثُّـرَيَّـا بَعْـدَ هُـدْءٍ　　مُعَـانَـدَةً لَهَـا العَيُّـوقُ جَـارُ

لأنّها تركت القصد في المنظر، فذلك معاندتها، وعلة ذلك ما بيّنه الكميت في قوله[3]:

مَـالَـتْ إلَيْـهِ طِلاَبـاً وَاْسْتُطِيـفَ بـهِ　　كَمَـا تُطِيـفُ نُجُـومُ اللَّيْـلِ بـالقُطُـبِ

وأحد كوكبي الذراع المقبوضة هي الشعرى الغميصاء، وهي تقابل الشعرى العبور، والمجرّة بينهما، وقد تكبّر، فيقال: الغمصاء، قال أبو عمرو: هي الغميصاء والغموص، ويقال لكوكبها الأحمر الشمالي: المِرْزَم، مِرزَم الذراع، وهما مِرْزَمَانِ، هذا أحدهما، والآخر في الجوزاء، قال:

وَنَـائِحَـةٍ صَـوْتُهَـا رائـعٌ　　بَعَثْـتُ إذَا خَفَـقَ المِـرزمُ

ويروى، إذا ارتفع المِرزَم، فهذا المرزم هو الذي في الذراع، لأن مرزم الجوزاء لا نوء له، وليست من المنازل، وقد ذكرا جميعاً بالنوء على ذكر الشِّعْرَيَيْنِ والسماكين، قال جدار[4]:

احتبـك جـدّ المـرزميـن　　متـىٰ ينجـدا بنـوالٍ تغـورا

وقال ابن كناسة: الذراع المقبوضة بأسرها هي المرزم، وحكي مثل ذلك عن الغنوي[5]، ومن أحاديثهم، كان سهيل والشعريان مجتمعة، فانحدر سهيل، فصار يمانياً، وتبعه العبور، عبرت إليه المجرّة، وأقامت الغُمَيْصَاء، فبكت لفقد سهيل حتى غمصت، والغمص في العين ضعف ونقص[6]، وقالوا: ربَّما عَدَلَ القمر فنزل[7] بالذراع المبسوطة.

---

(١) الأنواء والأزمنة ص ٩٣.

(٢) هو بشر بن أبي خازم كما في ديوانه ص ٦٦، وعاندت؛ بعدت عن الطريق، وبعد هدي، أي بعد ليل.

(٣) أخل به شعر الكميت، وهو بلا عزو في أنواء ابن قتيبة ص ١٢٦.

(٤) هكذا روي البيت محرفاً في المطبوع، ولم أجده في مرجع آخر فأتثبت منه.

(٥) هو هكذا في الأنواء والأزمنة ص ٩٣.

(٦) أنواء ابن قتيبة ص ٥٢، والأنواء والأزمنة ص ٩٤.

(٧) في المطبوع: فزل.

وأمّا النثرة: فثلاثة كواكب متقاربة، أحدها كأنه لطخة، يقولون: هي نثرة الأسد، أي أنفه، قال ذو الرمّة[١]:

مُجَلْجَلُ الرَّعْدِ عَرّاصا إذَا ٱرْتَجَسَتْ نَوْءُ الثُّرَيّا بِهِ أَوْ نَثْرَةُ الأَسَدِ

أَنَّث فعل النوء وهو ذكر، لأنه أضافه إلى الثريا، وليس بمنفصل منها، وتسمى اللطخة اللهاة، وقال آخر[٢]:

فَهَدَّمَ مَا قَدْ بَنَتْهُ ٱلْيَدَا نِ حَوْلَيْنِ وٱلأَنْفُ وٱلكَاهِلُ

ذكر الهدم والبناء ها هنا كقول الآخر[٣]:

عَلَىٰ كلِّ مَوَّارِ المِلَاطِ تَهَدَّمَتْ عَرِيكَتُهُ العَلْيَاءُ وٱنْضَمَّ حَالِبُه
رَعَتْهُ الفَيَافِي بَعْدَ مَا كَانَ حِقْبَةً رَعَاهَا وَمَاءُ الرَّوْضِ يَنْهَلُّ سَاكِبُه[٤]
فأَضْحَىٰ الفَلاَ قَدْ جَدَّ في بَرْيِ نَحْضِهِ وكانَ زَمَاناً قَبْلَ ذَاكَ يُلاَعِبُه[٥]

وأمّا الطَّرْفُ: فكوكبان يبتدران[٦] الجبهة، بين يديها، يقولون: هما عين الأسد. وأمّا الجبهة: فجبهة الأسد، قال[٧]:

إذَا رأيتَ أَنْجُماً مِنَ الأَسَدْ جَبْهَتَهُ أوِ الخَرَاةَ وٱلكَتَدْ

وهي أربعة كواكب خلف الطرف، معترضة من الجنوب إلى الشمال سطراً مِعْوَجّاً، وبين كلّ كوكبين منها قيس الذراع، والجنوبي منها هو الذي يسميه المنجمون، قلب الأسد.

وأمّا زُبْرَةُ الأسد: فهي كوكبان على أثر الجبهة بينهما قيد سوط، والزُّبْرَةُ كاهله وفروع كتفيه، ويسميان، الخَرَاتَيْنِ، الواحدة خَرَاة.

وأمّا الصَّرْفَة: فكوكب واحد نيِّر على أثر الزُّبْرَة، يقولون: هو قُنْب الأسد، والقُنْب، وعاء القضيب، وسمّيت صَرْفَة لانصراف الحرّ عند طلوعه غدوة، وانصراف البرد عند سقوطه غدوة.

وأمّا العَوّاء: فإنّ ابن كناسة جعلها أربعة أنجم، وهي خمسة لمن شاء، ومن شاء ترك

---

(١) ديوانه ١/ ١٦٩.
(٢) نسبه ابن قتيبة في أنوائه ص ٥٨ إلى بعض الأعراب يصف سنة جدب. وفاتحته فيه: تواضع.
(٣) هو أبو تمام الطائي كما في ديوانه بشرح الصولي ١/ ٢٩٢.
(٤) في المطبوع: الغياغي في موضع الفيافي.
(٥) رواية شطره في المطبوع: فاضحىٰ الفلا قد جدّ في برء فصبه.
(٦) في المطبوع: يبتدآن.
(٧) هو رجز وقد نثره في المطبوع، ينظر لسان العرب/ خرت، وقد روىٰ معه آخر.

واحداً، إلاّ أنّ خلقتها خلقة كتابـ[ـة] الكاف غير مشقوقة، وليست نيّرة، وهي على أثر الصرفة، وزعم أبو يحي[1] أنها سميت العواء بالكوكب الرابع الشمالي منها، وإذا عَزَلْتَ عنها هذا الكوكب الرابع كانت الباقية مثفّاة الخلقة، وهم يجعلون العواء وَرِكَي الأسد، وأحسب هؤلاء تأوّلوا أسمها[2]، والعَوّاء تمَدّ وتقصر، قال الراعي[3]:

وَلَمْ يُسْكِنُوهَا الجَزْءَ حَتّىَ أظَلَّها سَحَابٌ مِنَ العَوّا وثابَتْ غُيُومُها

ويقال لها: عَوّاء البرد، يزعمون أنها إذا طلعت أو سقطت أتت ببرد.

وأمّا السماك: فهما سماكان، الأعزل، والقمر ينزل به، ولا ينزل بالآخر، وهو الرامح، وسُمِّي رامحاً لكوكب صغير بين يديه يقال له: راية السماك، وبه سمِّي رامحاً، ويسمّىٰ الآخر الأعزل، لأنه لا شيء بين يديه، كأنه لا سلاح معه، وقال كعب بن زهير[4]:

فَلَمّـا اَسْتَـدَارَ الفَـرْقَـدَانِ زَجَـرْتُهـا وَهَـبَّ سِمَـاكٌ ذُو سِـلَاحٍ وأَعْـزَلُ

وقال الطِّرِمّاح[5]:

مَحَـاهُـنَّ صَيِّـبُ نَـوْءِ الـرَّبِيْـعِ مِـنَ الأَنْجُـمِ العُـزْلِ والـرّامِحَـه

وهم يجعلون السماكين ساقي الأسد، وأحد السماكين جنوبي؛ وهو الأعزل، والآخر، وهو الرامح شمالي، وقال ابن كناسة: ربما عدل القمر فنزل بعجُز الأسد، وهي أربعة كواكب بين يدي السماك الأعزل منحدرة عنه في الجنوب، وهي مربعة على صورة النعش، ويقال لها: عَرْش السماك، وتسمّى أيضاً، الأحمال، وتسمّى، الخباء[6]، وهم يجعلون لها حَظّاً في الأنواء، قال ابن أحمر يصف ثوراً[7]:

بَـاتَـت عَلَيْـهِ لَيْلَـةٌ عَـرْشِيَّـةٌ شَـرِيَـتْ وبَـاتَ إلـى نَقَـى مُتَهَـدِّدِ

شريت، لجّت، والمتهدد، المتهدم لا تماسك لمحضره، وكان المنجمون يسمون السماك الأعزل، السنبلة، لسموكه سمِّي سِمَاكاً، وإن كان كلّ كوكب قد سَمَك، فهو كقولهم: الدَّبَرَان.

---

(١) أبو يحيىٰ: يعني ابن كناسة، وهذه كنيته.

(٢) ورد بعده: والمحاش حشوة البطن، وأحسبها عبارة مقحمة على الأصل، إذ أنني لم أتبين لها وجهاً يتعلق بما ورد في النص، ولذلك أسقطها.

(٣) شعر الراعي النميري ص ٢٤٣.

(٤) شرح ديوان كعب بن زهير ص ٥٧.

(٥) البيت في لسان العرب/ عزل.

(٦) في المطبوع: الجناء.

(٧) ديوانه ص ٥٨، وهو في أنواء ابن قتيبة ص ٦٦، وأساس البلاغة/ عرش، وقافيته يتهدد.

وأمّا الغُفْرُ: فثلاثة كواكب بين زبانىٰ العقرب وبين السماك الأعزل خفيّة، على خلقة العواء، قال ذو الرمّة[1]:

فَلَمَّا مَضَىٰ نَوْءُ الثُّرَيَّا وأَخْلَفَتْ ... هَوَادٍ مِنَ الجَوْزَاءِ وٱنْغَمَسَ الغُفْرُ

والعرب تقول: خير منزلة في الأبد بين الزبانىٰ والأسد، يعنون الغُفْر، لأنّ السماك عندهم من أعضاء الأسد، فقالوا: يليه من الأسد ما لا يضر، الذنب يدفع عنه الأظفار والأنياب، ويليه من العقرب ما لا يضر، الزبانى[2] تدفع عنه الحمّة[3].

وأمّا الزُّبَانَىٰ، فهما زُبَانَيَا العقرب، أي قرناه، وهما كوكبان مفترقان بينهما في المنظر أكثر من قامة الرجل، ويقال لهما: زُبَانَىٰ الصيف لأنّ سقوطهما في زمان الحرّ. قال ذو الرمّة[4]:

وَزَفْزَفَت للزُّبَانَىٰ مِنْ بَوَارِحِها ... هِيْفٌ أَنَشَّت بِهَا الأَصْنَاعَ والخُبَرا

الأصناع: محابس الماء، والواحد صنع، والخُبَر، جمع خَبْرَة، وهي أرض يكون بها السدر؛ ويدوم فيها الماء يريد أن رياح الزبانى أنضبت المياه، وقيل: يسمّي أهل الشام زبانى العقرب يديها.

وأمّا إكليلُ العَقْرَبِ، [فـ] رأسُها، وهي ثلاثة كواكب معترضة، بين كلّ كوكبين قيد ذراع، قال جران العَوْد[5]:

بِمُطْرِقِيْنَ عَلَىٰ مَثْنَىٰ أَيَامِنِهِمْ ... رَامُوا النُّزُوْلَ وَقَدْ غَارَ الأَكَالِيْلُ

جعل كل كوكب منها إكليلاً.

وأمّا القَلْبُ، قلبُ العقرب [فهـ]ـو الكوكب النيّر الأحمر الذي وراء الإكليل، بين كوكبين[6] وهم يستحسنونه، قال[7]:

فَسِيْرُوا بِقَلْبِ العَقْرَبِ ٱلْيَوْمَ إِنَّهُ ... سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ بِالنُّحُوسِ وبِٱلسَّعْدِ

---

(١) ديوانه ١/ ٥٦٤، وقد سبق إنشاده، ورواية الديوان: الزبانىٰ بدل الثريا.

(٢) في المطبوع: الذنابىٰ.

(٣) أنواء ابن قتيبة ص ٧٢، والآثار الباقية ص ٣٤٤ وفيه:

خيـر ليـال فـي الأبـد ... بيـن الـزبـانـىٰ والأسـد

(٤) ديوانه ٢/١١٤٨. وفاتحة البيت في المطبوع: يا قد زفت، وأنست في موضع أنشّت.

(٥) ديوانه ص ١٠٠.

(٦) في المطبوع: سيرة كوكبان، والتصحيح عن أنواء ابن قتيبة ص ٧٤، وقد سماهما النياط.

(٧) هو الأسود بن يعفر كما في الطرة الثانية على الصفحة ٧٥ من أنواء ابن قتيبة، وقد راجعنا ديوان الأسود بن يعفر فلم نجده، ونسبه المرزوقي في الجزء الثاني إلى شاعر جاهلي، وسيمر هناك.

وأمّا الشَّوْلة: فإبرة العقرب، كذلك يسميها أهل الشام، وهي كوكبان مضيئان صغيران متقاربان في طرف ذنب العقرب، وقالوا: ربَّما قصر القمر فنزل بالفقار[1] فيما بين القلب والشولة، والفقار أحد كواكب ذنب العقرب، يجعلون كل كوكب منها فقرة وهي ستّ فقر؛ والسابعة الإبرة، قال ابن كناسة: الشولة التي ينزل بها القمر حذاء القلب في حاشية المجرّة، وليس هناك شولة، ولكن القمر إنّما ينزل بالشولة على المحاذاة، ولا ينحطّ إليها، إلاّ أنّها منحدرة عن طريقته، وها هنا يقطع القمر المجرة إذا هو فارق العقرب ومضىٰ نحو السعود، لأنّ المجرّة تسلك بين قلب العقرب وبين النعائم منقطع نظام المنازل في هذا الموضع، وفي موضع آخر، وهو[2] بين الهقعة والهنعة، لأنّها تسلك أيضاً بينهما، فيعترض نظام المنازل اعتراضاً، وها هنا أيضاً يقطع القمر سائر[3] الكواكب المحاذية للمجرة، وذلك حين ينحدر عن غاية تعاليها إلى ذروة القبّة[4] في الهبوط، فأمّا قَطْعُها إيّاها عن السعود، فذلك حين يبتدىء الصعود بعد غاية الهبوط، وتسمّى الشولةُ شولة الصورة، وهي منغمسة في المجرّة.

وأمّا النعائم: فثمانية كواكب، أربعة في المجرّة؛ وهي النعائم الواردة، وأربعة خارجة عن المجرَّة، وهي النعائم الصادرة، وهي منحدرة، وكل أربعة منها على شَبَهٍ بالتربيع، وفوقها كوكب[5] إذا تأملته مع كوكبين من النعائم الوارد شبهتها به قبّة[6]، وإنما قيل وارداً لشرعه في المجرّة، وقيل: الصادر لمجيئه عنها.

وأمّا البَلْدَة، فرقعة من السماء لا كواكب بها بين النعائم وبين سعد الذابح ينزلها القمر، ويقولون: ربما عدل القمر أحياناً فنزل بالقلادة، وهي ستة كواكب صغار خفيّة فوق البلدة مستديرة تُشَبَّه بالقوس، وتسميها العامة القوس، ويسمّى موضع النعائم الوصل[7].

وأمّا سعد الذابح: فكوكبان غير نيِّرين، وكذلك السعود كلها، وبينهما في رأي العين قَيس الذِّراع، وذَبْحُه، كوكب صغير قد كاد يلزق بالأعلى منها، تقول الأعراب: هو شاته

---

(١) في المطبوع: الغفار في الموضعين.
(٢) في المطبوع: وهما.
(٣) في المطبوع: وسائر.
(٤) القبة: كواكب موقعها أسفل من شولة العقرب، أنواء ابن قتيبة ص ٧٧.
(٥) في المطبوع: كواكب.
(٦) في أنواء ابن قتيبة ص ٧٨ شبهتها بناقة.
(٧) قوله في المطبوع: ويسمىٰ موضع النعائم الوصل، عبارة لم أجدها فيما استشرت من أصول، والكلام عن البلدة بتمامه في أنواء ابن قتيبة ص ٧٨ عدا هذه العبارة، إلا أنّه قال: ويسميها قوم القوس، وتسمّىٰ الأدحي.

التي تذبح، قال الطرِمّاح[1]:

ظَعَائِنُ شِمْنَ قَرِيحَ الخَرِيفِ مِنَ الفُرْغِ والأَنْجُمِ الذابحه

قريحه، أوَّلُه.

وأما سعدُ بلَع: فنجمان نحو من سعد الذابح، أحدهما خفيّ جدّاً، وهو الذي بَلَعَه، أي جعله بُلَعا، كأنّه مسترط، وذكر أنه سمِّي بلعاً لأنه طلع حين قيل: ﴿يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ﴾[2]، وهذا لست أدري ما هو[3].

وأمّا سَعْدُ السُّعود: فكوكبان أيضاً نحو من سعد الذابح، وسمّي سعد السعود بالتفضيل عليهما، ولأنَّ الزمان في السعدين اللذين قبله قَسِيّ، وطلوع سعد السعود يوافق منه ليناً في برده، قالوا: وربما قصر القمر، فينزل بسعد ناشرة[4]، وهو أيضاً كوكبان أسفل من سعد السعود، قال الكميت[5]:

ولكِنْ بِنَجْمِكَ سَعْدُ السُّعُودِ طَبَّقْتَ أَرْضِيَ غَيْثاً دَرُوْرَا

وأما سَعْدُ الأخْبِيَةِ: فثلاثة كواكب متحاذية، فوق الأوسط منها كوكب رابع، كأنها به في التمثيل رجل بَطّة، وقيل: إنَّ السَّعْدَ منها واحد، وهو أنورها، وأنَّ الثلاثة أخبية، وقيل: سمِّي الأخبية لأنه إذا طلع انتشرت [الهوامّ] فخرج منها ما كان مختبئاً في البرد، لأنّ طلوعه في وقت الدِّفاء، والسعود متناسقة بعضها على أثر بعض.

وأمّا الفَرْغُ الأول: فهو فرغ الدَّلْو، والدَّلْوُ أربعة كواكب مربعة واسعة، بين كلّ كوكبين قدر قامة الرَّجُل أو أكثر في رأي العين، فهم يجعلون هذه الكواكب الأربعة عَرَاقي الدَّلْو، قال عديّ بن زيد[6]:

فِي خَرِيْفٍ سَقَاهُ نَوْءٌ مِنَ الدَّلْـ ـوِ تَدَلَّىٰ ولَمْ تُوارَ ٱلعَرَاقِي

وفُرْغ الدَّلْو مصبّ الماء من بين العَرَاقي، وقد يقولون لهما العرقوة العليا والعرقوة السُّفْلَى، قال[7]:

---

(١) ديوانه ص ٧١، وهو في أنواء ابن قتيبة ص ٨١، ولسان العرب/ قرح.

(٢) سورة هود، الآية: ٤٤.

(٣) هذا الكلام لأبي حنيفة الدينوري كما في المخصص ٩/ ١٢.

(٤) في المطبوع: باثرة.

(٥) شعر الكميت ١/ ٢٠٨، وقافيته في المطبوع: درودا.

(٦) ديوانه ص ١٥٢.

(٧) هو الكميت، ينظر مجموع شعره ٢/ ١٣٥، وشطره فيه: يا أرضنا هذا أوان تحيين.

قَـدْ طَـالَ مَـا حُـرِمْـتِ نَـوْءَ الفُـرْغَيْـن

وأمّا الفُرْغُ الثاني، وهو العرقوة السُّفلَى فكمثل الفُرْغ الأول، وقد يقال للفرغ الأول ناهزا الدَّلْو المقدمان، وللفُرغ الأسفل ناهزا الدلو المؤخران، والناهز، الذي يحرّك الدلو ليمتلىء، وقالوا: [قد] يقصر القمر أحياناً فينزل بالكَرَب، والكَرَب، الذي وسط العراقي الأربع، والكَرَب من الدلو، ما شدّ به الحبل من العراقي، وقالوا: ربما نزل ببلدة الثعلب، وهو بين الدَّلْو والسمكة من عن يمين المرفق.

وأمّا الرشاء، وهو السمكة، فكواكب في مثل خلقة السمكة؛ وفي موضع البطن منها من الشقّ الشرقي نجم منير ينزل به القمر يسمونه، بطن السمكة، والمنجّمون يسمونه، قلب الحوت[1].

ويقال لما بين المنازل: الفُرُج، فإذا قصر القمر عن منزلة؛ واقتحم التي قبلها، نزل بالفرجة[2] بينما استحبّوا ذلك إلاّ الفرجة التي بين الثريا والدبران، فإنهم يكرهونها ويستخشونها، ويقال لها: الضِّيْقَة، قال[3]:

فَهَـلاَّ زَجَـرْتِ الطَّيْـرَ لَيْلَـةَ جِئْتِـه بِضِيْقَـةَ بَيْـنَ النَّجْـمِ والـدَّبَـرانِ

وسمّيت ضِيقَة لضيقها عندهم، فإنهم يتواضعون قصر ما بين طلوع النجم وطلوع الدبران، ذكر عن يزيد ابن قحيف الكلابي أنه قال: ما بينهما إلاّ سبعة أيام، وإنما هذا نحو نصف ما قُدّر لما بين المنزلين.

قال أبو حنيفة: فهذا ما حُكِيَ لنا، وأمّا نحن فلم نجدها أقصر المنازل كلها مدَّة في الطلوع، ولا فرجة في المنظر، وأنّ الذي بين[4] الطرف والجبهة لأقلّ من ذلك، ولكن قد وجدناهما في الغروب عندهم متقاربين جداً، حتى لا نكاد نثبت بينهما شيئاً ما هو الآن؛ إلاّ أن يسقط النجم، فما يستقيم السقوط حتى يسقط الدبران، وأحسبُ الذي اشتهر أمرهما في هذا الباب حتى يوصفا من بين المنازل كلها شهرتهما؛ وكثرة استعمالهم إياهما، ولا سيَّما النجم، فإنّ تفقّدهم له شديد، وذكرهم إياه كثير.

وإذا لم يعدل القمر عن المنزل قيل كالح مكالحة، والمكالحة مثل المكافحة، كأنه إذا لاقاه دافعه من غير حاجز بينهما.

---

(١) لتفصيل أزيد ارجع إلى أنواء ابن قتيبة ص ٢١ ـ ٨٩.

(٢) في المطبوع: فنزل بالفرجة.

(٣) هو الأخطل، ينظر ديوانه ص ٢٣٣، ولسان العرب/ ضيق، نجم.

(٤) في المطبوع: نير.

فصـــل
في بيان الاختلاف الواقع بين العرب في أوقات الأنواء، والكلام في الضِّيْقة

قال أبو الحسين الصوفي: هذا الذي يذكرونه في الضيقة؛ وأنّ القمر ربما قصر فنزل بها غلط، لأنّ كواكب الثريا في خمس عشرة درجة من الثور، وهذان الكوكبان في أربع وعشرين درجة ونصف منه، وبين الثريا وبينهما نحو تسع درجات، وأبطأ ما يكون سير القمر في يوم وليلة، وأبعده نحو إحدى عشرة درجة، وإنّما سمِّيت الفرجة التي بين الثريا والدبران الضيقة؛ لأنهم يستعملون طلوعها وسقوطها في الغرب بالغدوات عند طلوع رقبائها، وظهورها من تحت الشعاع، ورقيب كل واحد منهما هو الخامس [عشر] منه، ولا يستعملون طلوعهما، ووسط الثريا في خمس عشرة درجة من الثور، والدبران في خمس وعشرين درجة منه، وبينهما بدرجات البروج عشر درجات، لكن عرض الثريا في الشمال عن درجتها أربع درجات ودقائق، وعرض الدبران في الجنوب خمس درجات.

ومن شأن الكواكب الشمالية أن تطلع قبل طلوع درجتها، وتغيب بعد مغيب درجتها، والجنوبية تطلع بعد طلوع درجتها، وتغيب قبل مغيب درجتها، فتطلع الثريا كذلك مع ثلاث عشرة درجة من الثور بالتقريب، ويطلع الدبران مع سبع وعشرين درجة منه، فيكون بين طلوع الثريا وطلوع الدبران أربع عشرة درجة بالتقريب، وتغيب الثريا مع سبع عشرة درجة من الثور [لأنها] لا تغيب بعد درجتها، ويغيب الدبران مع ثلاث وعشرين درجة منه، لأنه يغيب قبل درجته، فيكون بين مغيب الثريا ومغيب الدبران ست درجات بدرجات البروج، فلما وجدوا بين غروب الثريا وغروب الدبران هذا القدر، سمّوا الفرجة بينهما بضيقة، واستخشوها واستخشوا الدبران أيضاً مفرداً، وتشاءموا به، حتى قالوا: إنّ فلاناً أشأم من حادي النجوم، ويتشاءمون أيضاً بالمطر الذي يكون بنوئه؛ ويزعمون أنهم لا يمطرون بنوء الدبران إلاّ وتكون سنتهم جدبة.

قال أبو زيد وقطرب جميعاً: وهذه حكاية عن القشيريين قالوا: أول المطر، الوَسْمِيّ، وأنواؤه العرقوتان المؤخرتان من الدَّلْو، ثم الشَّرْط بتسكين الراء، ثم الثريا، وبين كل نجمين نحو من خمس عشرة ليلة، ثمّ الشتوي بعد الوسمي، وأنواؤه الجوزاء، ثم الذراعان ونثرتهما؛ ثمّ الجبهة، وهو آخر الشتوي وأول الدَّفَئِي، ثم الدَّفَئِي وأنواؤه آخر الجبهة [والعواء] ثم الصَّرفة، وهي فصل بين الدَّفَئِي والصيف، [ثمّ الصيف]، وأنواؤه السماكان الأول الأعزل، والآخر الرقيب، وما بين السماكين صيف أربعين ليلة، ثم الحميم، وهو نحو

من خمس عشرة ليلة إلى عشرين، عند طلوع الدبران، وهو بين الصيف والخريف، وليس له نوء، ثمّ الخريف، وأنواؤه النَّسْران، ثمّ الأخضر، ثم عرقوتا الدلو الأوليان، ولكل مطر من الوسمي إلى الدَّفَئِي ربيع، وإنما هذه الأنواء في غيبوبة هذه النجوم.

قالوا: فأول القيظ طلوع الثريا، وآخره طلوع سهيل، وأول الصفرية طلوع [سهيل][1] وآخره طلوع السماك، وفي أول الصفرية أربعون ليلة، يختلف حرُّها وبردها، وتسمّى المعتدلات، ثمّ أول الشتاء طلوع السماك، وآخره وقوع[2] الجبهة، وأول الدَّفَئِي وقوع الجبهة، وآخر[ه] الصَّرفة، وأول الصيف السماك الأعزل، وهو الأول، وآخر الصيف السماك الآخر الذي يقال له: الرقيب، وبينهما[3] أربعون ليلة أو نحوها، انتهت الحكاية[4].

قال ابن كناسة: أَعْلَمُ العرب بالنجوم بنو مارية من كلب، وبنو مرّة بن همّام من بني شيبان، وذكر عنهم أن أول الأنواء الدلو، ونوؤه محمود، وهو أول الوسمي، ثمّ بطن الحوت، ولا يذكر نوؤه لغلبة ما قبله عليه، ثمّ الشَّرَط، محرك الراء، ويثنىٰ ويجمع، عَرَّفها[5] يونس وغيره وقال:

وَمَا رَوْضَـةٌ غَنَّـاءُ غَـضٌّ نَبَـاتُهـا   يَجـودُ بشَتْيَـاهـا لَهـا الشَّـرَطَـانِ

وقال العجّاج في الجمع[6]:

مِـنْ بَـاكِـرِ الأَشْـرَاطِ أَشْـرَاطِيُّ   مِـنَ الـرَّبِيـعِ أَنْقَـضَ أَوْ دَلْـوِيُّ

وقال ذو الرمّة[7]:

قَـرْحَـاءُ حَـوَّاءُ أَشْـرَاطِيَّـةٌ وَكَفَـتْ   فِيهـا الـرَّبَـابُ وحَفَّتهـا البَـراعيـمُ

قوله: حوّاء، يريد، هي من الخضرة سوداء، وجعلها قرحاء لأنوارها، جعلها كقرحة الفَرَس، ونوؤه محمود، ثمّ البَطْن، وبعضهم يقول: البُطَين، ونوؤه غير محمود ولا مذكور، ثمّ الثُّرَيّا، ونوؤه مقدم في الحمد، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «إِذَا طَلَعَتِ الثُّرَيَّا ٱرْتَفَعَتْ

---

(١) ما بين المعقوفين ساقط من الأصل المطبوع زدناه عن أزمنة قطرب ص ١٠٠.

(٢) في أزمنة قطرب طلوع الجبهة، وأظنه الصواب.

(٣) في المطبوع: وفيهما.

(٤) حكاية القشيريين هذه في الأزمنة وتلبية الجاهلية لقطرب ص ٩٩ ـ ١٠٠، وما بين المعقوفين زيادة عنه.

(٥) أي جعلها معرفة.

(٦) ديوانه ص ٣٢٢.

(٧) ديوانه ١/٣٩٩، وفاتحته فيه حواء قرحاء.

العَاهَة»(١)، ولذلك لا يقبل بالحجاز قول من ادَّعى عاهة في ثَمَرَة اشتراها بعد طلوع الثريا، ثم الدَّبَران، وهو مكروه النوء، ثمّ الهَقْعَةُ، ولا يذكر نؤوه منفرداً، فهذه منازل كلّ الوسمي، وهي خمسة، فليس قبل الفَرْغ المؤخّر وسمِيّ، ولا بعد الثريا وَسْمِيّ، وهي أول أنواء الخريف، وسمّوا النوئين الباقيين وَلِيّاً، وهما الدَّبَران والهَقْعَة.

ثمّ أول الربيع، وأنواؤه سبعة، الأربعة الأولى شَتِيَّة، وهي الهَنْعَة؛ ونوؤه لا يذكر، والذراع؛ ونؤوه مقدّم مذكور، والنثرة؛ ونوؤه محمود، والطَّرف؛ ونوؤه لا يفرد بالذكر، والثلاثة الباقية دفيئة، ويقال: الدثيئة، وهما بمعنىً، كما يقال: اللِّفَام واللِّثَام، وسميّت بذلك لأنّها في دبر الشتاء وابتداء الدفء، والجبهة؛ ونوؤها من أذكر الأنواء وأشهرها؛ وأحبّها إليهم؛ وأعزّها فقداً، والزُّبرة؛ وقلَّما يفرد نوؤه، والصَّرفة، وغلبت أنواء الأسد عليها، وإنّما سميت صرفة لانصراف الشتاء، فهذه منازل كلّ الربيع.

ثمّ الصيف، وأنواؤه سبعة، فالخمسة الأولى منه صيف، والنوءآن الآخران الباقيان حَمِيم، وسمِّي حميماً لأنّ أمطاره تجيء وقد تحرّك الحرّ، فأوّلها العَوّا، وبعض العرب يمدّه فيقول: العَوّاء، ونوؤها ليلة، ثمّ السماك، ونوؤه من الأنواء المذكورة المحمودة، ولذلك قال الشاعر:

أَجَشُّ سِمَاكِيٌّ كَأَنّ رَبَابَهُ

ثمّ الغُفْر؛ ولا يذكر نوؤه، وقيل: لا يعدم نوؤه، ثمّ الزُّبَانَىٰ، ثمّ الإكلِيْل، ثم القَلْب، ثم الشَّوْلَةُ، وأربعتها لا تذكر أنواؤها، وربما ذكرت العرب مجملة، فهذا كله الصيف.

ثمّ الخريف، وهو فصل القيظ؛ وأنواؤه سبعة، والأربعة المتقدمة رمضيّة وشمسية لشدّة الحرّ، والثلاثة الباقية خريفية، وأول أمطاره في كلام أهل الحجاز وتميم، الحميم، فأوّله النعائم، ثم البَلْدَة، ثمّ سعْدُ الذابِحُ، ثم سَعْدُ بُلَع، ثمّ سَعْدُ السُّعود، ثمّ سَعْدُ الأخبية، وهذه الستة لا ذكر لأنوائها ولا مبالاة لأخواتها، وسميت خرفية لأنها تجيء والثمار تخترف في أيامها، ثمّ مقدّم الدَّلْو، ونوؤه من الأنواء المشهورة، ويقال: الفُرْغ المقدّم أيضاً؛ لأنّها مقدّمة ما بين الوسمي، وموطىء له، وفرط، فهذه منازل كلّ الحميم.

وبعد هذه الأربعة ستة سعود متناسقة في جهة الدلو، وليست هي من المنازل، أوّلها سَعْد ناشرة، وهو أسفل من سعد الأخبية، ويطلع مع الشرطين، ثم سعد الملك، [ثم سعد

(١) الحديث في أنواء ابن قتيبة ص ٣٥، وروايته فيه: إذا طلع النجم لم يبق في الأرض من العاهة شيء إلاّ رفع، وفسَّرهُ فقال: إنه أراد عاهة الثمار. وانظر أيضاً لسان العرب/ نجم.

البهائم] ثم سعد الهمام، ثمّ سعد البارع، ثم سعد مطر، وكل سعد منها كوكبان في رأي العين قدر ذراع، كنحو ما بين سعود المنازل(١).

فصــل

وأعلَم أنّ ما ذكرته من الطلوع والغروب؛ تختلف فيهما أحوال البلدان، فربَّما طلع النجم ببلد في وقت وطلع في غير ذلك البلد في وقت آخر، إمّا قبله، وإمّا بعده بأيّام، فهذان النَّسران، وهما النسر الواقع وقلب العقرب يطلعان معاً بنجد، ويطلع النسر الواقع على أهل الكوفة قبل قلب العقرب بسبع، ويطلع قلب العقرب على أهل الربذة(٢) قبل النسر [الواقع] بثلاث، وربّما طلع النجم ببلد، ولم يطلع ببلد آخر كسهيل؛ فإنّه يظهر بأرض العرب وباليمن؛ ولا يُرى بأرمينية، وبين رؤيته بالحجاز ورؤيته بالعراق بضع عشرة ليلة، وبنات نعش تغرب بعَدَن؛ ولا تغرب بأرمينية(٣).

قال أبو محمد القتبي: بلغني أنّ كلّ بلد جنوبي؛ فالكواكب اليمانية فيه تطلع قبل طلوعها في البلد الشمالي، وكل بلد شمالي؛ فالكواكب الشامية فيه تطلع قبل طلوعها في البلد الجنوبي، وفي الكواكب الشامية ما يكون [له] في الليلة الواحدة غروب من أولها في المغرب، وطلوع من آخرها في المشرق، كالعَيُّوْق؛ والسماك الرامح؛ والفكّة، والعوائذ؛ والنسر الواقع؛ والفوارس؛ والردف؛ والكفّ الخضيب، ومُدَدُها في ذلك تختلف، فمنها ما يُرى كذلك أيّاماً، ومنها ما يُرىٰ شهراً، ومنها ما يُرَىٰ أكثر من شهر(٤).

وإذا نزل القمـر في استوائه ليلة أربع عشرة [أ] وثلاث عشرة بمنزل من المنازل، فهو سقوط ذلك المنزل، لأنّ القمر يطلع من أول المشرق ليلة أربع عشرة [أو ثلاث عشرة] مع غروب الشمس، ويغيب صبحاً مع طلوع الشمس، فيسقط ذلك النجم الذي كان نازلاً به(٥).

وقال ابن الأعرابي: بين طلوع الثريا مع الفجر؛ وبين عوده إلى مثله ثلاث مئة وخمسة وستون يوماً وربع يوم؛ فالقمر ينزل بها ثم بسائر المنازل، يأخذ كلّ ليلة في منزل، فذلك ثمانية وعشرون منزلاً، ينزل بها القمر إذا كان كَرِيتاً، ويعود للنجم الذي استهلّ به لتسع

---

(١) ينظر: الأنواء في مواسم العرب ص ٨٥، وما بين المعقوفين زيادة عنه، والأنواء والأزمنة ص ٧٤.
(٢) في المطبوع: الدبرة.
(٣) مازج المؤلف بين قول أبي حنيفة الدينوري وابن قتيبة، انظر هذا الكلام كله في الأنواء والأزمنة ومعرفة أعيان الكواكب في النجوم ص ٣٤.
(٤) الأنواء في مواسم العرب ص ١٥.
(٥) المصدر السابق والصفحة.

وعشرين، وإذا كان حثيثاً تخطرف منزلة، والكريتُ، التامّ، والحثيث، الناقص[1]. وينزل لثمان وعشرين ليلة بمستهلّه، فمن ثم صار ما بين حول الأهلة وبين حول طلوع الثريا مع الفجر إلى مثله فَصَل أحد عشر يوماً وربع يوم، قال: والخَطْرَفِيَّةُ، أن يجعل الخطوتين خطوة، والمنزلتين منزلة، فربما استُسَرّ ليلة، وربّما اُسْتَسَرّ ليلتين أو نحوهما.

(١) لم أجد فيما استشرت من قواميس اللغة أنّ الحثيث هو الناقص، وأحسبه الحتيت بالتاء، وهو التقشر والتساقط، وقد نقل ابن منظور عن ابن الأعرابي: التحتيت؛ التكسر والضعف. أنظر مادتي/ حت وحتت من لسان العرب.

الباب السابع

في تحديد سِنيِّ العرب والفرس والروم وأوقات فصول السنة

قد عرَّفتك فيما تقدم أن العرب تبدأ بالشتاء بعد أن تجعل السنة نصفين، شتاءً وصيفاً، ثمّ تقسم الشتاء نصفين، فتجعل الصيف أوَّله والقيظ آخره، وأنّها تفارق سائر الأمم في تحديد الأوقات، فأوّل وقت الربيع الأول عندهم وهو الخريف، ثلاثة أيام تخلو من أيلول، وأوّل الشتاء عندهم، ثلاثة أيام تخلو من كانون الأول، وأوّل الصيف عندهم وهو الربيع الثاني، خمسة أيام تخلو من حزيران، والخريف عندهم اسم للمطر الذي يأتي في آخر القيظ من دون الزمان، وذكر المرَّار[1] الفقعسي أنه يكون حلول الشمس بأعلى منازلها في شدّة الحرّ، وذلك إذا حلّت بأوّل السرطان فقال:

إذَا طَلَعَـتْ شَمْـسُ النَّهَـارِ فـإنَّهـا   تَحُـلُّ بـأَعْلَـىٰ مَنْـزِلٍ وتَقُـومُ[2]

يريد أن الشمس في منتهىٰ صعودها في القيظ، فإذا طلعت حلّت بأوّل منها، وإذا انتصفت قامت على قمّة الرأس، وهذا يدل على معرفتهم بحلول الشمس رؤوس الأرباع، وإن كان حساب فصولهم على غير ذلك.

وأمّا أصحاب الحساب فيحدّون فصول السنة بحلول الشمس بنجم من هذه النجوم الثمانية والعشرين، ويجعلون لكلّ زمان من الأزمنة الأربعة سبعة أنجم منها، ويبدأون من الأزمنة بالفصل الذي تسميه العامة الربيع، وهو عند العرب الصيف، ونجوم هذا الفصل؛ الشرطان؛ والبطين؛ والثريا؛ والدبران؛ والهقعة؛ والهنعة؛ والذراع؛ والشمس تحلّ بالشرطين بالغداة لعشرين ليلة تخلو من آذار، فتسترهما وتستر المنزل قبلهما، فلا يزال الشرطان مستورين بها إلى أن يطلعا بالغداة لست عشرة ليلة تخلو من نيسان، فيكون بين حلول الشمس بها وطلوعها سبع وعشرون ليلة[3].

---

(١) في المطبوع: المراد.

(٢) أخل به شعر المرار الفقعسي المنشور ضمن شعراء أمويون القسم الأول.

(٣) في أنواء ابن قتيبة ص ١٤ ستة وعشرون يوماً. وهو الأثبت لأن حلول الشمس في المنزلة يستمر ثلاثة عشر يوماً فتسترها وتستر التي قبلها، فيكون طلوع المنزلة التي حلت فيها الشمس بعد ستة وعشرين=